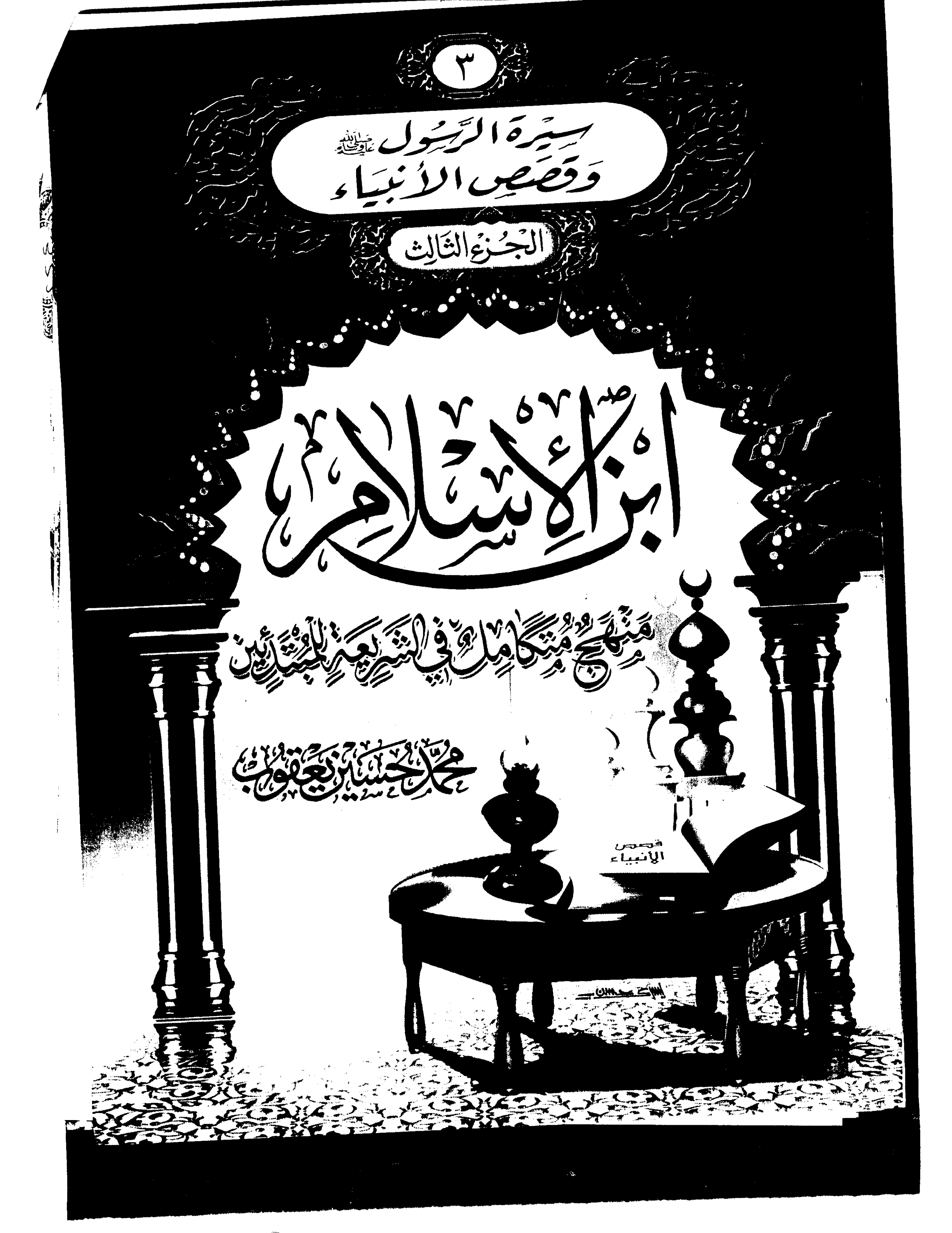
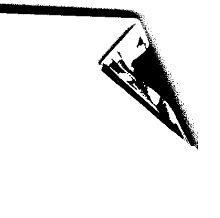

٣
سيرة الرسول ﷺ
وقصص الأنبياء
الجزء الثالث
ابن الإسلام
منهج متكامل في الشريعة للمبتدئين
محمد حسين يعقوب
قصص الأنبياء




ابن الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦ م

ابن الإسلام

مكتبة سوق الآخرة — دار التقوى

المعتمدية — شبرا الخيمة

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٥٥٥ لسنة ٢٠٠٦

الترقيم الدولى ٥-١٣-٤٢٩-٩٧٧

مقدمة

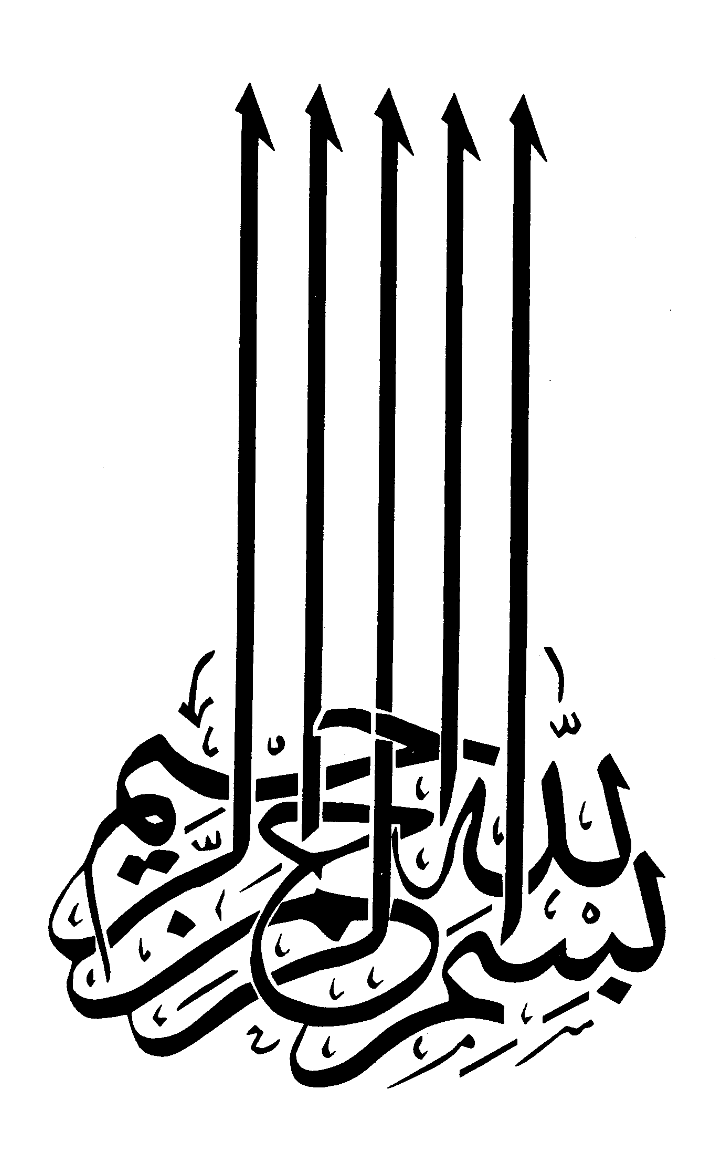
لا يستغني عنه بيت مسلم
العلم بين يدي الجميع



منهج متكامل في الشريعة للمبتدئين

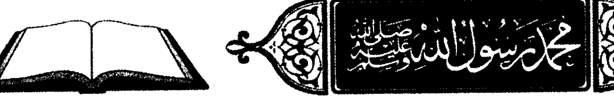
تأليف

محمد بن حسين يعقوب


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة





بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ الحَمْدَ للهِ ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللهِ تَعَالَى مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا ، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَه ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَه ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَه ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ . [آل عمران : ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ . [النساء : ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ . [الأحزاب : ٧٠-٧١]

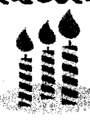
أَمَّا بَعْدُ :

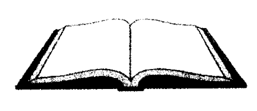
فَإِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ ، وَإِنَّ خَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ .

ثم أما بعد :

حبيبي في الله . . ابن الإسلام . .

والذي فلق الحبة وبرأ النسمة . . . إني أحبك في الله . .





وأسأل الله الكريم جَلَّ جَلَالُهُ أن يجمعنا بهذا الحب في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، اللهم اجعل عملنا كله صالحًا ، واجعله لوجهك خالصًا ، ولا تجعل فيه لأحد غيرك شيئًا .

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ . [سورة التوبة :٣٣]

وقال عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [سورة الأنبياء :١٠٥-١٠٨]

وقال رسول الله ﷺ : « لَا يَبْقَى عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ ذُلِّ ذَلِيلٍ إِمَّا يُعِزُّهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَيَجْعَلُهُمْ مِنْ أَهْلِهَا أَوْ يُذِلُّهُمْ فَيَدِينُونَ لَهَا » (صحيح ، مسند الإمام أحمد : ٤/٦) .

وقال ﷺ : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ » (صحيح مسلم : ١٩٢٠) .

تشير الآيات والأحاديث السابقة إلى قضية غاية في الخطورة والأهمية ، وهي أن المستقبل لهذا الدين ، وأن النصر آت والتمكين ، وهذا ينبغي أن يكون بالنسبة لجميع المسلمين يقينًا ، وحين تكون هذه القضية عقدية ؛ بمعنى : أن تكون عقيدة عن ثقة ويقين ، فلابد إذًا من العمل لها والسعي لتحقيقها ، وهذا دأب العقائد عند المؤمنين بها ، أن تجعلهم متحركين متحرقين شوقًا لرؤية عقائد القلوب حقيقة متحققة في الواقع تلمسها الأيدي وتراها العيون .

وهنا جاء دورك يا ابن الإسلام ؛ لحمل هذه القضية بعد الإيمان بها ، والعمل للتمكين بعقيدة ويقين . .










يا ابن الإسلام ..

إن أمتك أمة الإسلام أمة خلقت لتبقى ، ليست أمة زائلة أو مؤقتة ، كلا والله .. لا والله ما هي بأمة خلقت لتؤدي دورًا ثم تنتهي ، وتصبح تاريخًا كما هو حالَ الأمم السابقة ؛ إنما هي أمة أخرجها الله لتكون رحمة للعالمين ، وشاهدة علَى الأمم السابقة .

أمة خلقت لتحمل الراية وتعيش عزيزة ممكنة إلى آخر الزمان ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٠] .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [سورة الفرقان : ٥١-٥٢] .

أخبرنا الله عز وجل في هذه الآية أنه سبحانه لو شاء لجعل بعد النبي ﷺ أنبياء تسوس أمة الإسلام ، كما كان الأمر قبل ذلك ، كانت الأنبياء تسوس بني إسرائيل ، كلما مات نبي خلفه نبي .

ولكن شاء ربنا سبحانه وتعالى ؛ لحكمة يعلمها هو عز وجل أن يحمل هذا الدين ويسوس الدنيا رجال من الأمة ، يحملون القرآن ، يقودون به العالم ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ١٠] .

فأمرنا ربنا سبحانه وتعالى في آية الفرقان السابقة بالجهاد بالقرآن ..

وهو جهاد الحجة والبيان

والقرآن العظيم معجزة الإسلام ، وهو من جميع وجوهه معجزة خالدة ، فلايزال ذخرًا للأمة ، ونورًا وحبلا متينًا ، وفيه تربية الأمة ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا





سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ [سورة الرعد : ٣١] .

فالقرآن العظيم فيه من عوامل القوة والإصلاح في النفوس البشرية ما هو أشد من تسيير الجبال ، وتقطيع الأرض ، وتكليم الموتى .

ولذلك إذا أردنا رجالا يحملون هذا الدين ، ويعملون عَلَى نشره والتمكين له إلى آخر الزمان ، فلابد لهؤلاء الرجال أن يحملوا القرآن بكل ما فيه ، جملةً وتفصيلا ؛ لأن هؤلاء الرجال لابد لهم من خبرة وعلم :

الخبرة بعالم الحياة والمخلوقات والبشر .

الخبرة بمكنونات النفوس ودفائن القلوب ، ودسائس الخواطر .

الخبرة بأخلاق البشر وطبائعهم وأهوائهم .

الخبرة بعقليات المخالفين ، وطريقة تفكيرهم ، واحتمالات ردود أفعالهم .

الخبرة بأفكار الكبار والصغار ، العامة والخاصة ، والأتباع والمتبوعين .

الخبرة بخبث اللئام ، ومكر الخبثاء ، ودهاء المنافقين .

الخبرة بتأثير الدنيا وشهواتها عَلَى النفوس ، وأثر ملذاتها وفتنتها عَلَى القلوب .

الخبرة بمداخل القلوب ، وتغيير الأفكار ، وتداول الأيام .

الخبرة بكظم الغيظ ، وتعلم العفو والصفح ، وتجرع مرارة الصبر ، ومعاناة الحرمان .

لابد للقادة وحملة الراية من مجموعة خبرات خطيرة ؛ ليستطيعوا بهذه الخبرة أن يوجهوا الدفة في خضم أمواج الأحداث الخطيرة كي لا تغرق السفينة .

وأنَّى لهم ؟!







إن اكتساب الخبرة والمهارة في التعامل مع الخلق لقيادة أمة وإرساء قواعد وسلوك سبل لا يكتفى فيه ولا يكفي التعامل مع مجموعة محدودة من البشر لفترة محدودة من الزمن ، لابد – ليحصل العمق العملي الواقعي – من اكتساب الخبرة من أن يكسبك هذه الخبرة :

- خبير بصير ، عليم عظيم ، غني حكم عدل .
- ولابد أيضاً من توالي الدهور وتكرار العصور ، وتداول الأيام .
- ولابد أيضاً من البصيرة بخبايا النفوس وتلونات الأفكار .
- ولابد كذلك من الإحاطة بالأمر من جميع جوانبه ، ورؤيته رؤية شاملة من جميع وجوهه .
- ولابد كذلك من العلم بالدوافع والعلم أيضاً بالعواقب .

وهذه كلها لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [سورة فاطر : ١٤] .

وهذا لا يكون إلا من الله سبحانه وتعالى وحده، وما وجدناه إلا في القرآن الكريم .

ولذلك تجد كل من حمل القرآن بعلم ، ودرس القرآن بوعي ، وتعلم القرآن بفهم ، وأدرك المعاني ، وغاص مع اللآلئ والدرر في المغازي ؛ خرج بخبرة الأمم والشعوب .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

إن الذين يضيعون أوقاتهم وجهدهم ، ويستسلمون لأفكار بشرية ، وينبهرون بأطروحات عقلية قاصرة ، يظلمون أنفسهم، ويظلمون هذا الدين إن كانوا من أتباعه.

إن أردت – يا ابن الإسلام – الحق صرفاً ، والعلم ناصعًا ، والخبرة مُحكمة :

فعليك بالقرآن ولابد لك منه

إن أردت – يا ابن الإسلام – أن تكون ابن الإسلام حقًا ، رضعت علومه ، وتغذيت عَلَىٰ أفكاره ، ونبتَّ عَلَىٰ شواطئ أنهاره ، وقويَ ظهرك ، واستوى عودك عَلَىٰ عقائده ، فارجع إلى القرآن ؛ ليكون زادك نعم الزاد .

وإذا أردت الخبرة – التي ذكرت لك ولابد لك منها – شرطًا في فهم الحياة وفهم الناس ، وفهم الواقع ، ويكون تبصرة للمستقبل ؛ فارجع إلى قصص القرآن وأمثاله ، قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت : ٤٣] .

وقال تعالى : ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الأعراف :١٧٦] .

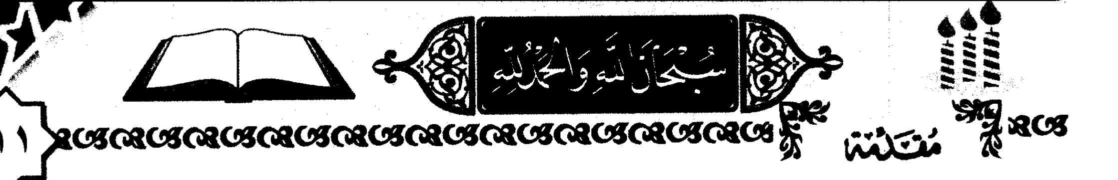
إننا إذا أردنا – أيها الجيل الجديد – خروجًا من حالة الغثائية والتيه التي تعاني منها الأمة هذه الأيام ، فلابد من هذه الخبرة بتاريخ الإنسانية وأحوال البشرية ، ومعاناة الأنبياء والصالحين ، والدعاة والمصلحين ، الذين يأمرون بالقسط من الناس ؛ لتكون نبراسًا يضيء لنا الطريق للخروج من هذا النفق المظلم الذي أدخلت فيه الأمة نفسها .

ولابد للرجوع إلى قصص الأنبياء والمرسلين من القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، بعيدًا عن الإسرائيليات والمداخلات والبحث عن التفاصيل الغير مفيدة التي أبهمها القرآن عمدًا ؛ لتكون الفائدة هي الهدف، والخبرة هي المقصد ، والعمل هو المطلوب .

ولذا كان هذا الكتاب في ذكر قصص هؤلاء الرسل والأنبياء؛ لنكتسب هذه الخبرة، ونستخلف هذا النموذج ، قال تعالى : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [سورة فصلت : ٤٣] .

ثمة أمر آخر ، وهو أن الله جعلنا شهداء عَلَىٰ الناس ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [سورة البقرة : ١٤٣] ،





فكيف تكون الشهادة إذاً عَلَىٰ سائر الخلق إلا إذا علمنا بحكايتهم مع أنبيائهم ، وقد عرفت أن شرط الشهادة أن تكون رأيت ، كيف ستشهد لنوح أنه بلغ ولموسى وعيسى عليهما السلام بأنهما قد بلغا ؟

قال رسول الله ﷺ : « يَجيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالى : هَلْ بَلَّغْتَ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، أَيْ رَبِّ ، فَيَقُولُ اللهُ لأُمَّتِهِ : هَلْ بَلَّغَكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : لا ، مَا جَاءَنَا مِنْ نَبيٍ ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ : مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ» .

(صحيح البخاري : ٣١٦١)

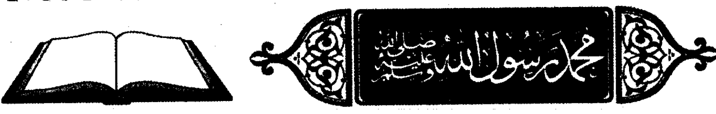
لن تستطيع الشهادة إلا إذا عرفت سيرة هؤلاء الأنبياء مع قومهم ، واعتقدتها بيقين ، واليقين شهادة كأنك رأيت ، فلابد من هذه الدراسة الجادة .

يا ابن الإسلام . .

إن دراسة القرآن دراسة منهجية جادة ، واستخلاص ما فيه من عظات وعبر ودروس، سبيل لتحقيق حلم صناعة الرجال ، فأقبل ولا تخف ، وخذ ما آتاك ربك وكن من الشاكرين ، تعلم وتفقه وتدبر واستفد ولا تجرب . .

لا تشك . . لا تتردد

هذه قصص الأنبياء عليهم السلام ، ستجد فيها بغيتك إن أردت السيادة والقيادة ، والهداية والريادة ، ستجد أن كل ما تعانيه الأمة اليوم من فواجع ومواجع ، وكل ما يصدمها من نكبات وإحباطات ، وكل ما يكاد لها من خبائث ومؤامرات ؛ مر بالنبي محمد ﷺ وبالأنبياء من قبله ، عشرات وأكثر من أمثالها وأخطر .



ادرس وتفكر ، وانظر وتدبر كيف واجهوا المؤامرات ، وكيف ردوا عَلَىٰ الاعتراضات، وكيف روّضوا ثعالب البشرية وذئاب العالم ، واستطاعوا أن يجعلوهم مستأنسين يلينون في كف الأنبياء ، مخبتين مطيعين بإذن الله الرحيم وعونه وتوفيقه وهو ولي المؤمنين .

إن من الظلم للتاريخ أن نظن أننا نواجه ما لم يواجهه أحد ، ونصادف ما لم يره أحد ، ومن الإجحاف والتطاول أن نعتقد أننا نصنع ما لم يصنعه قبلنا أحد ونصلح ما لم يصلحه أحد .

إن في سيرة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ما يجعلنا ننكسر بعد أن نبهر بتواضعهم الجم ، وبذلهم الضخم ، وجهادهم الحق ، وصدقهم وتفانيهم وتجردهم وتضحيتهم .

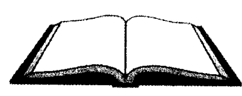
ابن الإسلام . .

في قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ علم وخبرة ويقين وبصيرة ، فإياك أن تقرأها للتسلية ، أو للثقافة والمعرفة المجردة ، إني أنصحك حين تدخل لقراءة قصص الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أن تتصور أنك تُدخِل عقلك كمادة خام إلى مصنع لصناعة الرجال ، فيدخل عقلك وقلبك وفؤادك ولسانك كمادة خام ؛ ليصنع كما صنع الله هؤلاء الأنبياء .

احذر أن تلهى بهذه القصص ، أو أن تنشغل بغير فوائدها ، أو أن تتبع غير حلقاتها؛ لتفهم دينك وتعرف أصلك وفصلك ، ويستنير بها طريقك ، ويشتد بها عودك ؛ لتكون ابن الإسلام حقًا ، لتصنع له حاضره ومستقبله ، فيك الأمل وفي الله الرجاء ، أسأل الله ألا يخيب فيه رجاءنا : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [سورة هود : ٨٨] .

فعرفتَ – أيها الابن الكريم – أن لهذا الجزء من المنهج أهدافًا محددة :



الأول : معرفة قصص الأنبياء عليهم السلام ؛ لتكون شاهدًا من الشهداء عَلَىٰ الناس قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٥٣] ، وقال عز وجل : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [سورة المائدة : ٨٣-٨٦] .

الثاني : معرفة قصص الأنبياء عليهم السلام لاكتساب الخبرة الحقيقية في معاملة البشر، وحمل الأمانة والدعوة إلى الله ، قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [سورة الأنعام : ٩٠] ..

الثالث :معرفة قصص الأنبياء عليهم السلام للتثبيت عَلَىٰ هذا الدين؛لتعرف أن أصلك أصيل ، وجذورك ضاربة في عمق الزمن ، قال تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة هود : ١٢٠] .

اسمع يا ابن الإسلام ..

أنت عَلَىٰ دين عظيم ، كله حقائق ، لا يعرف الأوهام ؛ لأنه وحي من عند الله سبحانه وتعالى ، كله كتابًا وسنة : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [سورة فاطر : ١٤] .

فأنت تعرف جيدًا لماذا خلقت ، ولماذا جئت إلى هذه الدنيا ، وما هو دورك في هذه الحياة ، وأيضًا وبكل يقين تعرف نهاية هذه الحياة وما بعد هذه النهاية .

كل الأسئلة لها إجابات ..

وكل الإجابات حقائق يصدقها العقل ويقبلها المنطق ، ويرضى بها المؤمن

وهذا المنهج المتكامل في الشريعة الذي بين يديك؛ إنما وضعناه لتعرف الحقيقة كاملة :

ففي باب العقيدة عرفت من أول من خلق الله إلى نهاية الأبد في الجنة أو النار .



مرورًا بالإيمان والموت وعلامات الساعة وأهوال القيامة .

ثم في هذا الجزء تعرف التاريخ .

التاريخ الحقيقي للإنسانية ..

التاريخ الذي أخبرنا الله به في القرآن الكريم ، كلامه سبحانه وتعالى ..

فهي الحقيقة الكاملة المجردة لتاريخ الإنسانية ، بعيدًا عن إرجاف المرجفين وأكاذيب المنافقين ، وتهويل أصحاب المصالح الوصوليين ، حقائق كلام الله سبحانه وتعالى ، وهي شافية كافية لا نحتاج معها لكلام أحد، ولا تفصيلات من غير كلام الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي النهاية لا نملك إلا أن نقول :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ وَسَلَامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ ۞ وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾

أُحبُّكَ في الله ..

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَآله ..

رَبِّ اغفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحمينَ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

وَكَتَبَ

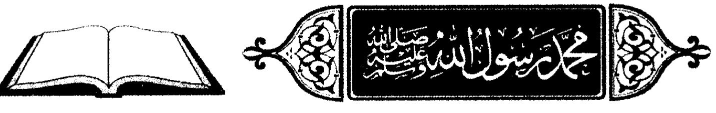
أَبُو العَلاء

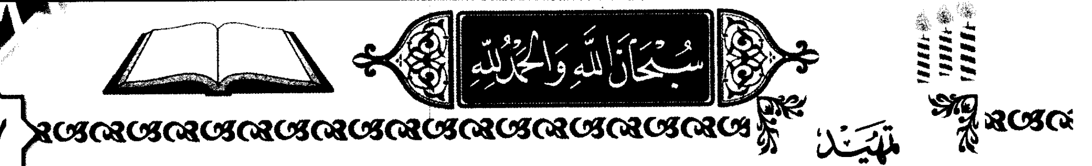
محمد حسين يعقوب

عَفَا اللهُ عَنْهُ ، وَغَفَرَ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَزَوْجَاتِه وَأَوْلَاده وَالمُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَات

تمهيد

يَا ابْنَ الإِسْلامِ





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

رب يسر وأعن وتمم بخير يا كريم

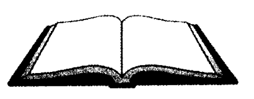
حبيبي في الله .. ابن الإسلام ..

والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ... إني أحبك في الله ..

ابني .. وحبيبي ...

أسأل الله أن يرزقنا وإياك الصدق والإخلاص ، والعفو والعافية ، في الدين والدنيا والآخرة .

أما بعد ..

يقول الله  :  ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾  [سورة يوسف : ٣] .

- فلابد أن تعلم – يرحمك الله – أنَّ القرآن الكريم كلام الله سبحانه وتعالى ، أوحاه إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ليكون منهاجًا لهذه الأمة الخاتمة ، تسير علَى نهجه وتترسم خطاه؛ وليكون دستورًا لها تحتكم إليه في كل شؤونها ، فتجد فيه الهداية والرشاد ، وتستروح في ظله الطمأنينة القلبية ، والراحة النفسية .
- واعلم – رزقني الله وإياك العلم والفهم – أنَّ القرآن الكريم كلام الله سبحانه وتعالى ، هو الزاد الروحي للمؤمنين ، والفيض الذي لا ينقطع مدده للربانيين والصالحين ،

حيث يمدهم بالطاقات التي تؤهلهم لحمل الرسالة ، ويزودهم بالحجج والبراهين التي تمكنهم من الثبات عَلَى هذا الدين ، ومحاجحة المجادلين ، حتى تكون دائمًا كلمة الله هي العليا .

۞ واعلم – رزقني الله وإياك الهدى والهداية – أنَّ القرآن الكريم كلام الله ﷻ الذي يأوي إليه المؤمن ؛ لينهل من معينه الصافي اليقينَ الذي يُثبِّتُ قلبه ، والهدى الذي يُطمئن نفسه ، والبراهين التي تُثلج صدره .

۞ ثم اعلم – فتح الله مغاليق قلبي وقلبك لفهم كتابه – أنَّ القرآن الكريم كلام الله تعالى ترى فيه الإثارة النفسية عند الإخبار ، حتى تتشوف النفس لما سيلقى عليها منه ، وتتهيأ لقبوله ، مثل قوله ﷻ مثلا : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [سورة إبراهيم : ٩] .

۞ واعلم – يسر الله لي ولك الخير ، وصرف عني وعنك الشر والبلاء – أنَّ القرآن الكريم كلام الله ﷻ ترى فيه تعزية النفس وتسليتها عما ينزل بها من البلاء ، حيث يبشر بالخير ، فيسوق البشارة بين يدي البلاء ؛ لتطمئن النفس ويهدأ القلب، ويتقبل العبد المصيبة بالصبر والرضا ، مثل قوله ﷻ : ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الأنعام :٣٤] .

۞ واعلم – رزقني الله وإياك الصدق والصواب – أنَّ القرآن الكريم كلام الله ﷻ ترى فيه أنه يتناول الأمور العقدية بواقعية تتناسب مع الفطرة الإنسانية ، وتتلاءم مع يسر العقيدة وسماحتها ، انظر إلى قوله تعالى : ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)



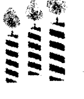


أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [سورة النمل : ٥٩-٦٠] ، وانظر إلى الآيات التي بعدها .

❁ واعلم - استعملني الله وإياك في مرضاته - أنَّ القرآن الكريم كلام الله سبحانه وتعالى يعالج المشكلات الاجتماعية بحلول مناسبة للظروف التي وقعت فيها ، وهو يتولى تربية جيل سيؤول إليه أمر الحياة ، انظر إلى قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [سورة المجادلة : ٢] .

❁ ثم انتبه - أكرمني الله وإياك بالهمة العالية والبصيرة النافذة - أنَّ من أبرز أساليب القرآن كلام الله سبحانه وتعالى لمعالجة مشكلات النفوس وأدوائها ، ومشكلات التعامل مع الخلق وخطورتها ، وخصوصًا إذا كان الأمر دعوة إلى الله سبحانه وتعالى ذكر قصص الأنبياء .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة يوسف : ١١١] .

أهمية هذه القصص

١. هي دليل على نبوة النبي محمد ﷺ قال تعالى في قصة يوسف عليه السلام : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [سورة يوسف : ١٠٢] ، وقال سبحانه وتعالى في قصة زكريا ويحيى وعيسى

ومريم عليهم السلام : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَقلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [سورة آل عمران:٤٤] ، وقال عز وجل في قصة موسى عليه السلام : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [سورة القصص : ٤٤-٤٥] .

وفي زماننا جرى التطاول مع شديد الأسف عَلَىٰ النبي محمد ﷺ ، وهنا يأتيك هذا القصص من القرآن معجزة النبي ﷺ الخالدة ؛ ليثبت يقينك ، ويكمل تصديقك ، ويعلو تعظيمك لحبيبك ونبيك محمد ﷺ .

٢. دليل عَلَىٰ أن كل ما في هذا القرآن حق وصدق ، وأن ما خلافه كذب وزور وباطل : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّ ﴾ [سورة آل عمران : ٦٢] .

فقصص الأنبياء في القرآن هو القصص الحقيقي لحياة الأنبياء عليهم السلام ودعوتهم، فكل ما ورد في القرآن من القصص فهو حق ، سواء كان موضوعه عقيدةً ، أو دعوةً ، أو تشريعًا ، أو توجيهًا ، وكل ما خالف القرآن مما تسمعه وتقرؤه من كتب التاريخ والإسرائيليات باطل قطعًا ، كذب بغير شك .

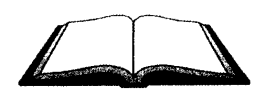
٣. تظهر أهمية هذه القصص حين تعلم أنه كلام الله تعالى قصه سبحانه وتعالى عَلَىٰ رسوله ﷺ ، وجاء الأمر صريحًا إلى الرسول ﷺ أن يقص هذا القصص عَلَىٰ الناس، قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الأعراف:١٧٦] .




فنحن نقص عليك هذه القصص استجابةً لنفس الأمر ، وتحقيقًا لنفس الغرض والغاية والهدف ؛ لغرض التفكر والاتعاظ والاعتبار والعمل ؛ فإن هذه القصص تحتاج فعلا إلى التفكر ؛ لتحصل لك الدهشة في مواقف ، والعجب في مواقف ، بل والضحك والاستغراب في مواقف ، والبكاء والألم في مواقف أخر، إنها قصص حيَّة من واقعٍ حقيقي .

٤. في زمن كثرت فيه القصص وكثُرَ القصَّاصُون ، وذاع الباطل بين الناس ما بين روايات مكتوبة مكذوبة ، ومسلسلات في الجرائد والإذاعات المسموعة والمرئية مُسفَّة مُملَّة ، ورضي الناس بالدون من نقل قصص الشائهين ، نحتاج إلى قصص جاد هادف لا غنى لنا عنه ، إنه قصص الأنبياء في القرآن ، يقول ربنا سبحانه وتعالى : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [سورة يوسف : ٣] ، فقد جمعت هذه القصص الحُسْن كله كما أخبر الله سبحانه وتعالى .

فالقصة أسلوب أخَّاذ يستحوذ عَلَىٰ القلوب ، ويسيطر عَلَىٰ النفوس ، ويهيئ العقول لحسن التلقي ، فتذعن له في يقين ، وتسلم بالنتائج في رضا وثقة ، حتى إنك وأنت تقرأ القصة أو تستمع إليها يخيل إليك أنها تعالج واقعًا تعيش فيه ، ويعيش معك فيه المجتمع الذي أنت جزء منه ، ذلك لأن مشكلات العالم مهما تباينت الأزمنة ومهما اختلفت البيئات ، ومهما تغيرت الظروف تكاد تكون واحدة ، غير أنها تتكرر في صور شتى ؛ لتعطي المشكلة حجمها الطبيعي في البيئة وفي الظروف التي تتكرر فيها ، ومن هنا كانت قصص الأنبياء للعبرة لا للتسلية .





والقصة في القرآن من أبلغ أساليبه تأثيرًا في النفوس ، وأعظمها إخضاعًا للقلوب: فأسلوبها الأخاذ ، وعرضها الشيق ، وعبرها البليغة ، وحبكتها المؤثرة ، وما تثيره في العقول عادة من حب الاستزادة والبحث وراء النتائج ، كل ذلك كان له دوره في تقوية تأثيرها ، وتعظيم موقعها من القلوب .

ولابد هنا من أن أحدد الهدف من هذه القصص تحديدًا واضحًا فأقول : إن الهدف من قصص الأنبياء عليهم السلام عمومًا :

أولا : التفكر والاتعاظ ، فهذا قرآن ، كلام الله سبحانه وتعالى ، وقد أمرنا بالتدبر ، قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [سورة ص: ٢٩]، فلابد أن نفتح عقولنا وقلوبنا لما نسمع من آيات الله ، وأن نعتبر ونتعظ ، وأن نفقه ما جاء في هذه القصص من أخبار وحقائق ومعان وأنماط من أخبار الأنبياء عليهم السلام وما أصابهم وأصاب قومهم ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة يوسف : ١١١].

لم ترد قصص الأنبياء عليهم السلام في القرآن لمجرد الترفيه والتسلية ، ولذلك كانت وظيفتها الحقيقية تحتم عليها أن تكون أعظم من أن تسرد سردًا مسليًا ، أو تعرض عرضًا ممتعًا فقط ، إن قصص الأنبياء في القرآن إنما أخذت منزلتها بين آياته لما توحيه من العبرة التي تحملها بين أحداثها ، ولقوة تأثيرها على العقول حتى تخضعها لما تحمله من هذه العبر .



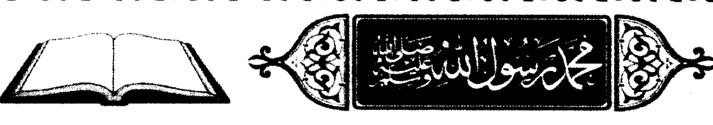
نعم .. إن في قصص الأنبياء عليهم السلام في القرآن عبرة تنفذ إلى القلوب فتهزها هزًّا يردها إلى الصواب، ويعيدها إلى الحق، ويثبتها عليه.

ثانيًا : في قصص الأنبياء عليهم السلام بيان لسنن الله سبحانه وتعالى في خلقه من الأمم والجماعات والأفراد، وهي سنن جرت عَلَىٰ الماضين، وتجري عَلَىٰ اللاحقين؛ ليعتبرها المؤمنون، فلابد لنا من أن ندرس ونفهم ونتأمل هذه السنن الربانية في النصر والتمكين، وفي الصبر والبلاء، وفي العافية والانتقام، متى يكون كل ذلك؟ قال سبحانه وتعالى : ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [سورة فاطر : ٤٣].

ثالثًا : في قصص الأنبياء عليهم السلام بيان لمناهج الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى، والتزامهم بها وصبرهم عليها، وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالتأسي بهم فيها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [سورة الأنعام : ٩٠]، وقال سبحانه وتعالى : ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [سورة فصلت : ٤٣]، وقال سبحانه وتعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [سورة الممتحنة : ٤].

رابعًا : في قصص الأنبياء عليهم السلام نماذج للأنبياء وأتباعهم من المؤمنين الصابرين، الثابتين عَلَىٰ الحق، ففي هذا تعزية لحال النبي صلى الله عليه وسلم ومن يأتي بعده من أتباعه، قال سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الأنعام: ٣٤].

خامسًا : في قصص الأنبياء عليهم السلام بيان لسلوك المعاندين وأفعالهم وعلاقاتهم بعضهم مع بعض، وعلاقتهم مع الشياطين، وكيف نواجه ذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ



زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣) أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [سورة الأنعام: ١١٢-١١٧].

سادسًا : في قصص الأنبياء عليهم السلام تثبيت للأفئدة ، وتعميق لعقيدة أن العاقبة للمتقين ، وأن النصر للمؤمنين : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة هود : ١٢٠] .

سابعًا : في قصص الأنبياء عليهم السلام تدريب وافٍ على الجدال بالتي هي أحسن، وتوجيه إلى كيفية إظهار الحق ، والإلزام بالحجة ، وتفويت الفرصة على المجادل الذي يريد العنت وتشويه الحقيقة .

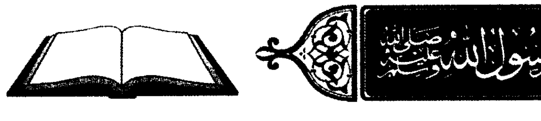
ثم في النهاية لابد من الإشارة إلى أنه :

- قد تتكرر القصة الواحدة في القرآن ، ولكن في تكرارها فوائد ، في كل منها فائدة لا توجد في الأخرى ، حاولنا تجميع أطرافها ؛ لتتسق في نسق واحد ، مع تجميع الفوائد في نهاية القصة .
- وقد شملت قصص الأنبياء عليهم السلام مساحة كبيرة من القرآن بحيث لا تكاد تخلو منه سورة ، وبعض السور استغرق القصص آياتها، كسورة القصص وسورة



يوسف عليه السلام ، فنجتزئ منها سياق الأحداث فقط ؛ فإن كل اعتمادنا في هذه القصص على القرآن الكريم وحده .

- ذكر الله لنا قصص بعض الأنبياء ، ولم يذكر لنا قصصهم كلهم ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [سورة النساء : ١٦٤] ، فعدد الرسل كثير جدًا ، وإنما اكتفينا بالقصص الوارد في القرآن فحسب ، وسبحان الملك : تجد أن عدد الأنبياء المذكورين في القرآن ستة وعشرون نبيًا ، ومن قص علينا القرآن قصتهم هو هذا العدد تحديدًا ، ولذلك تجد في هذا الكتاب قصة هؤلاء الأنبياء تحديدًا ستة وعشرين قصة ؛ لأن الإيمان بهم تفصيلا واجب شرعي ، والإيمان بمن لم تذكر قصته ولم يذكر اسمه إيمان إجمالي بكل أنبياء الله ورسله : ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ونحن له مسلمون ﴾ .
- ومن ثم فإن من لم يذكر الله سبحانه وتعالى قصصهم من الأنبياء أضعاف أضعاف من ذكرهم ، بل إن الأنبياء المذكورين في القرآن لم تذكر قصصهم مفصلة ، بل المذكور جزء يسير من قصصهم ، ومشاهد مختارة من حياتهم ؛ إنما ذكرت ليتحقق منها الهدف الذي هو الاتعاظ والعبرة .
- سميت بعض السور بأسماء بعض الأنبياء الذين وردت قصتهم في القرآن ، وهي سور : يونس ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، ومحمد ، ونوح عليهم السلام .
- قصص بعض الأنبياء مطولة ، كقصة إبراهيم ، وقصة موسى ، وقصة يوسف عليهم السلام .





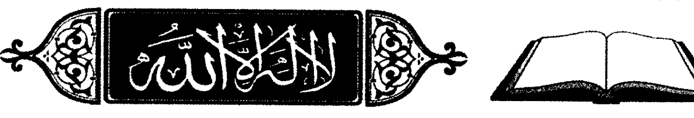




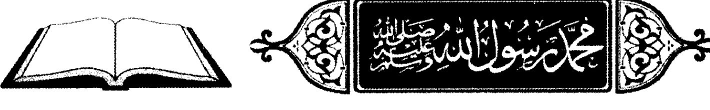
- وقصص بعض الأنبياء متوسطة في الطول ، لا هي قصيرة ولا هي مطولة ، كقصة يونس ، وقصة سليمان ، وقصة داود ، وقصة لوط عليهم السلام .
- وقصص بعض الأنبياء قصيرة كقصة إسماعيل وقصة إسحاق عليهما السلام .
- وهناك بعض الأنبياء لا نعرف عنه في القرآن إلا اسمه ، مثل إلياس واليسع وذا الكفل عليهم السلام .
- هناك قصص لا نجزم بأن أصحابها أنبياء ، كقصة لقمان .
- وهناك قصص متصلة مع قصص الأنبياء، كقصة أم موسى،وقصة مريم عليها السلام .
- قصص الأنبياء عليهم السلام في القرآن ليس هدفها العرض الشامل الدقيق ، ولا متابعة كل الوقائع بالتفصيل الدقيق الطويل ، ولا السرد التاريخي المنظم ، لذلك سنجد حلقات مفقودة لا يجب علينا ولا يلزمنا تحديدها أو تعيينها ، فهي مبهمات مقصودة ، خصوصًا فيما يتعلق بتحديد زمان أو مكان أو أسماء أشخاص أو بلدان ، علينا أن نبقيها عَلَىٰ إبهامها ؛ لأن هناك غيب يجب أن نستسلم له ، فلا يجب أن نبحث أو نلهث وراء الإسرائيليات والتفاصيل ، بل نكتفي بما أفاد الله سبحانه وتعالى ، ونستفيد منه بالقدر الممكن .

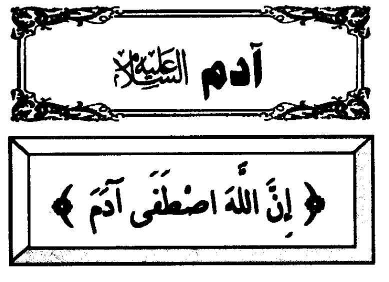
يا ابن الإسلام

❀ أنا أحبك في الله ❀



قَصَصُ الأَنْبِيَاءِ





آدم عليه السلام

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ ﴾

بداية الخليقة

ولدي الحبيب ، يا ابن الإسلام . . .

إذا أردت البداية فتعال لأحكيَ لك القصة من البداية ، قال رسول الله ﷺ : «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ» (صحيح البخاري : ٣٠١٩) .

في البداية الأولى كان الله ولا شيء مع الله ، ولا شيء سوى الله سبحانه وتعالى فهو الأول ، ليس قبله شيء ، له وحده السلام والجلال ، وله وحده الكبرياء والجمال .

قال رسول الله ﷺ :« اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ »(صحيح مسلم : ٢٧١٣) .

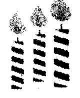
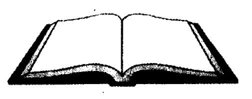
ثم أراد الله سبحانه وتعالى بحكمته ، وفضله ، ورحمته ، وعظمته أن يخلق الكون . . .

أراد أن يخلق الأرض ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والكواكب . . .

أراد أن يخلق البحار ، والرياح ، والزهور ، والفراش ، والأسماك ، والطيور ، والحيوانات . . .

أراد أن يخلق البشر ، الإنس والجن ، والملائكة والعالمين . . .

أراد أن يخلق كل شيء .

وعندما يريد الله شيئًا فإنه يأمره بأن يُوجَدَ ؛ يقول له : كن . فيكون على الفور ،  سبحانه وتعالى هو القادر على كل شيء :  ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ  لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [سورة يس : ٨٢] ، وهكذا أمر الله السماوات والأرضَ وما بينهما أن تكون أو تكون في ستة أيام ، وهذه الأيام الستة من أيام الله لا تشبه أيامنا التي نعيشها الآن على

الأرض ؛ لأننا نحسب اليوم بدورة الأرض مرة حول نفسها أمام الشمس ، وهنالك لم تكن هناك شمس ولا أرض ، فالحساب إذًا يختلف ، هذا غيب لا نعرف عنه إلا ما حدثنا به الله ، والغيب هو الشيء الذي يغيب عن عقولنا فلا ندركه ، وكل ما غاب عنا ، وحدثنا عنه الله ، فهو الصدق واليقين ، ولذلك فلن أحكي لك إلا ما أخبرنا الله به ، وقصه علينا في القرآن ، ونقف عند حدودنا ، ونكتفي بما أخبرنا الله به ، ونقنع ونرضى ، ولا نبحث عن غيب أخفاه الله سبحانه وتعالى عنا .

أخبرنا سبحانه وتعالى أنه خلق الأرض في يومين ، وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدَّرَ فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلىٰ السماء وهي دخان فسواهن سبع سموات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها ، وزَيّن السماء الدنيا بمصابيح تنيرها وتزّينها ، وجعلها رجومًا للشياطين وحفظًا للسماء ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، ثم استوى علىٰ العرش استواء يليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى .

وعندها خضع له كل شيء ، وسجد له كل شيء ، وقدّسه كل شيء ، واحتاج إليه كل شيء ، والله هو الغني الذي لا يحتاج إلىٰ أحد ، ويحتاج إليه كل أحد

﴿ لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [سورة الشورى : ١١] .

عاشت في السماء كائنات خلقها الله من النور وسماها الملائكة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خُلِقَتُ المَلائكَةُ مِنْ نُور » (صحيح مسلم : ٦٠) ، والملائكة جنود الله ، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، يعبدون الله الليل والنهار لا يفترون ولا يسأمون .

وبعد الخلق عاشت بين السماء والأرض مخلوقات خلقها الله سبحانه وتعالى من النار وسماها الجن ، والجن مخلوقات لا يراهم أحد ، منهم الطيب ومنهم الفاسد .

ويبدو – والله أعلم – أنه عاشت علىٰ الأرض مخلوقات أخرى كانت تفسد فيها وتحارب وتسفك الدماء .





وقضى الله سبحانه وتعالى وأراد جل شأنه أن يخلق البشر ، فقال جل جلاله للملائكة :

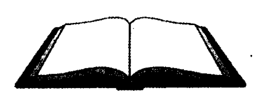
﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة : ٣٠] .

ويوحي قول الملائكة هذا بأنه كان لديهم من تجارب سابقة في الأرض ، أو من إلهام البصيرة ، ما يكشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق ، أو من مقتضيات حياته على الأرض؛ ما يجعلهم يعرفون أو يتوقعون أنه سيفسد في الأرض ، وأنه سيسفك الدماء ، ثم هم بفطرة الملائكة البريئة التي لا تتصور إلا الخير المطلق ، وإلا السلام الشامل يرون التسبيح بحمد الله والتقديس له ، هو وحده الغاية من الوجود ، ويظنون أن العبادة فقط هي مراد الله من خلق الخلق ، وإذا كان الأمر كذلك فهو متحقق بوجودهم ، فهم يسبحون بحمد الله ويقدسون له ، ويعبدونه ولا يفترون عن عبادته .

وسبحان الملك! فالملائكة رغم قربهم من الله ، وعبادتهم له ، وتكريمه لهم ، لا يزيدون على كونهم عبيدًا لله ، لا يشتركون معه في علمه ، ولا يعرفون حكمته الخافية على المخلوقين ، وغيبه المستور الذي لا يعلمه إلا هو ، وتدبيره سبحانه وتعالى ، لقد خفيت عليهم الحكمة العليا ، في بناء هذه الأرض وعمارتها ، وفي تنمية الحياة وتنويعها ، على يد خليفة الله في أرضه ، هذا الذي قد يفسد أحيانًا ، وقد يسفك الدماء أحيانًا ، عندئذ قال الله سبحانه العليم بكل شيء ، والخبير بمصائر الأمور :

﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾

أدركت الملائكة حينذاك أن الله جل جلاله سيجعل في الأرض خليفة ، وقضى الله سبحانه وتعالى أمره إليهم تفصيلا ، فقال : إنه سيخلق بشرًا من طين ، فإذا سوَّاه ونفخ فيه من روحه ؛ فيجب على الملائكة أن تسجد له .






قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

خلق آدم من تراب

وهذا الخليفة هو آدم عليه السلام أبو البشر ، وأول مخلوق من البشر ، وينسب إليه البشر خلقه الله جل جلاله في البداية من تراب ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة آل عمران : ٥٩] ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ » (حسن ، أبي داود : ٥١١٦) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَىٰ قَدْرِ الْأَرْضِ ، فَجَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَبَيْنَ ذَلِكَ » (صحيح أبي داود : ٤٦٩٣) ، فالتراب الذي خلق منه آدم عليه السلام جمع ألوان التراب المختلفة وصفاته المتعددة ، وهذا سر اختلاف الناس في ألوانهم لاختلاف ألوان تراب الأرض ، وسر اختلاف الناس في نفسياتهم وطبائعهم ومشاعرهم ؛ لاختلاف طبيعة تراب الأرض ، فانظر – أيها الحبيب اللبيب – من أي تراب الأرض خلقت ؟ !

ثم عُجِنَتْ هذه القبضة من التراب بالماء فصارت طينًا ، ثم جف ويبس حتى صار كالفخار ، وكان آدم عليه السلام في هذه المراحل جسدًا ، مجرد جسد بلا روح ولا حياة ، فبعد أن خلقه الله من الطين ، صوَّره وسوَّاه وجعله تمثالا كجسمه علىٰ صورة إنسان ، وتركه في الجنة مدة من الزمن لا يعلمها إلا الله ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ [سورة الإنسان : ١] .



ولما كان آدم في هذه الفترة كان إبليس وهو وقتها من أكابر الجن ينظر إليه ويتعجب ، يدور حول هذا الجسد ينظر إليه فاحصًا متعجبًا ، قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا صَوَّرَ اللهُ آدَمَ في الْجَنَّةِ تَرَكَهُ اللهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتْرُكَهُ ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يَطِيفُ بِهِ ، يَنْظُرُ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ ؛ عَرَفَ أَنَّهُ خَلْقٌ لا يَتَمَالَكُ » (صحيح مسلم : ٢٦١١) ثم نفخ الله فيه من روحه في آخر ساعة من يوم الجمعة .

متى خلق آدم ؟

قال رسول الله ﷺ : « خُلِقَ آدَمُ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي آخِرِ الْخَلْقِ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ » (صحيح مسلم : ٢٧٨٩) ، ولما نفخ الله الروح في جسد آدم عطس فشمّته الله ، قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ بِإِذْنِهِ فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ : رَحِمَكَ اللهُ يَا آدَمُ » (صحيح الترمذي : ٣٠٠٢) .

وتحرك جسد آدم ودبت فيه الحياة ، وصار إنسانًا يتنفس ، فتح آدم عينيه فرأى الملائكة كلهم ساجدين له ما عدا واحدًا يقف هناك ، قال الله ﷻ : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [سورة ص : ٧٥-٧٦] .

إنه الحسد ينضح من هذا الرد ، وهذه خطورة مرض الحسد - عافانا الله وإياك منه- حسد إبليس اللعين آدم عليه السلام ، حسده على تفضيل الله له وتكريمه له ، ونتيجة الحسد عصى ربه ، ورفض السجود ، ورد الأمر ، ونتيجة الكبر والغرور ورؤية النفس قال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ ، مع العلم أنه لا فضل للنار على الطين مطلقًا ، فكلها من مخلوقات الله ، ولا سبيل إلى التفضيل إلا ما فضله الله .

هنا قضى الله ﷻ بطرد هذا المخلوق المتمرد القبيح :

﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾

هو الطرد واللعنة والغضب جزاء التمرد والتجرؤ على أمر الله الكريم .

هنا تحول الحسد إلى حقد ، وإلى تصميم على الانتقام في نفس إبليس :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

وأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للحكمة المقدرة في علمه أن يجيبه إلى ما طلب ، وأن يمنحه الفرصة التي أراد :

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾

وكشف الشيطان عن هدفه الذي ينفق فيه حقده :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾

إنه يقسم بعزة الله ليغوين جميع الآدميين ، لا يستثني إلا من ليس له عليهم سلطان ، وهم عباد الله المخلصون - جعلنا الله منهم - لا تطوعًا منه ولكن عجزًا عن بلوغ غايته فيهم ، وبهذا يكشف عن الحاجز بينه وبين الناجين من غوايته وكيده ، والعاصم الذي يحول بينهم وبينه ؛ إنه عبادة الله التي تخلصهم لله ، هذا هو طوق النجاة ، وحبل الحياة ، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ :

﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

هي المعركة إذًا بين الشيطان وأبناء آدم ، يخوضونها على علم ، والعاقبة مكشوفة لهم في وعد الله الصادق الواضح المبين ، وعليهم تبعة ما يختارون لأنفسهم بعد هذا البيان ، وقد شاء الله برحمته ألا يدعهم جاهلين ولا غافلين ، فأرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين .

كان آدم يتابع ما يحدث حوله ويحس بالحب والرهبة والدهشة :

حب عميق لله الذي خلقه ، وكرمه ، وأسجد له الملائكة . .

ورهبة شديدة من غضب الخالق حين طرد إبليس من رحمته بسبب معصيته . .

ودهشته من هذا المخلوق الذي يكرهه، ويتصور أنه أفضل منه، ويتمنى له الضرر . .

ومنذ اللحظة الأولى أدرك آدم أن إبليس عدوه



سجود تكريم لسمو الروح

انتبه – أيها الابن اللبيب – إلىٰ هذه المرحلة ، وهي أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للملائكة بالسجود لآدم ، وهي سجدة تكريم واحتفاء بالمخلوق الجديد .

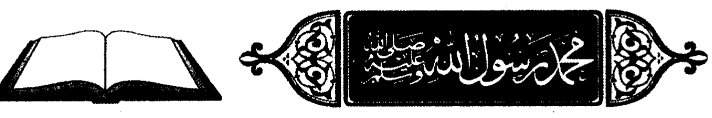
ويجب عليك أن تتنبه إلىٰ أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم ينل ذلك الشرف الرفيع إلا بعد أن نفخ الله فيه الروح ، هذا دليل واضح علىٰ أن الإنسان لا ترتفع مكانته ولا يعلو شأنه في الدنيا أو في الآخرة إلا عن طريق السموّ الروحيّ ، فمن سما بروحه وأعطاها حقها من الطاعة والعبادة سخر الله له الملائكة أيضًا يستغفرون له ويدعون له :

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَىٰ أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ مَا لَمْ يُحْدِثْ تَقُولُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ » (صحيح البخاري : ٤٣٤) ، فإذا سموت بروحك وأطعت مولاك أكرمك بأن سخر لك ملائكته ، يستغفرون لك ويدعون الله لك .

فضل العلم :

ثم تأتي المرحلة الحاسمة بتأهيل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ للحياة ، بتلك الخاصية التي خولته أن يكون خليفة في الأرض ، وهيأته لأن يكون جديرًا بفرض سلطانه وبسط نفوذه في جنباتها وهي العلم ، قال سبحانه : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ، يعني عرّفه أسماء الكائنات كلها ، وكان مما علمه له السلام ، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : يَا آدَمُ اذْهَبْ إِلَىٰ أُولَئِكَ الْمَلَائِكَةِ ، إِلَىٰ مَلَإٍ مِنْهُمْ جُلُوسٍ ، فَقُلْ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، قَالُوا : وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ رَبِّهِ فَقَالَ : إِنَّ هَذِهِ تَحِيَّتُكَ ، وَتَحِيَّةُ بَنِيكَ بَيْنَهُمْ » (صحيح الترمذي : ٣٠٠٢) .



ثم ألزم الله سبحانه وتعالى الملائكة أن يتعلموا من آدم ، اعترافًا بفضله وتقديرًا لعلمه :

﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

سألهم الله عن أسماء الكائنات ؛ كي يستبين لهم عجزهم ، ويظهر لهم قصور علمهم ، فلما أرادوا الرجوع إلى سابق علمهم لم يجدوا إلى الجواب سبيلا ، فأقروا بجهلهم فقالوا :

﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

ولما كان آدم قد علَّمه الله بفضله وأكرمه من علمه سبحانه وتعالى وهو بكل شيء عليم ، أمره الله أن ينبئهم بما عجزوا عن معرفته ، ويخبرهم بما قصرت عنه مداركهم بيانًا لفضله ، وإظهارًا لحكمة استخلافه :

﴿ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ﴾

فناداهم ربهم :

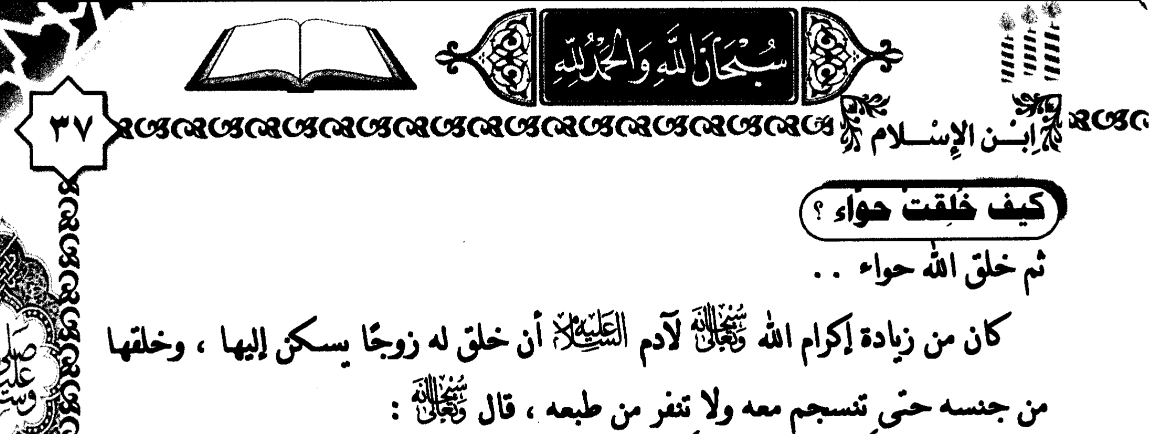
﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

وهكذا علا شأن آدم في أعين الملائكة بعدما اكتشفوا أنه يعلم ما لا يعلمون فأذعنوا ، وصار دائمًا علوّ المكانة للآدمي بهاتين : أن يكون متعلّمًا معلّمًا ، قال رسول الله ﷺ : « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ » (صحيح البخاري : ٤٦٣٩) ، وقال ﷺ : « أَلا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالاهُ وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ » (صحيح الترمذي : ١٨٩١) .

بهذه الميزات التي خصَّ الله بها آدم أبا البشر عليه السلام استحقَّ أن يكون في منزلة تليق بمكانته وعلوّ شأنه ، فأسكنه الجنة دار الكرامة والخلود وهكذا حظي آدم عليه السلام بأربع تشريفات :

- خَلَقَهُ الله سبحانه وتعالى بيده الكريمة .
- نَفَخَ فيه سبحانه وتعالى من روحه .
- أمر جل جلاله الملائكة بالسجود له .
- تعليمه أسماء كل شيء .





كيف خلقت حواء ؟

ثم خلق الله حواء . .

كان من زيادة إكرام الله سبحانه وتعالى لآدم عليه السلام أن خلق له زوجًا يسكن إليها ، وخلقها من جنسه حتى تنسجم معه ولا تنفر من طبعه ، قال سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾

خلق الله حواء من ضلع من أضلاع آدم ؛ لتكون جزءًا منه لا يستغني عنه ، وكانت من ضلعه الأيسر ؛ لتكون أقرب إلى قلبه وأحبَّ إلى نفسه . .

ثم جاء أمر ربنا العلي سبحانه وتعالى :

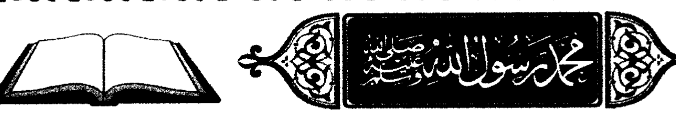
﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [سورة البقرة : ٣٥]

ليزيدَ في سعادته بذكر زوجته ، وأنها سترافقه في نعيمه ولن ينفرد فيه وحده .

وسكن آدم الجنة، وصار يتمتع فيها هو وزوجه من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فقد أطلق الله سبحانه وتعالى لهما العنان في اجتناء ما يريدان من ثمارها وعدًا حقًا ، قال سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾

ونهاه ربنا عن شجرة واحدة حددها سبحانه وأشار إليها تعيينًا لها ، بل وأكد التحذير تمامًا بعدم الاقتراب :



﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

ثم حذره سبحانه وتعالى كيد عدوه اللدود الذي أفصح عن عداوته بعدم السجود ، قال سبحانه وتعالى :

﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾

إنَّ أعدى أعدائك حقيقة هو من يستخف بك ويحتقر أصلك الذي خلقت منه ، ولا يقف عند هذا الحد بل يتبعه بالوعيد والتهديد ، ويظل يتحين الفرص ؛ لينفذ التهديد والوعيد .



ولذلك أكد الله سبحانه وتعالى على آدم ثم في كتبه المنزلة ، وعلى لسان أنبيائه ورسله بعداوة الشيطان لآدم وذريته ، وخطورته والتحذير منه ، ومع ذلك يأتي من بني البشر من يطيع الشيطان ويواليه في معصية الله سبحانه ، ومن هذا يعجب ربنا ، قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾(سورة الكهف: ٥٠)

الخطيئة : متابعة العدو

فحزَّ في نفس إبليس، وعزَّ عليه أن ينعم آدم وزوجه بالجنة وهو مطرود من رحمة الله، مُبْعَدٌ عن جنته ، وعزم على الثأر لنفسه .

فهِمَ آدم وحواء عليهما السلام أنهما ممنوعان من الأكل من هذه الشجرة ، غير أن آدم إنسان، والإنسان ينسى ، وقلبه يتقلب ، وعزمه ضعيف :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾

واستغل إبليس إنسانية آدم وجمع كل حقده في صدره ، واستغل تكوين آدم النفسي ، وراح يثير في نفسه ، ويوهمه أنه صادق الود ، مخلص في النصح :

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾

ثم راح يوسوس إليه يومًا بعد يوم بكلام معسول ، وتزيين أرجى للقبول :

﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾

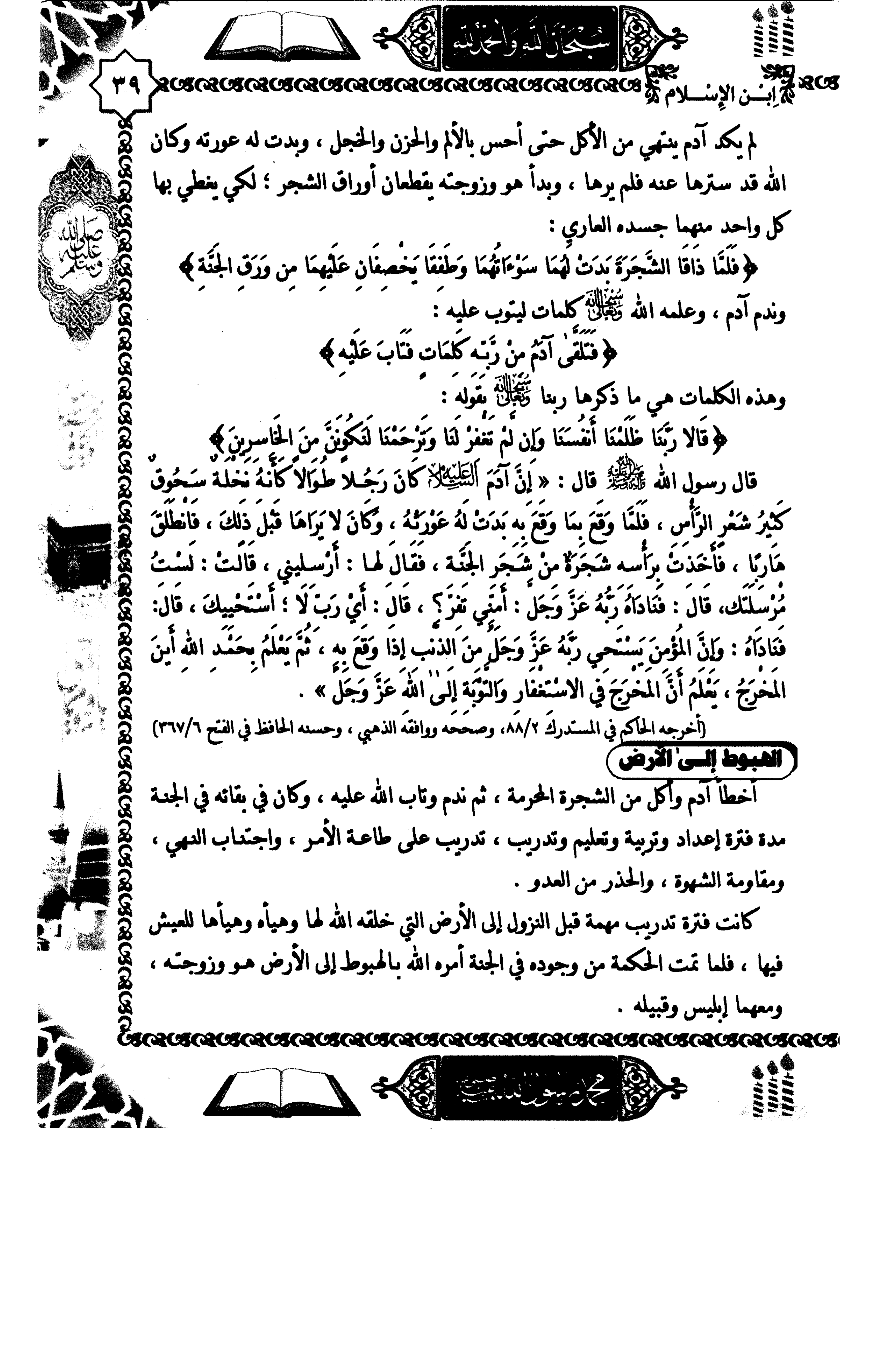
﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾

ونسي آدم عليه السلام أن الله حذره من الاقتراب منها ، نسي أن إبليس عدوه القديم ، وأكل آدم وحواء من الشجرة المحرمة :

﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾







لم يكد آدم ينتهي من الأكل حتى أحس بالألم والحزن والخجل ، وبدت له عورته وكان الله قد سترها عنه فلم يرها ، وبدأ هو وزوجته يقطعان أوراق الشجر ؛ لكي يغطي بها كل واحد منهما جسده العاري :

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾

وندم آدم ، وعلمه الله سبحانه وتعالى كلمات ليتوب عليه :

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾

وهذه الكلمات هي ما ذكرها ربنا سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

قال رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ آدَمَ عليه السلام كَانَ رَجُلاً طُوَالاً كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحُوقٌ كَثِيرُ شَعْرِ الرَّأْسِ ، فَلَمَّا وَقَعَ بِمَا وَقَعَ بِهِ بَدَتْ لَهُ عَوْرَتُهُ ، وَكَانَ لا يَرَاهَا قَبْلَ ذَلِكَ ، فَانطَلَقَ هَارِبًا ، فَأَخَذَتْ بِرَأْسِهِ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ ، فَقَالَ لَهَا : أَرْسِلِينِي ، قَالَتْ : لَسْتُ مُرْسِلَتَكَ، قَالَ : فَنَادَاهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَمِنِّي تَفِرُّ؟ ، قَالَ : أَيْ رَبِّ لَا ؛ أَسْتَحْيِيكَ ، قَالَ: فَنَادَاهُ : وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحْيِي رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الذَّنْبِ إِذَا وَقَعَ بِهِ ، ثُمَّ يَعْلَمُ بِحَمْدِ اللهِ أَيْنَ الْمَخْرَجُ ، يَعْلَمُ أَنَّ الْمَخْرَجَ فِي الاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ » .

(أخرجه الحاكم في المستدرك ٨٨/٢، وصححه ووافقه الذهبي ، وحسنه الحافظ في الفتح ٣٦٧/٦)

الهبوط إلى الأرض

أخطأ آدم وأكل من الشجرة المحرمة ، ثم ندم وتاب الله عليه ، وكان في بقائه في الجنة مدة فترة إعداد وتربية وتعليم وتدريب ، تدريب على طاعة الأمر ، واجتناب النهي ، ومقاومة الشهوة ، والحذر من العدو .

كانت فترة تدريب مهمة قبل النزول إلى الأرض التي خلقه الله لها وهيأه وهيأها للعيش فيها ، فلما تمت الحكمة من وجوده في الجنة أمره الله بالهبوط إلى الأرض هو وزوجته ، ومعهما إبليس وقبيله .



قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ :

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾

وهبط آدم وحواء إِلَىٰ الأَرض ، ونهض آدم من عثرته ، بما رُكِّبَ في فطرته ، وأدركته رحمة ربه التي تدركه دائمًا عندما يثوب إليها ويلوذ بها ، وأخبرهما الله أن الأرض هي مكانهما الأصلي ، يعيشان فيها ، ويموتان عليها ، ويخرجان منها يوم البعث .

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾

وهنا انتهت فترة التدريب ، وتعلم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ الدرس ، وعرف عدوه وعرف حبيبه، وعلم أين المخرج ، وأمره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينزل إِلَىٰ الأرض مذكرًا هذا الدرس دائمًا لنفسه ولأولاده بمعرفة العدو وسبب الطرد ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ :

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأعراف : ٢٧]





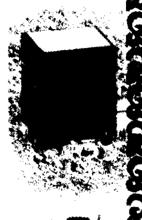


من فوائد القصة



١ للإنسان عدو خطير هو إبليس وأعوانه من الشياطين، يريدون لبني آدم معصية ربهم؛ ليغضب عليهم ويدخلهم النار مع الشياطين ، فلا تطع الشيطان إن وسوس لك بمعصية ربك سبحانه وتعالى .

٢ لابد أن تعلم أن الخطأ والنسيان من طبيعة الإنسان ، والمخرج في التوبة والاستغفار .



٣ كانت فترة وجود آدم عليه السلام في الجنة للتدريب على الأمر والنهي : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، وللتعليم بالتحذير والإنذار: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ ، ولأن الإنسان من طبعه النسيان فقد جعل الله سبحانه وتعالى مثل ذلك كل سنة فترة تدريب للإنسان ؛ كي لا ينسى القضية التي خُلِقَ من أجلها ، ولا يوالي عدوه في معصية مولاه ، وهي فترة صيام شهر رمضان ، يحرم عليه الحلال نهارًا ويباح له ليلا؛ لتقوية عزيمته ، وشحذ همته ، وتذكيره بقضيته ؛ فافهم .





٤ الخطيئة شؤم على صاحبها تحرمه من خير كثير، فجاهد ألا تخطئ، ومتى أخطأت فتب .

٥ إن إبليس يتخذ نفس الطريقة في إغواء بني آدم وهي التزيين ؛ فاحذر منه ولا تصدقه .

٦ إن الحسد من أخطر الأمراض التي تورط صاحبها في السيئات والموبقات ؛ فلا تحسد أحدًا ، وسل الله من فضله .

٧ إن تكريم الله للإنسان يكون بقدر علمه وعمله ، وقيمة كل امرئ ما يحسن ، فتعلم يكرمك ربك ويشرفك .







الصراع علىٰ ظهر الأرض

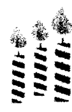
بدأت حياة آدم عليه السلام علىٰ الأرض ، خرج من الجنة مهاجرًا إِلىٰ الأرض ، واستن بذلك لأبنائه وأحفاده من الأنبياء سنة الخروج والهجرة ، قال ﷺ : « المُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ » [صحيح البخاري : ١٠] .

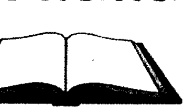
ولكن هنا في الأرض كان عليه أن يواجه شقاءً وصراعًا لا ينتهي أحدهما إلا ليبدأ الآخر، وكان عليه أن يشقى ليأكل ، وكان عليه أن يحمي نفسه بالملابس وغيرها ، ويحمي زوجته وأطفاله من الحيوانات والوحوش التي تعيش في الأرض ، وكان عليه قبل هذا كله وبعده أن يستمر في صراعه مع روح الشر ، إن الشيطان هو السبب في خروجه من الجنة، وهو في الأرض يوسوس له ولأولاده ؛ ليدخلهم الجحيم، والمعركة بين الخير والشر لا تتوقف، ومن يتبع هدى الله فلا خوفَ عليه ولا يحزن أبدًا ، ومن يعص الله ، ويتبع إبليس فهو معه في النار يعذب فيها أبدًا .

لقد خلقنا الإنسان في كبد

لما نزل آدم وحواء عليهما السلام إِلىٰ الأرض ، بدأ نظام الحياة علىٰ الأرض يكتمل ؛ لأنهما خلقا لها ، فتهيأت حواء لتستقبل أولادها ، وبهم تأنس وتسعد مع زوجها آدم عليه السلام ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٨٩] ، وكان آدم حفيًا بأولاده ، وحواء مستبشرة بقدومهم ، رغم ما قاست من أهوال وآلام ، وهكذا الأم دائمًا تنتشي برخاء العطف والحنان مع الأب والأولاد ، فإذا هي قريرة العين باردة الفؤاد .

وكانت حواء تلد في البطن الواحدة ابنًا وبنتًا ، وكبر أبناء آدم عليه السلام وتزوجوا ، وملأوا الأرض نسلا ، ودعاهم آدم إِلىٰ الله سبحانه وتعالى .



وقد وضعت السيدة حواء في حملها الأول توأمًا : ذكرًا وأنثى ، وبعد فترة وجيزة وضعت حملها الثاني وكان أيضًا ذكرًا وأنثى ، وسمى سيدنا آدم ابنه الأول قابيل ، وابنه الثاني هابيل ، وقد وضع الله ﷻ لآدم قانونًا خاصًّا للزواج بين أبنائه الذكور والإناث ، فلا يجوز أن يتزوج أخ من أخته التي وُلدَتْ معه في نفس المرة .

وفي يوم جاء هابيل وطلب من أبيه أن يتزوج أخت قابيل ، فوافق آدم ﷺ ، ولكن قابيل رفض ، فقد كان يريد أن يتزوج توأمه ، وأخذ إبليس يتدخل ويزرع الحقد والحسد في نفس قابيل .

فأمرهما آدم ﷺ أن يقدما قربانًا إلى الله ﷻ ، والقربان الذي يتقبله الله يتزوج صاحبه أخت قابيل ، وكان قابيل مزارعًا ، أما هابيل فكان يملك بعض الأغنام .

وأسرع هابيل إلى غنمه واختار أفضل واحدة ؛ ليقدمها قربانًا إلى الله ﷻ ، بينما سار قابيل إلى زرعه وأخذ بعض الأعواد من أسوأ الأنواع وقدمها قربانًا لله ، ووقفا ينتظران في لهفة وترقب ، وهبطت نار من السماء فأكلت قربان هابيل ، وتركت قربان قابيل ، لقد تقبل الله قربان هابيل ؛ لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا .

غضب قابيل غضبًا شديدًا ؛ لأن الله تقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربانه ، وهو يعلم أنه السبب ولكن امتلأت نفسه بالحقد وقرر أن يقتل أخاه ، وكان هابيل قويًّا شديدًا ويمكنه أن يدافع عن نفسه ، ولكنه كان يخاف الله ويدرك أنه لو قتل أخاه سيرتكب معصية كبيرة .

قال الله ﷻ :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٢٧-٢٨] .

وأراد هابيل أن ينبه أخاه إلى أن جزاء من يقتل أخاه النار ، فقال له :

﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ ﴾

وهذا دليل على أن آدم عليه السلام كان رسولا ، وأنه دعا بنيه ، وعرفهم بالآخرة ، والجنة والنار ، وحذرهم من الظلم .

وقُدِّرَ لآدم عليه السلام أن يشهد أول انحياز من أحد أبنائه لروح الشر إبليس ، وقعت أول جريمة قتل على الأرض ، قتل قابيل هابيل ، قتل الشرير أخاه الطيب ، مرتكبًا أول جريمة قتل في تاريخ البشرية ، قال رسول الله ﷺ : « لا تُقتَلُ نفسٌ ظُلْمًا إلا كانَ على ابنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا ؛ لأَنَّهُ كانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ القَتْلَ » (صحيح البخاري : ٣١٥٧) .

ولكنها النفس الإنسانية حين تطغى وتنسى ، فلا تذكر إلا شهواتها ، ويستولي عليها عدوها الشيطان ، فتستهين بالأصول وتتجاوز الحدود :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

أول جريمة على الأرض

وقتل قابيل هابيل ، ثم جلس القاتل أمام شقيقه المضرَّج في دمه ، ماذا يقول لأبيه آدم لو سأل عنه ؟ ! لقد شاهدهما يخرجان معًا ، فكيف يعود وحده ؟ ! ولو أنكر أمام أبيه أنه قتل شقيقه ، فأين يخفي جثته ؟ ! أين يذهب بها ؟ ! كان هذا الأخ القتيل أول إنسان يموت على الأرض ، ولم يكن دفن الموتى شيئًا قد عُرف بعد ، وحمل الأخ جثة شقيقه وراح يمشي بها ويطوف في الأرض .

وسبحان الملك الرحيم سبحانه ، أرحم بالإنسان من نفسه ، عطف الله عليه ولطف به ، فبينما هو غارق في حَيْرته أرسل الله غرابين يقتتلان ، فقتل أحدهما الآخر ، ثم حفر الغراب حفرة في الأرض ، ووضع فيها الغراب المقتول ثم غطاه بالتراب ، وهكذا علمه الله كيف يتصرف في جثة أخيه :

﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾





فندم قابيل ندمًا شديدًا :

﴿ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾

وحفر حفرة في الأرض ودفن أخاه وهو يبكي نادمًا .

نقص أبناء آدم عليه السلام واحدًا ، وكسب الشيطان واحدًا من أبناء آدم ، وحزن آدم حزنًا شديدًا على خسارته في ولديه ، مات أحدهما ، وكسب الشيطان الثاني .

وعاد آدم عليه السلام إلى حياته على الأرض : إنسانًا يعمل ويشقى ليصنع خبزه ، ونبيًّا يعظ أبناءه وأحفاده ويحدثهم عن الله ويدعوهم إليه، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قُلتُ للنبيِّ ﷺ : أيُّ الأنبياء أوَّلُ ؟ قالَ : « آدَمُ » قلتُ : أوَ نبيًّا كانَ ؟ قالَ : « نَعَمْ ، نَبيٌّ مُكلَّمٌ » (صحيح مشكاة المصابيح : ٥٧٣٧)، وكان آدم عليه السلام يحكي لهم عن إبليس ويحذرهم منه ، ويروي لهم قصته هو نفسه معه ، ويقص لهم قصته مع ابنه الذي دفعه لقتل شقيقه .

كان يوم الجمعة يومًا حاسمًا في حياة آدم عليه السلام، ففي هذا اليوم خُلقَ، وفيه أُدْخل الجنة، وفيه أُخْرِجَ منها ، وفيه أيضًا تُوفِّيَ آدم عليه السلام ، قال رسول الله ﷺ : « إنَّ منْ أفضَلِ أيَّامكُم يَومَ الجُمُعَة، فيه خُلقَ آدَمُ ، وفيه أُدْخلَ الجَنَّةَ ، وفيه أُخْرِجَ منْهَا ، وفيه قُبِضَ » . (صحيح أبي داود : ١٠٧٤) .

وفاة آدم عليه السلام

وعندما حضرته الوفاة ، استدعى سيدنا آدم عليه السلام ابنه شيث ، ولقنه العلوم والعبادات التي عرفها ، حتى يواصل شيث رسالة سيدنا آدم التي بدأها .

قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ قَالَ لَهُ – وَيَدَاهُ مَقْبُوضَتَانِ – : اخْتَرْ أَيَّهُمَا شِئْتَ ، قَالَ : اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي ، وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ مُبَارَكَةٌ ، ثُمَّ بَسَطَهَا ، فَإِذَا فِيهَا آدَمُ وَذُرِّيَّتُهُ ، فَقَالَ : أَيْ رَبِّ مَا هَؤُلَاءِ ؟ فَقَالَ سبحانه وتعالى : هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ ، فَإِذَا كُلُّ إِنْسَانٍ مَكْتُوبٌ عُمْرُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، فَإِذَا فِيهِمْ رَجُلٌ أَضْوَؤُهُمْ أَوْ مِنْ أَضْوَئِهِمْ قَالَ : يَا رَبِّ ، مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا ابْنُكَ دَاوُدُ ، قَدْ كَتَبْتُ لَهُ عُمْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، قَالَ : يَا رَبِّ زِدْهُ فِي

عُمْرِهِ ، قَالَ : ذَاكَ الَّذِي كَتَبْتُ لَهُ ، قَالَ : أَيْ رَبِّ فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُ لَهُ مِنْ عُمْرِي سِتِّينَ سَنَةً ، قَالَ : أَنْتَ وَذَاكَ ، قَالَ : ثُمَّ أُسْكِنَ الْجَنَّةَ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ أُهْبِطَ مِنْهَا ، فَكَانَ آدَمُ يَعُدُّ لِنَفْسِهِ قَالَ : فَأَتَاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ : قَدْ عَجَّلْتَ ، قَدْ كُتِبَ لِي أَلْفُ سَنَةٍ ، قَالَ : بَلَى ، وَلَكِنَّكَ جَعَلْتَ لِابْنِكَ دَاوُدَ سِتِّينَ سَنَةً ، فَجَحَدَ ، فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وَنَسِيَ، فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، قَالَ : فَمِنْ يَوْمِئِذٍ أُمِرَ بِالْكِتَابِ وَالشُّهُودِ » (صحيح الترمذي : ٣٠٠٢) .

ورحل آدم عليه السلام ؛ ليلقى ربه بعد أن أدى رسالته ، وبعد أن انتشر أبناؤه في أرجاء الأرض ليعمروا الكون .

فلما مات آدم عليه السلام قام بأعباء الأمر بعده ولده شيث عليه السلام وكان نبيًا ، ومعنى شيث : هبة الله ، وسمياه بذلك لأنهما رُزِقاهُ بعد أن قُتِل هابيل .

مرت الأيام . .

وتوالت السنون . .

وتتابعت الأحداث . . حتى بعث الله سبحانه وتعالى نبيه إدريس عليه السلام .

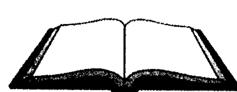
من فوائد القصة

١ العدو لا يكف عن إثارة الشر عليك ، ويجتهد في أن ينزغ بينك وبين إخوتك ، فلا تطع الشيطان ، وأظهر حبك لإخوانك .

٢ الطمع والحسد والأنانية شر ما يبتلى به الإنسان ، وهما طريق كل سيئة .

٣ الله رحيم كريم ودود ، لا ينسى عبده ولا يطرده وإن عصاه ، بل هو سبحانه الصبور ؛ فاحمد ربك أن هداك للإسلام ، واذكره واشكره ولا تعصه .









إدريس عليه السلام

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۞ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾

إدريسُ عليه السلام هو أحد الرسل الكرام الذين أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم في كتابه العزيز ، وهو ممن يجب الإيمان بهم تفصيلا ، أي يجب اعتقاد نبوته ورسالته علىٰ سبيل القطع والجزم ؛ لأن القرآن قد ذكره باسمه وحدث عن شخصه فوصفه بالنبوة والصديقية.

كان صديقًا نبيًّا ومن الصابرين ، أول نبي بعث في الأرض بعد آدم عليه السلام علىٰ ما نعلم من القرآن ، وهو أبو جد نوح عليه السلام ، أنزلت عليه ثلاثون صحيفة ، ودعا إلىٰ وحدانية الله سبحانه وتعالى وآمن به ألف إنسان ، وهو أول من خط بالقلم ، وأول من خاط الثياب ولبسها ، وأول من نظر في علم النجوم وسَيرِها ، وسمي إدريس لكثرة دراسته ومذاكرته لصحف آدم عليه السلام .

إدريس عليه السلام هو أول بني آدم أعطي النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام ، وذكر ابن إسحاق أنه أول من خط بالقلم ، وقد أدرك من حياة آدم عليه السلام ثلاثمائة وثمان سنوات ؛ لأن آدم عليه السلام عمَّر طويلا زهاء ألف سنة .

وقد ولد إدريس عليه السلام ببابل ، وقد أخذ في أول عمره بعلم شيث بن آدم ، ولما كبر آتاه الله النبوة فنهى المفسدين من بني آدم عن مخالفتهم شريعة آدم وشيث عليهما السلام فأطاعه نفر قليل ، وخالفه جمع خفير ، فنوى الرحلة عنهم وأمر من أطاعه منهم بذلك ، فخرج وخرجوا حتى وصلوا إلىٰ أرض مصر ، وأقام إدريس عليه السلام ومن معه بمصر يدعو الناس إلىٰ الله وإلى مكارم الأخلاق .



وكانت له مواعظ وآداب فقد دعا إلى دين الله ، وإلى عبادة الخالق جل وعلا ، وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة ، بالعمل الصالح في الدنيا وحض على الزهد في هذه الدنيا الفانية الزائلة ، وأمرهم بالصلاة والصيام والزكاة وغلظ عليهم في الطهارة من الجنابة ، وحرَّم المسكر من كل شيء من المشروبات وشدد فيه أعظم تشديد .

وهو أول من علم السياسة المدنية ، ورسم لقومه قواعد تمدين المدن ، فبنت كل فرقة من الأمم مدنًا في أرضها وأنشئت في زمانه مائة وثمان وثمانون مدينة وقد اشتهر بالحكمة فمن حكمه:

- قوله عليه السلام : (خَيْرُ الدُّنْيَا حَسْرَةٌ ، وَشَرُّهَا نَدَمٌ) .
- وقوله عليه السلام : (السَّعِيدُ مَنْ نَظَرَ إِلَى نَفْسِهِ ، وَشَفَاعَتُهُ عِنْدَ رَبِّهِ أَعْمَالُهُ الصَّالِحَةُ) .
- وقوله عليه السلام : (الصَّبْرُ مَعَ الإِيمَانِ يُوَرِّثُ الظَّفَرَ) .

وكان عليه السلام يرفع له في كل يوم مثل عمل جميع بني آدم من أهل زمانه ، ولذلك رفع مكانًا عليًا .

ثم مات إدريس عليه السلام ، ورفعه الله مكانًا عليًا في السماء الرابعة ، كما رآه النبي صلى الله عليه وسلم في رحلة المعراج .



من فوائد القصة

(١) المكانة العليَّة والرتبة السنيَّة لمن كان لله اعبد وبه أعلم ، فكن لله كما يريد يكن لك فوق ما تريد ، وإذا أردت العليا من الجنة فعليك بالعليا من الأعمال في هذه الدنيا .

(٢) العلم هو ميراث الأنبياء ، ولابد لكل عالم من جذر يستقي منه علمه ، ومكانة التلميذ من مكانة شيخه ، فاقترب من العظماء تكن عظيمًا ، وتأسَّ بالصادقين تكن صادقًا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [سورة التوبة : ١١٩] .

(٣) الرحلة لتبليغ الدعوة ونشر الهدى سنة لا تنقطع وسبيل لا يزول .

(٤) العلم يورث الحكمة والسداد ، ويجلب لصاحبه سعادة الدارين .



نوح عليه السلام

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾

بداية الانحراف

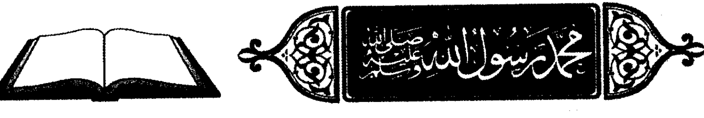
بعد موت نبي الله إدريس عليه السلام مضى زمان الله أعلم به ، وكان الناس لا يزالون على فطرتهم على التوحيد ، وإن كانت انتشرت بينهم المعاصي والذنوب بتسويل الشيطان الرجيم ، ثم تطاول الزمان حتى بدأ الناس يعبدون الأصنام .

تعال معي ؛ لتعرف قصة الأصنام والتماثيل من البداية ، وكيف عبد الناس هذه الأحجار :

ولد نوح عليه السلام بعد وفاة آدم عليه السلام بأكثر من ألف سنة ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشْرَةُ قُرُونٍ كُلُّهم على الإسْلامِ» (السلسلة الصحيحة : ٣٢٨٩) ، ونوح عليه السلام هو أول رسول إلى أهل الأرض ، وهو أحد أولي العزم من الرسل.

قبل أن يولد قوم نوح عليه السلام عاش خمسة رجال صالحون من أجداد قوم نوح ، عاشوا زمنًا ثم ماتوا ، كانت أسماء الرجال الخمسة هي : (ودٌّ ، سُوَاعُ ، يغوثُ ، يعوقُ ، نسرٌ) ، كان هؤلاء الرجال يعلمون من حولهم دين الله الحق ، ويدعونهم إلى عبادة الله ، ويساعدون المحتاج ، ويعطفون على الفقير ، حتى أحبهم قومهم واقتدوا بهم ، وعندما مات الرجال الخمسة حزن أصحابهم وأتباعهم أشد الحزن .

بعد موتهم صنع الناس لهم تماثيل على سبيل الذكرى والتكريم ، ومضى الوقت ، ومات الذين نحتوا التماثيل ، وجاء أبناؤهم ، وبعد أن مات الأبناء وجاء أبناء الأبناء ، نسجت قصصٌ وحكايات حول التماثيل تعزو لها قوة خاصة ، واستغل إبليس فرصته وهي تمر إلى جواره ، وأوهم الناس أن هذه تماثيل آلهة تملك النفع وتقدر على الضرر ،



وبدأ الناس يعبدون هذه التماثيل ، بتسويل الشيطان ، وتهويل بني آدم زعموا أنهم جربوا ذلك فوجدوها تنفع ، وهنا . . يُبعث الأنبياء ويُرسل الرسل ، فالله العظيم يغار على جناب التوحيد ، ويغضب حين يُعبد غيرُه :

﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

نوح عليه السلام والدعوة إلى التوحيد

كان نوح عليه السلام يعيش وسط هؤلاء القوم ، وكان بمقياس العظمة أعظم إنسان في عصره ، لم يكن ملكًا في قومه ، ولا رئيسًا عليهم ، ولم يكن أغنى رجل فيهم ، فالعظمة الحقيقية ليست في الملك أو الرئاسة أو الغنى كما يعتقد البعض الآن ؛ إنما توجد العظمة في خضوع القلب لله ونقائه ، وطهارة الضمير ، وقيمة الأفكار التي يحملها العقل ، وقدرة هذا العقل على تغيير الحياة حوله ، وكان عند نوح عليه السلام هذا كله وأكثر .

كان على الفطرة مؤمنًا بالله سبحانه وتعالى ، قبل بعثته إلى الناس ، وكل الأنبياء مؤمنون بالله سبحانه وتعالى قبل بعثتهم ، وهناك سبب آخر لعظمة نوح عليه السلام ، قال الله سبحانه وتعالى عن نوح: ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ ، كان يشكر ربه على كل نعمه ، ويشكره ويحمده في السراء والضراء .

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾

واختار الله عبده الشاكر وأرسله نبيًّا إلى قومه ، وخرج نوح عليه السلام على قومه فبدأ دعوته قائلا :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

بهذه الجملة الموجزة وضع نوح عليه السلام قومه أمام حقيقة الألوهية ، وحقيقة البعث ، هناك إله خالق وهو وحده الذي يستحق العبادة ، وهناك موت ثم بعث ثم يومٌ للقيامة ، يوم عظيم ، فيه عذابٌ عظيم .



شرح نوح عليه السلام لقومه أنه يستحيل أن يكون هناك غير إله واحد هو الخالق ، أفهمهم أن الشيطان قد خدعهم زمنًا طويلا ، وأن الوقت قد جاء ليتوقف هذا الخداع ، حدثهم نوح عليه السلام عن تكريم الله للإنسان ، كيف خلقه ، ومنحه الرزق وأعطاه نعمة العقل ، وليست عبادة الأصنام غير ظلم خانق للعقل ، وأخبرهم بقصة هذه التماثيل ، وأنها مصنوعة ، صنعها بشر مثلهم ، وأنه لا يملك هو نفسه ولا أحد ولا شيء من خلق الله نفعًا ولا ضرًا لأحد .

صراع بين الحق والباطل

تحرك قوم نوح في اتجاهين بعد دعوته ، لمست الدعوة قلوب الضعفاء والفقراء والبؤساء ، وانحنت على جراحهم وآلامهم بالرحمة ، أما الأغنياء والأقوياء والكبراء ، تأملوا الدعوة بعين الشك ، ولما كانوا يستفيدون من بقاء الأوضاع على ما هي عليه ، فقد بدأوا حربهم ضد نوح عليه السلام .

في البداية اتهموا نوحًا بأنه بشر مثلهم:

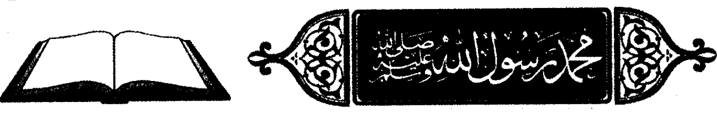
﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾

رغم أن نوحًا عليه السلام لم يقل غير ذلك ، وأكد أنه مجرد بشر ، والله يرسل إلى الأرض رسولا من البشر ؛ لأن الأرض يسكنها البشر ، ولو كانت الأرض تسكنها الملائكة لأرسل الله رسولا من الملائكة :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾

وهكذا دائمًا ستجد مع كل الأنبياء ، يعترضون على شخص النبي ، وهي حيلة للتهرب من الحق ، فإن كل الأنبياء لا يطالبون الناس بعبادتهم ؛ إنما يقولون : نحن بشر ، ونحن رسل ، ونحن مبلغون ، ونحن لا نملك ، ولكنها عقلية من يريد أن يرفض .

واستمرت الحرب بين الكافرين ونوح عليه السلام . . .



في البداية ، تصور الكفرة يومها أن دعوة نوح لا تلبث أن تنطفئ وحدها ، فلما وجدوا الدعوة تجتذب الفقراء والضعفاء وأهل الصناعات البسيطة ، وهم دائمًا أتباع الأنبياء ، والمسارعون إلى الحق ، فبدأوا الهجوم على نوح عليه السلام من هذه الناحية ، هاجموه في أتباعه ، وقالوا له: لم يتبعك غير الفقراء والضعفاء والأراذل :

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾

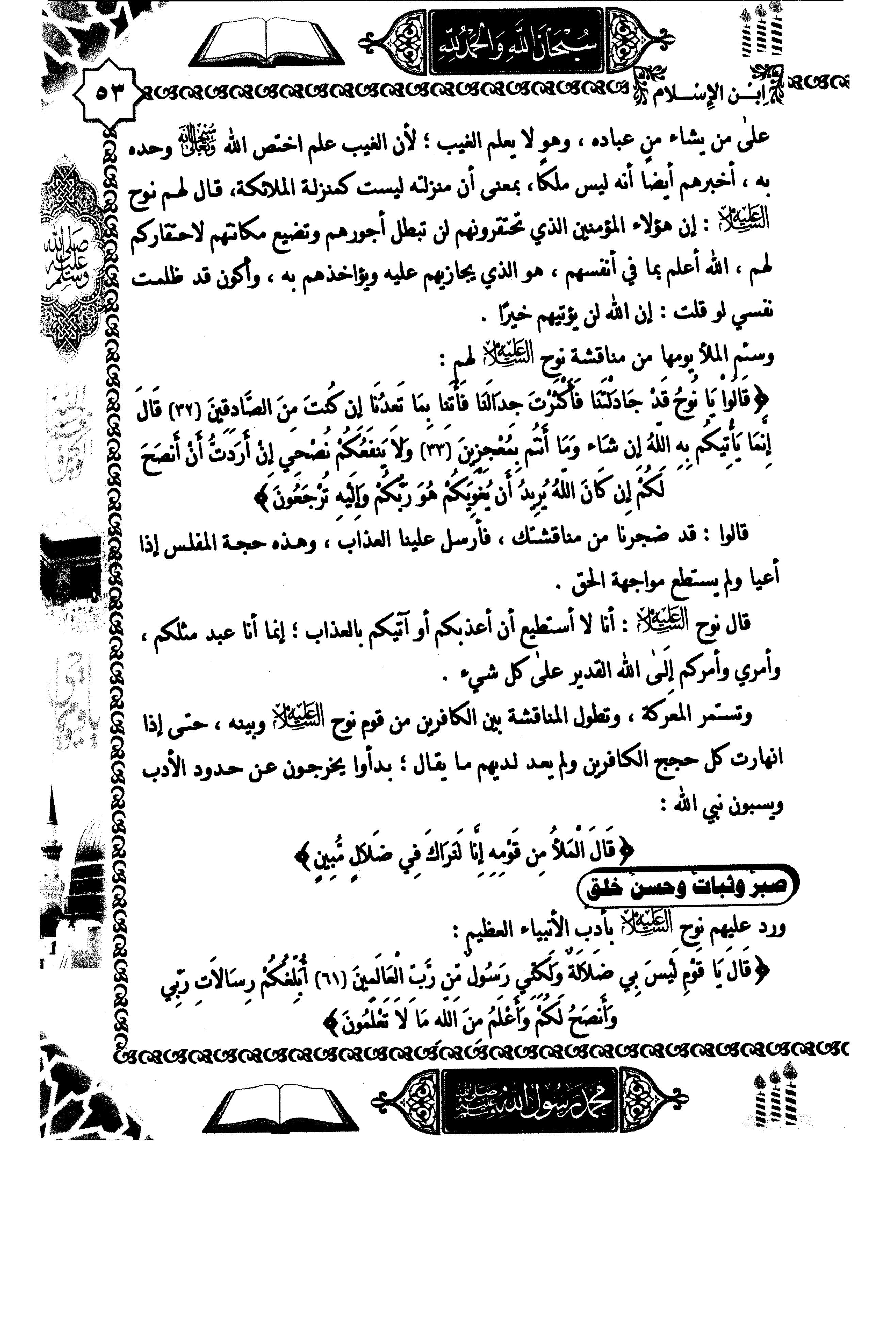
هكذا اندلع الصراع بين نوح عليه السلام ورؤساء قومه ، ولجأ الذين كفروا إلى المساومة ، قالوا لنوح عليه السلام : اسمع يا نوح ، إذا أردت أن نؤمن لك فاطرد الذين آمنوا بك ، إنهم ضعفاء وفقراء ، ونحن سادة القوم وأغنياؤهم ، ويستحيل أن تضمنا دعوة واحدة مع هؤلاء .

واستمع نوح عليه السلام إلى كفار قومه وأدرك أنهم يعاندون ، ورغم ذلك كان طيبًا في رده ، أفهم قومه بكل وضوح أنه على حق لم يعلموه ، ولا يستطيع أن يكرههم عليه ، ولا يطلب أجرًا ولا مالا على دعوته ، ولا يستطيع أن يطرد المؤمنين ؛ لأنهم أولا ليسوا ضيوفه؛ إنما هم ضيوف الله ، ثم إن الرحمة ليست بيته الذي يدخل فيه من يشاء أو يطرد منه من يشاء ؛ إنما الرحمة بيت الله الذي يكرم به من يشاء :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [سورة هود : ٢٨-٣١] .



وعاد نوح عليه السلام يقول لهم : إنه لا يدعى لنفسه أكثر مما له من حق ، وأخبرهم بتذلله وتواضعه لله سبحانه وتعالى ، فهو لا يدعي لنفسه ما ليس له من خزائن الله ، وهي إنعامه



علىٰ من يشاء من عباده ، وهو لا يعلم الغيب ؛ لأن الغيب علم اختص الله ﷻ وحده به ، أخبرهم أيضاً أنه ليس ملكاً، بمعنى أن منزلته ليست كمنزلة الملائكة، قال لهم نوح عليه السلام : إن هؤلاء المؤمنين الذي تحتقرونهم لن تبطل أجورهم وتضيع مكانتهم لاحتقاركم لهم ، الله أعلم بما في أنفسهم ، هو الذي يجازيهم عليه ويؤاخذهم به ، وأكون قد ظلمت نفسي لو قلت : إن الله لن يؤتيهم خيرًا .

وسئم الملأ يومها من مناقشة نوح عليه السلام لهم :

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

قالوا : قد ضجرنا من مناقشتك ، فأرسل علينا العذاب ، وهذه حجة المفلس إذا أعيا ولم يستطع مواجهة الحق .

قال نوح عليه السلام : أنا لا أستطيع أن أعذبكم أو آتيكم بالعذاب ؛ إنما أنا عبد مثلكم ، وأمري وأمركم إلىٰ الله القدير علىٰ كل شيء .

وتستمر المعركة ، وتطول المناقشة بين الكافرين من قوم نوح عليه السلام وبينه ، حتى إذا انهارت كل حجج الكافرين ولم يعد لديهم ما يقال ؛ بدأوا يخرجون عن حدود الأدب ويسبون نبي الله :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

صبر وثبات وحسن خلق

ورد عليهم نوح عليه السلام بأدب الأنبياء العظيم :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قال : أنا أعلم بمصلحتكم ، وحريص علىٰ أن أنفعكم ، وعلمني ربي ما ليس عندكم فأطيعوني ، تفلحوا وتنجحوا .

ويستمر نوح عليه السلام في دعوة قومه إلىٰ الله ، ساعة بعد ساعة ، ويومًا بعد يوم ، وعامًا بعد عام ، ومرت الأعوام ونوح يدعو قومه ، كان يدعوهم ليلا ونهارًا ، وسرًا وجهرًا ، يضرب لهم الأمثال ، ويشرح لهم الآيات ويبين لهم قدرة الله في الكائنات ، وكلما دعاهم إلىٰ الله فروا منه ، وكلما دعاهم ليغفر الله لهم ؛ جعلوا أصابعهم في آذانهم واستكبروا عن سماع الحق ، حكى الله سبحانه وتعالى ما لقيه نوح عليه السلام :

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [سورة نوح : ٦-١٢]

وعد ووعيد ، وترغيب وتهديد ، ولكن صدئت القلوب ، وأظلمت العقول ، ورفضوا الفهم :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً ﴾

هكذا يطلب منهم أن يفتحوا أعينهم على السماء والأرض ؛ ليعرفوا الخالق العظيم ، ويعبدوه ، ولكن كانت عقولهم أظلم وقلوبهم أقسى من أن تلتفت عن عبادة الأصنام .

موقف قوم نوح من دعوته

ماذا كان جواب قومه بعد هذا كله؟





﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ [سورة نوح :٢١-٢٤] .

كان رد قوم نوح المكر والخداع ، والمناورة والأذى ، والإصرار علىٰ الشرك ، والتواصي به ، والدعوة إليه ، والحث عليه .

وصبر نوح عليه السلام طويلا واستمر يدعو قومه إلىٰ الله ألف سنة إلا خمسين عامًا :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾

وكان يلاحظ أن عدد المؤمنين لا يزيد ، بينما يزيد عدد الكافرين ، وظل نوح عليه السلام يدعو قومه ويجادلهم ، وظل قومه علىٰ الكبرياء والكفر ، وحزن نوح علىٰ قومه ، لكنه لم يبلغ درجة اليأس ولم يفقد الأمل ، بل ظل محتفظًا بالأمل طوال تسعمائة وخمسين سنة .

وجاء يوم أوحى الله إليه ، أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، أوحى الله إليه ألا يحزن عليهم :

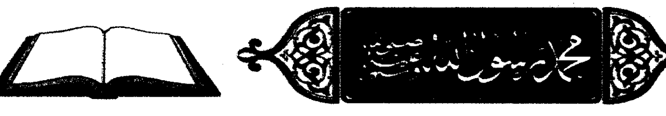
﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

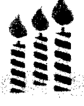
ساعتها دعا نوح علىٰ الكافرين بالهلاك :

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [سورة نوح : ٢٦].

انتهى الأمر وجاء قضاء الله سبحانه وتعالى ، فقضى الملك حكمه علىٰ الكافرين : أن يغرقهم بالماء ، وهكذا كما لم تنفعهم النعمة ؛ فلتقتلهم النعمة :

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾





وهنا .. أمر الله سبحانه وتعالى عبده ورسوله نوحًا أن يصنع الفلك ، يعني سفينة ضخمة كبيرة ، وتعجب نوح عليه السلام في نفسه : سفينة لماذا ؟ وكيف ؟ وهو لم يكن نجارًا من قبل ، والله يعلم ما يدور في النفوس ، وما يخطر على القلوب ، فطمأنه سبحانه وتعالى بقوله ﴿ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ أي بعلم الله وتعليمه ، وعلى مرأى منه سبحانه وتعالى وطبقًا لتوجيهاته ومساعدة الملائكة له ، وقال الله سبحانه وتعالى لنوح عليه السلام :

﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾

يغرق الله سبحانه وتعالى الذين ظلموا مهما كانت أهميتهم أو قرابتهم للنبي ، وينهى الله نبيه أن يخاطبه أو يتوسط لهم .

وبدأ نوح يغرس الشجر ويزرعه ؛ ليصنع منه السفينة ، انتظر سنوات ، ثم قطع ما زرعه ، وبدأ نجارته ، كانت سفينة عظيمة الطول والارتفاع والمتانة .

بناء سفينة النجاة

بدأ نوح يبني السفينة ، ويمر عليه الكفار فيرونه منهمكًا في صنع السفينة ، والجفاف سائد ، وليست هناك أنهار قريبة أو بحار ، كيف ستجري هذه السفينة إذن يا نوح ؟ ! هل ستجري على الأرض ؟ ! أين الماء الذي يمكن أن تسبح فيه سفينتك ؟ ! قالوا : لقد جُنَّ نوح ، وترتفع ضحكات الكافرين وتزداد سخريتهم من نوح ، وكانوا يسخرون منه قائلين : صرت نجارًا بعد أن كنت نبيًّا ! !

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

انتهى صنع السفينة ، وجلس نوح عليه السلام ينتظر أمر الله سبحانه وتعالى ، أوحى الله جل جلاله إلى نوح أنه إذا فار التنور فهذه علامة على بدء الطوفان ، (التنور : الفرن الذي يخبز فيه الخبز) .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾



وجاء اليوم الرهيب ، فار التنور ، وأسرع نوح يفتح سفينته ويدعو المؤمنين به ، وهبط جبريل عليه السلام إلىٰ الأرض ، وأمر الله نوحًا عليه السلام أن يأخذ معه في السفينة ذكرًا وأنثى من كل كائن حي :

﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾

فحمل نوح إلىٰ السفينة من كل حيوان وطير ووحش زوجين اثنين ، بقرةً وثورًا ، فيلا وفيلة ، عصفورًا وعصفورة ، نمرًا ونمرة ، إلىٰ آخر المخلوقات ؛ لضمان بقاء نوع الحيوان والطير علىٰ الأرض ، وبدأ صعود السفينة ، فوضع نوح في الدور الأسفل من السفينة الحيوانات والوحوش ، واستقر هو والمؤمنون في الدور الأوسط ، أما الطيور فقد استقرت في الدور الثالث ، وكان عدد المؤمنين قليلا ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾

هكذا فلتكن الموالاة

لم تكن زوجة نوح مؤمنة بالله فلم تصعد معه إلىٰ السفينة ، وكان أحد أبنائه يخفي كفره ويبدي الإيمان أمام أبيه نوح عليه السلام ، فلم يصعد هو الآخر ، وكانت أغلبية الناس غير مؤمنة هي الأخرى ، فلم تصعد ، وصعد المؤمنون ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : آمن من قوم نوح ثمانون إنسانًا .

ارتفعت المياه من فتحات الأرض ، انهمرت من السماء أمطار غزيرة بكميات لم تر مثلها الأرض ، فالتقت أمطار السماء بمياه الأرض ، وصارت ترتفع ساعة بعد ساعة ، فقدت البحار هدوءها ، وانفجرت أمواجها تجور علىٰ اليابسة ، وتكتسح الأرض ، وغرقت الكرة الأرضية للمرة الأولى في المياه ، كانت أثناء الطوفان هي الكرة المائية ، لم تعد كرة أرضية ، قال سبحانه وتعالى :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ (دُسُر : يعني مسامير) .

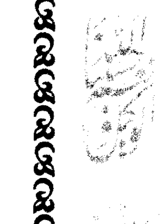


ارتفعت المياه أعلى من الناس ، تجاوزت قمم الأشجار ، وقمم الجبال ، وغطت سطح الأرض كله ، وسارت السفينة :

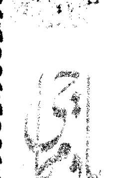
﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾

فقال نوح عليه السلام :

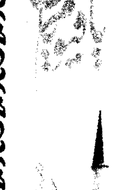
﴿ بِسْمِ اللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا ﴾



وخاف سيدنا نوح عليه السلام على ابنه ، وفي بداية الطوفان نادى نوح ابنه ، كان ابنه يقف بمعزل منه ، ويحكي لنا المولى عز وجل الحوار القصير الذي دار بين نوح عليه السلام وابنه قبل أن يحول بينهما الموج فجأة :



نادى نوح ابنه قائلا: ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ .



ورد الابن عليه: ﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء ﴾ .

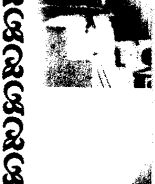
عاد نوح يخاطبه: ﴿ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ .

واتنهى الحوار بين نوح وابنه :

﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾



﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ ﴾ : أنهى الموج حوارهما فجأة ، نظر نوح فلم يجد ابنه ، لم يجد غير جبال الموج التي ترتفع وترفع معها السفينة ، وتفقدها رؤية كل شيء غير المياه ، وشاء الله أن يغرق الابن بعيدًا عن عين الأب ، رحمة منه بالأب ، واعتقد نوح أن ابنه مؤمن ، وتصوّر ابنه أن الجبل سيعصمه من الماء ، فغرق ولم يعلم أنه من الكافرين .





واستمر الطوفان ، استمر يحمل سفينة نوح ، وبعد ساعات من بدايته ، كانت كل عين تطرف على الأرض قد هلكت غرقًا ، لم يعد باقيًا من الحياة والأحياء غير هذا الجزء الخشبي من سفينة نوح ، وهو ينطوي على الخلاصة المؤمنة من أهل الأرض ، وأنواع الحيوانات والطيور التي اختيرت بعناية .

نهاية الطوفان

استمر طوفان نوح زمنًا لا نعرف مقداره ، ثم أمر الله السماء أن تكف عن الإمطار ، وأمر الأرض أن تستقر وتبلع الماء :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾

وأوحى إلى أخشاب السفينة أن ترسو على الجودي ، وهو اسم مكان قديم يقال : إنه جبل في العراق ، طهر الطوفان الأرض وغسلها ، ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ بمعنى نقص الماء وانصرف عائدًا إلى فتحات الأرض ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

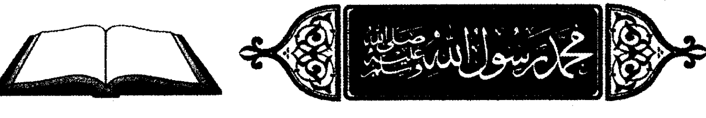
﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ بمعنى أنه أحكم وفرغ منه ، يعني هلك الكافرون من قوم نوح تمامًا ، ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ بمعنى رست عليه ، ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي هلاكًا لهم ، طهر الطوفان الأرض منهم وغسلها ، ذهب الهول بذهاب الطوفان ، وانتقل الصراع من الموج إلى نفس نوح عليه السلام ، تذكر ابنه الذي غرق وحزن عليه .

لم يكن نوح يعرف حتى هذه اللحظة أن ابنه كافر ، كان يتصور أنه مؤمن عنيد ، آثر النجاة باللجوء إلى جبل ، وكان الموج قد أنهى حوارهما قبل أن يتم ، فلم يعرف نوح حظ ابنه من الإيمان ، تحركت في قلب الأب عاطفة الأبوة :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾

أراد نوح عليه السلام أن يقول لله سبحانه وتعالى : إن ابنه من أهله المؤمنين ، وقد وعده الله بنجاة أهله المؤمنين ، قال الله سبحانه وتعالى - مطلعًا نوحًا على حقيقة ابنه :

﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾



وثمة درس مهم تنطوي عليه الآيات الكريمة التي تحكي قصة نوح عليه السلام وابنه ، أراد الله سبحانه وتعالى أن يقول لنبيه الكريم : إن ابنه ليس من أهله ؛ لأنه لم يؤمن بالله ، وليس الدم هو الصلة الحقيقية بين الناس ، ابن النبي هو ابنه في العقيدة ، ابن النبي هو من يطيع الله رب النبي ، وليس ابنه من يكفر به ولو كان من صلبه ، هنا ينبغي أن يتبرأ المؤمن من غير المؤمن ، وهنا أيضًا ينبغي أن تتصل بين المؤمنين صلات العقيدة فحسب ، لا اعتبارات الدم أو الجنس أو اللون أو الأرض .

واستغفر نوح ربه وتاب إليه :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

فعفا الله عنه ورحمه ، وأمره سبحانه وتعالى أن يهبط من السفينة محاطًا ببركة الله ورعايته :

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

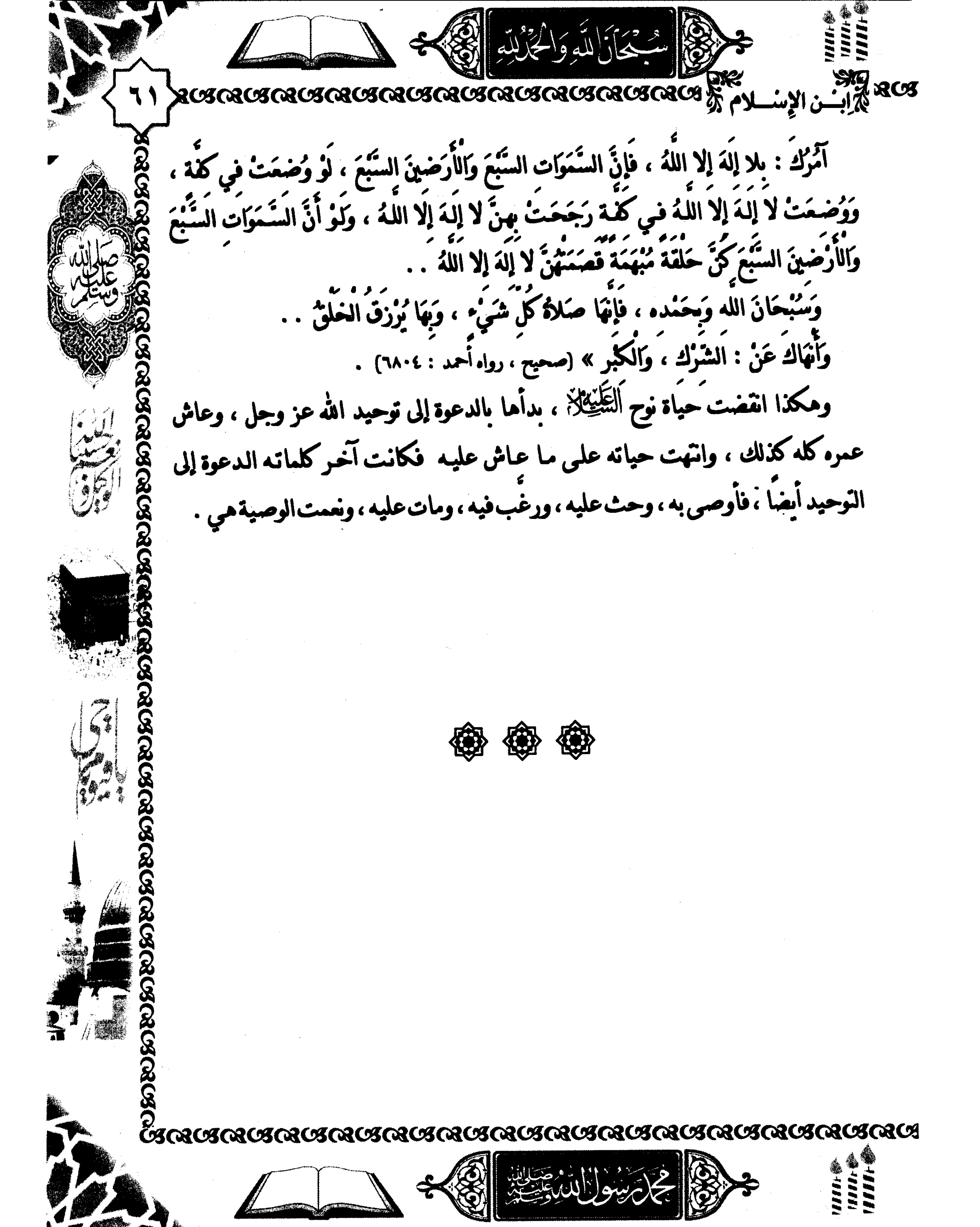
وصية نوح لأولاده

وهبط نوح عليه السلام من سفينته ، أطلق سراح الطيور والوحش فتفرقت في الأرض ، نزل المؤمنون بعد ذلك ، لتبدأ حياة جديدة فوق أرض جديدة ، بعد زوال الكفر والطغيان، حياة يملؤها النور ويملؤها الإيمان .

ولا ندري كيف استكمل نوح عليه السلام حياته على الأرض ، ولكنه عاش نبيًا رسولا ، يعلم من نجا معه من المؤمنين ويربيهم ويعظهم ، حتى أتاه الموت ، وكانت وصيته الخاتمة :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ نَبِيَّ اللهِ نُوحًا عليه السلام لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لابْنِهِ : إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ : آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكَ عَنْ اثْنَتَيْنِ :



آمُرُكَ : بِلا إِلَهَ إِلا اللهُ ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ ، لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ ، وَوُضِعَتْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ فِي كِفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِنَّ لا إِلَهَ إِلا اللهُ ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً قَصَمَتْهُنَّ لا إِلَهَ إِلا اللهُ . .

وَسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ ، فَإِنَّهَا صَلاةُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَبِهَا يُرْزَقُ الْخَلْقُ . .

وَأَنْهَاكَ عَنْ : الشِّرْكِ ، وَالْكِبْرِ » (صحيح ، رواه أحمد : ٦٨٠٤) .

وهكذا انقضت حياة نوح عليه السلام ، بدأها بالدعوة إلى توحيد الله عز وجل ، وعاش عمره كله كذلك ، وانتهت حياته على ما عاش عليه فكانت آخر كلماته الدعوة إلى التوحيد أيضاً ، فأوصى به ، وحث عليه ، ورغب فيه ، ومات عليه ، ونعمت الوصية هي .



من فوائد القصة

١. الغلو في الصالحين ذريعة تقود إلى الشرك بالله .

٢. الرفق واللين وحسن الخلق مفاتيح لقلوب الناس .

٣. أساس كل دعوة وأصل كل رسالة توحيد الله جل جلاله والأمر بعبادته وحده .

٤. لابد لكل من يدعو الناس إلى الخير أن يحصل له نوع من الإيذاء ، سواء بالسخرية أو الاستهزاء أو غير ذلك من أساليب أهل الباطل ، ولكن لا تهزم دعوة الحق أبدًا بالأذى .

٥. الكون كله مسخر لأمر الله ، مذعن لحكمه ، ولا يشذ مخلوق أبدًا عن تدبيره سبحانه .

٦. أتباع الأنبياء هم الأقلون عددًا ، الأضعف حالا ، لكنهم عند الله أعلى الخلق قدرًا وأشرفهم مكانة ، وهم الناجون ، وسواهم هالكون معذبون .

٧. أوثق الأواصر والصلات في الإسلام هي الولاء في الله ، فأحق الناس بالحب والموالاة أكثرهم بالحق تمسكًا ، وأحقهم بالبغض من كفر بالله ، ولو كان ابنًا أو زوجة .

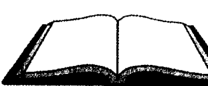
٨. كل امرئ حجيج نفسه ، رهين عمله، لا يفيده نسبه وأصله إن فقد الإيمان : « مَنْ بَطأَ به عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ به نَسَبُهُ » (صحيح مسلم : ٢٦٩٩)، نوح عليه السلام لم تنفع به زوجته ولا ولده ، إبراهيم عليه السلام لم ينتفع أبوه بقرابته ، ومحمد ﷺ لم ينتفع أبو طالب بقرابته .

٩. عاقبة الصبر الفرج والنصر من الله ، وعلى قدر الصبر يرتفع الأجر .

١٠. خطورة الصور والتماثيل ، ومن أجل ذلك حرمها الله تعالى ، ولا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب أو صورة .

ومرت السنون والدهور ، وسنة الله في خلقه أن يرسل في كل أمة رسولا بشيرًا ونذيرًا يذكرهم حكم الله وقضاءه ، وأوامره ونواهيه ، ويعلمهم عبادته ، فكان بعد نوح عليه السلام:













هود عليه السلام

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾

عودة الشرك إلى الأرض

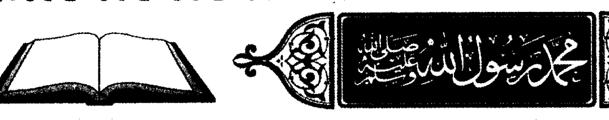
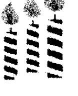
بعد أن نجّى الله من آمن مع نوح عليه السلام ، عمروا الأرض بعد أن ذهبت المياه ، فكان كل من على الأرض في ذلك الوقت من المؤمنين ، لم يكن بينهم كافرٌ واحد ، فبدأت حياة جديدة بعد الطوفان ، وعاش الذين نجوا من الطوفان في إيمان بقدرة الله سبحانه وتعالى ، يشكرونه على فضله ونعمته ، ويشرحون تعاليم الدين للأبناء والأحفاد، ويقصون ما حدث للكافرين ، وكيف غرقوا مع الطوفان .

ومرت سنوات وسنوات ، وأتي موعد تحقيق وعد الله لنوح عليه السلام :

﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

مات الآباء والأبناء وجاء أبناء الأبناء، ونسي الناس وصية نوح عليه السلام، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « وَجَحَدَ آدَمُ ، فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وَنَسِيَ ، فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ »(صحيح ، سبق تخريجه)، ثم بعد تطاول الزمان وكثرة المعاصي ، تفاقم الأمر حتى عاد الناس إلى الشرك ، وعادت عبادة الأصنام ، انحرف الناس عن عبادة الله وحده ، وتم الأمر بنفس الخدعة القديمة ، أنساهم الشيطان ذكر الله ، وانحرفت النفوس الآثمة عن طريق الحق والنور ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

قال أحفاد قوم نوح عليه السلام : لا نريد أن ننسى آباءنا الذين نجاهم الله من الطوفان ، وصنعوا للناجين تماثيل ليذكروهم بها .

وتطور هذا التعظيم جيلا بعد جيل ، فإذا الأمر ينقلب إلىٰ العبادة ، وإذا بالتماثيل تتحول بمكر من الشيطان إلىٰ آلهة تُعبد مع الله ، وعادت الأرض تشكو من الظلام مرة ثانية ، والله سبحانه وتعالى قال :

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ [سورة الليل : ١٢-١٣]

فأرسل الله سيدنا هودًا عليه السلام إلىٰ قومه يهديهم إلىٰ الله سبحانه وتعالى .

وتلك عاد قوم هود

كان هود عليه السلام من قبيلة اسمها عاد ، وكانت هذه القبيلة تسكن مكانًا يسمى الأحقاف في اليمن ، بين عمان وحضرموت ، وهي صحراء تمتلئ بالرمال ، وتطل علىٰ البحر ، أما مساكنهم فكانت خيامًا كبيرة لها أعمدة شديدة الضخامة والارتفاع ، وكان قوم عاد أقوى أهل زمانهم في ضخامة الأجسام ، والطول والشدة ، كانوا عمالقة وأقوياء ، فكانوا يتفاخرون بقوتهم ، كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم :

﴿قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾

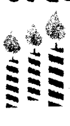
لم يكن في زمانهم أحد في قوتهم ، ورغم ضخامة أجسامهم ، كانت لهم عقول مظلمة، كانوا يعبدون الأصنام ، ويدافعون عنها ، ويحاربون من أجلها ، ويتهمون نبيهم ويسخرون منه ، وكان المفروض ، ما داموا قد اعترفوا أنهم أشد الناس قوة ، أن يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ، غير أنهم كانوا لا يبصرون غير كبريائهم وغطرستهم .

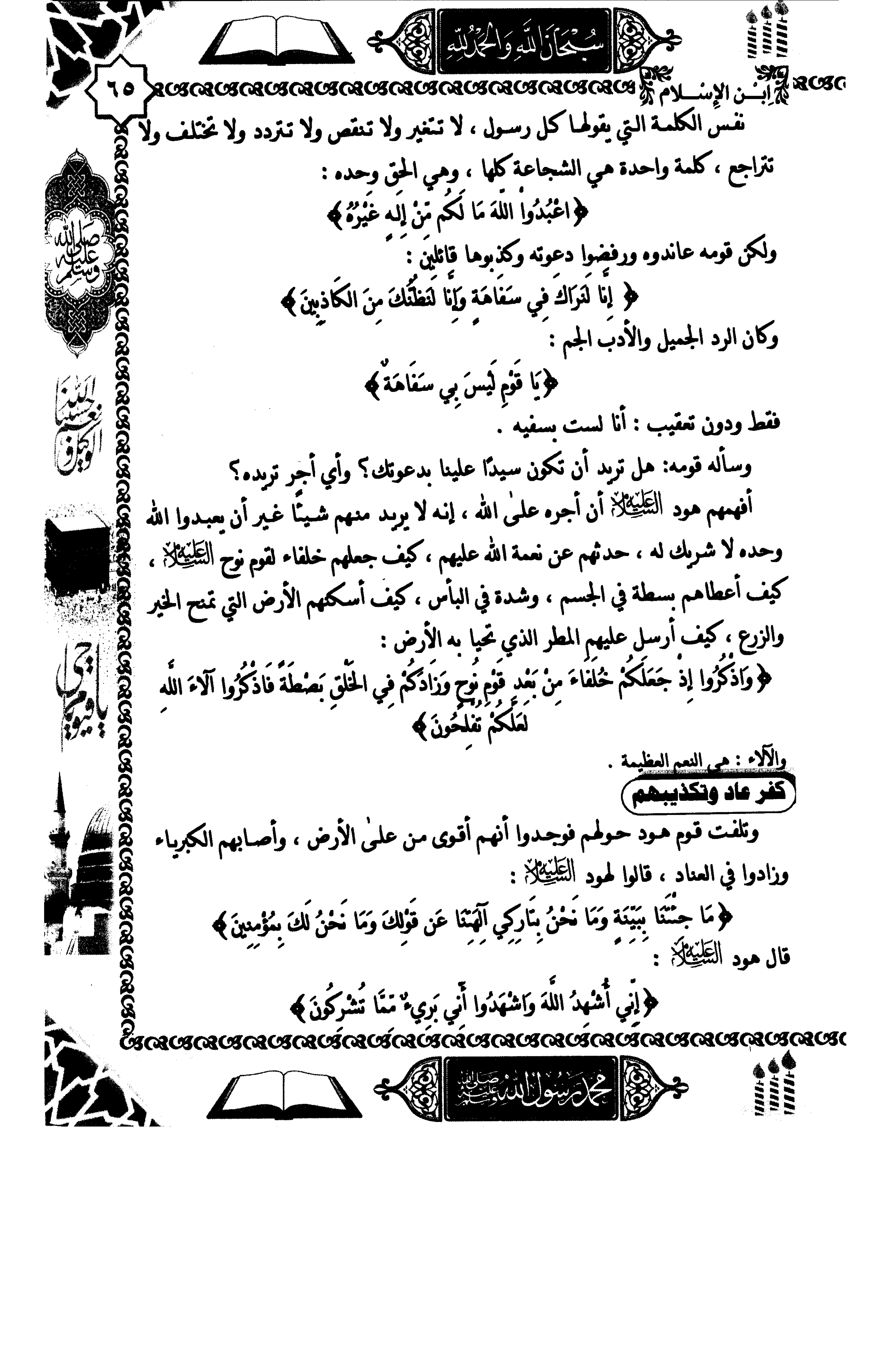
﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [سورة فصلت : ١٥] .

هود عليه السلام داعية التوحيد

قال لهم هود عليه السلام :

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾



نفس الكلمة التي يقولها كل رسول ، لا تتغير ولا تنقص ولا تتردد ولا تختلف ولا تتراجع ، كلمة واحدة هي الشجاعة كلها ، وهي الحق وحده :

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾

ولكن قومه عاندوه ورفضوا دعوته وكذبوها قائلين :

﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

وكان الرد الجميل والأدب الجم :

﴿ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ﴾

فقط ودون تعقيب : أنا لست بسفيه .

وسأله قومه: هل تريد أن تكون سيدًا علينا بدعوتك؟ وأي أجر تريده؟

أفهمهم هود عليه السلام أن أجره على الله ، إنه لا يريد منهم شيئًا غير أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ، حدثهم عن نعمة الله عليهم ، كيف جعلهم خلفاء لقوم نوح عليه السلام ، كيف أعطاهم بسطة في الجسم ، وشدة في البأس ، كيف أسكنهم الأرض التي تمنح الخير والزرع ، كيف أرسل عليهم المطر الذي تحيا به الأرض :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

والآلاء : هي النعم العظيمة .

كفر عاد وتكذيبهم

وتلفت قوم هود حولهم فوجدوا أنهم أقوى من على الأرض ، وأصابهم الكبرياء وزادوا في العناد ، قالوا لهود عليه السلام :

﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

قال هود عليه السلام :

﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

حدثهم هود عليه السلام بهذا كله فاستمعوا إليه وكذبوه :

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾

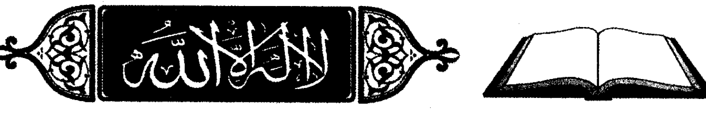
هكذا كذب قوم هود نبيهم ، قالوا له : هيهات هيهات ، واستغربوا أن يبعث الله من في القبور ، استغربوا أن يعيد الله خلق الإنسان بعد تحوله إلىٰ التراب ، رغم أنه خلقه من قبل من التراب .

أعداء الرسل هم الملأ المترفون

لنتدبر قليلا في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ ﴾ ، الملأ هم الرؤساء ، سنرى هؤلاء الملأ في كل قصص الأنبياء ، سنرى رؤساء القوم وأغنياءهم ومترفيهم يقفون ضد الأنبياء، يصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ من مواقع الثراء والغنى والترف يولد الحرص علىٰ استمرار المصالح الخاصة ، ومن مواقع الثراء والغنى والترف والرياسة ؛ يولد الكبرياء .

ويلتفت الرؤساء في القوم إلىٰ أنفسهم ويتساءلون : أليس هذا النبي بشرًا مثلنا ، يأكل مما نأكل ، ويشرب مما نشرب؟ بل لعله بفقره يأكل أقل مما نأكل ، ويشرب في أكواب صدئة ، ونحن نشرب في أكواب الذهب والفضة ، كيف يدعي أنه علىٰ الحق ونحن علىٰ الباطل؟ ! هذا بشر ، كيف نطيع بشرًا مثلنا ؟ ! ثم ، لماذا اختار الله بشرًا من بيننا ليوحيَ إليه؟ قال رؤساء قوم هود: أليس غريبًا أن يختار الله من بيننا بشرًا يوحيَ إليه؟ !

تساءل هود عليه السلام : ما الغريب في ذلك؟ إن الله الرحيم بكم قد أرسلني إليكم لأحذركم ، وقصة نوح عليه السلام ليست ببعيدة عنكم ، لا تنسوا ما حدث ، لقد هلك الذين كفروا بالله ، وسيهلك الذين يكفرون بالله دائمًا ، مهما كانوا أقوياء .







قال رؤساء قوم هود : من الذي سيهلكنا يا هود ؟

قال هود : الله جل جلاله .

قال الكافرون من قوم هود : ستنجينا آلهتنا .

وأفهمهم هود أن هذه الآلهة التي يعبدونها لتقربهم من الله ، هي نفسها التي تبعدهم عن الله، أفهمهم أن الله هو وحده الذي ينجي الناس ، وأن أي قوة أخرى في الأرض لا تستطيع أن تضر أو تنفع.

واستمر الصراع بين هود وقومه ، وكلما استمر الصراع ومرت الأيام ، زاد قوم هود استكبارًا وعنادًا وطغيانًا وتكذيبًا لنبيهم ، وبدأوا يتهمون هودًا عليه السلام بأنه سفيه مجنون.

قالوا له يومًا : لقد فهمنا الآن سر جنونك ، إنك تسب آلهتنا وقد غضبت آلهتنا عليك ، وآذتك وأصابتك بمرض الجنون :

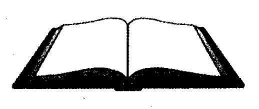
﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [سورة هود : ٥٣-٥٤] .

انظروا للسذاجة التي وصل إليها تفكيرهم ، إنهم يظنون أن هذه الحجارة لها سلطانٌ على من صنعها ، لها تأثير على الإنسان مع أنها لا تسمع ولا ترى ولا تنطق ، والإنسان هو الذي صنعها بيديه ، ويحطمها بيديه ، ما أعجز الإنسان ! وما أضل العقل إذا كفر بالله !

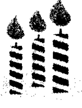
ثقة هود عليه السلام بربه

لم يتوقف هود عليه السلام عند هذيانهم ، ولم يغضبه أن يظنوا به الجنون والهذيان ، ولكنه توقف عند قولهم :

﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾







بعد هذا التحدي لم يبق لهود إلا التحدي ، لم يبق له إلا التوجه إلى الله سبحانه وتعالى وحده ، لم يبق أمامه إلا إنذار أخير ينطوي على وعيد للمكذبين وتهديد لهم ، وتحدى هود عليه السلام قومه فقال :

﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سورة هود : ٥٤-٥٧] .

رجل واحد يواجه قومًا غلاظًا شدادًا وحمقى ، يتصورون أن أصنام الحجارة تستطيع الإيذاء ، إنسان بمفرده يقف ضد جبارين فيُسفه عقيدتهم ، ويتبرأ منهم ومن آلهتهم . .

بل ويتحداهم أن يكيدوا له بغير إبطاء أو إمهال ، فهو على استعداد لتلقي كيدهم ، وهو على استعداد لحربهم فقد توكل على الله ، والله سبحانه وتعالى هو القوي بحق ، وهو الآخذ بناصية كل دابة في الأرض ، سواء الدواب من الناس أو دواب الوحوش أو الحيوان ، لا شيء يعجز الله سبحانه وتعالى .

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾

بهذا الإيمان بالله ، والثقة بوعده ، والاطمئنان إلى نصره ، يخاطب هود عليه السلام الذين كفروا من قومه ، وهو يفعل ذلك رغم وحدته وضعفه ؛ لأنه يقف مع الحق ، ويُبلغ عن الله سبحانه وتعالى ، وهو في حديثه يُفهم قومه أنه أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، فإن كفروا فسوف يستخلف الله قومًا غيرهم ، سوف يستبدل بهم قومًا آخرين ، وهذا معناه أن عليهم أن ينتظروا العذاب .

وهكذا أعلن هود عليه السلام لهم براءته منهم ومن آلهتهم ، وتوكل على الله الذي خلقه ، وأدرك أن العذاب واقع بمن كفر من قومه ، هذا قانون من قوانين الحياة ، يعذب الله عز وجل الذين كفروا ، مهما كانوا أقوياء ، أو أغنياء ، أو جبابرة ، أو عمالقة .

﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾





عاقبة الكافرين ونهاية المستكبرين

انتظر هود عليه السلام وانتظر قومه وعد الله سبحانه وتعالى ، وبدأ الجفاف في الأرض ، لم تعد السماء تمطر قطرة واحدة، وهرع قوم هود إليه، ما هذا الجفاف ياهود؟ قال هود عليه السلام: إن الله عليكم غضبان ، وإذا آمنتم واستغفرتم الله سبحانه وتبتم إليه ، ورجعتم عن عبادة الأصنام إلى عبادة الله وحده ؛ فسوف يرضى الله عنكم ويرسل المطر فيزيدكم قوة إلىٰ قوتكم :

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾

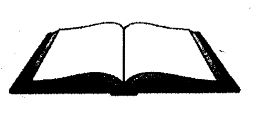
وسخر قوم هود عليه السلام منه وزادوا في العناد والسخرية والكفر ، وزاد الجفاف ، واصفرت الأشجار الخضراء ومات الزرع ، وجاء يوم فإذا سحاب عظيم يملأ السماء ، وفرح قوم هود وخرجوا من بيوتهم يقولون :

﴿ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾

فقال هود عليه السلام :

﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

تغير الجو فجأة ، من الجفاف الشديد والحر إلىٰ البرد الشديد القارس ، بدأت الرياح تهب ، اهتز كل شيء ، اهتزت وتزلزلت الأشجار والنباتات والرجال والنساء والخيام ، واستمرت الريح ، ليلة بعد ليلة ، ويومًا بعد يوم ، كل ساعة كانت برودتها تزداد ، وبدأ قوم هود يفرون ، أسرعوا إلىٰ الخيام واختبئوا داخلها ، اشتد هبوب الرياح واقتلعت الخيام، واختبئوا تحت الأغطية ، فاشتد هبوب الرياح وتطايرت الأغطية ، كانت الرياح تمزق الملابس وتمزق الجلد وتنفذ من فتحات الجسم وتدمره ، لا تكاد الريح تمس شيئًا إلا قتلته ودمرته ، وجعلته كالرميم .





استمرت الرياح مسلطة عليهم سبع ليال وثمانية أيام لم تر الدنيا مثلها قط ، ثم توقفت الريح بإذن ربها ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [سورة الأحقاف : ٢٤-٢٥] .

وقال عز وجل :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [سورة القمر : ١٨-٢٠]

لم يعد باقيًا من قوم هود إلا ما يبقى من النخل الميت ، مجرد غلاف خارجي لا تكاد تضع يدك عليه حتى يتطاير ذرات في الهواء .

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾

نجاة هود والمؤمنين

نجا هود عليه السلام ومن آمن معه ، وهلك الجبابرة ، وهذه نهاية عادلة لمن يتحدى الله عز وجل ويستكبر عن عبادته .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾

هكذا دومًا للمتكبرين العذاب والطرد في الدنيا والآخرة ، ودومًا وعد الله المؤمنين يتحقق بالنجاة والنصر في الدنيا ، والفوز بالجنة في الآخرة .















١- إذا غابت الدعوة غاب العلم ، وإذا غاب العلماء غلبت المعاصي والبدع والشرك ، ولولا أصحاب المحابر لخطب الزنادقة علىٰ المنابر ، فإذا تعطلت الدعوة في مكان نبتت فيه حشائش وآفات العصيان ، فلا تغفل عن الدعوة إلىٰ الله سبحانه وتعالى لحظة .

٢- ميزان الرجولة : الإيمان والفهم ، لا بجحم وقوة الجسم ، أخبر سبحانه وتعالى عن المنافقين فقال : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [سورة المنافقون : ٤] ، فاغنم الإيمان وحصّل الفهم ؛ تكن رجلاً .

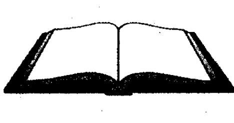
٣- الكبر يتولد من مواقع الترف والغنى والرياسة ، وهو طاغوت يصد عن الحق ، ويصرف عن الهدى والعلم ، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، فإياك أن تتكبر .

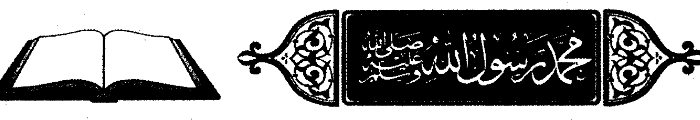
٤- القضية الأولى في حياة كل إنسان وفي حياة البشر هي التوحيد ، وهو أول دعوة الرسل وأصل رسالتهم .

٥- من وثق بربه زاده الله ثقة وسدده ونصره ، فاحفظ الله تجده تجاهك .

٦- عاقبة الذنوب وخيمة ، وآثارها مؤلمة عظيمة ، والله يمهل ولا يهمل ، فإذا عذب فإنه عزيز ذو انتقام ، سريع الحساب ، شديد العقاب ، وإذا رحم كانت رحمته خيرًا من كل شيء .

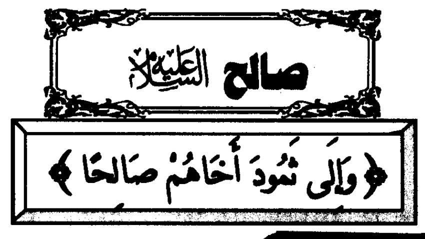
٧- الله ينجي أولياءه ويحفظهم ، ولا يكلهم أبدًا لأعدائه ، فكن لله وليًا ، تكن بالله عزيزًا قويًا .











صالح عليه السلام

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾



قوم ثمود : وصف ديارهم ، وحالهم

مرت أيام وأيام ، وتعاقبت الشهور والسنوات ، وجاء بعد قوم عاد قوم ثمود في شمال الجزيرة العربية بين الحجاز وتبوك ، اتخذت قبيلة ثمود وطنًا لها في منطقة تسمى : الحجر .

وأنعم الله على قبيلة ثمود بالكثير من النعم والخيرات ، فعاشوا في مكان يظلله النخيل والأشجار ، ظهرت فيه الكثير من العيون ، فأصبحوا في ترف ونعيم ، فأقاموا القصور الفخمة في السهول ، ونحتوا البيوت الفارهة في الجبال .

كان يمكن لقوم ثمود العيش في سعادة لا حدود لها لولا أمر واحد : كانت ثمود قبيلة تعبد الأصنام هي الأخرى ، لقد كفروا بالنعم الغالية التي منحها الله لهم ، وضلوا عن الحق ، فأرسل الله سيدنا صالحًا عليه السلام إليهم .



صالح يدعو قومه إلى التوحيد

كان سيدنا صالح عليه السلام رجلا معروفًا في قومه بالحكمة والعقل والطهر والنقاء ، وكان قومه يحبونه ويحترمونه، وكذلك دائمًا ستجد كل الأنبياء، فقال صالح عليه السلام لقومه:

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

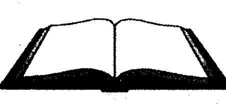


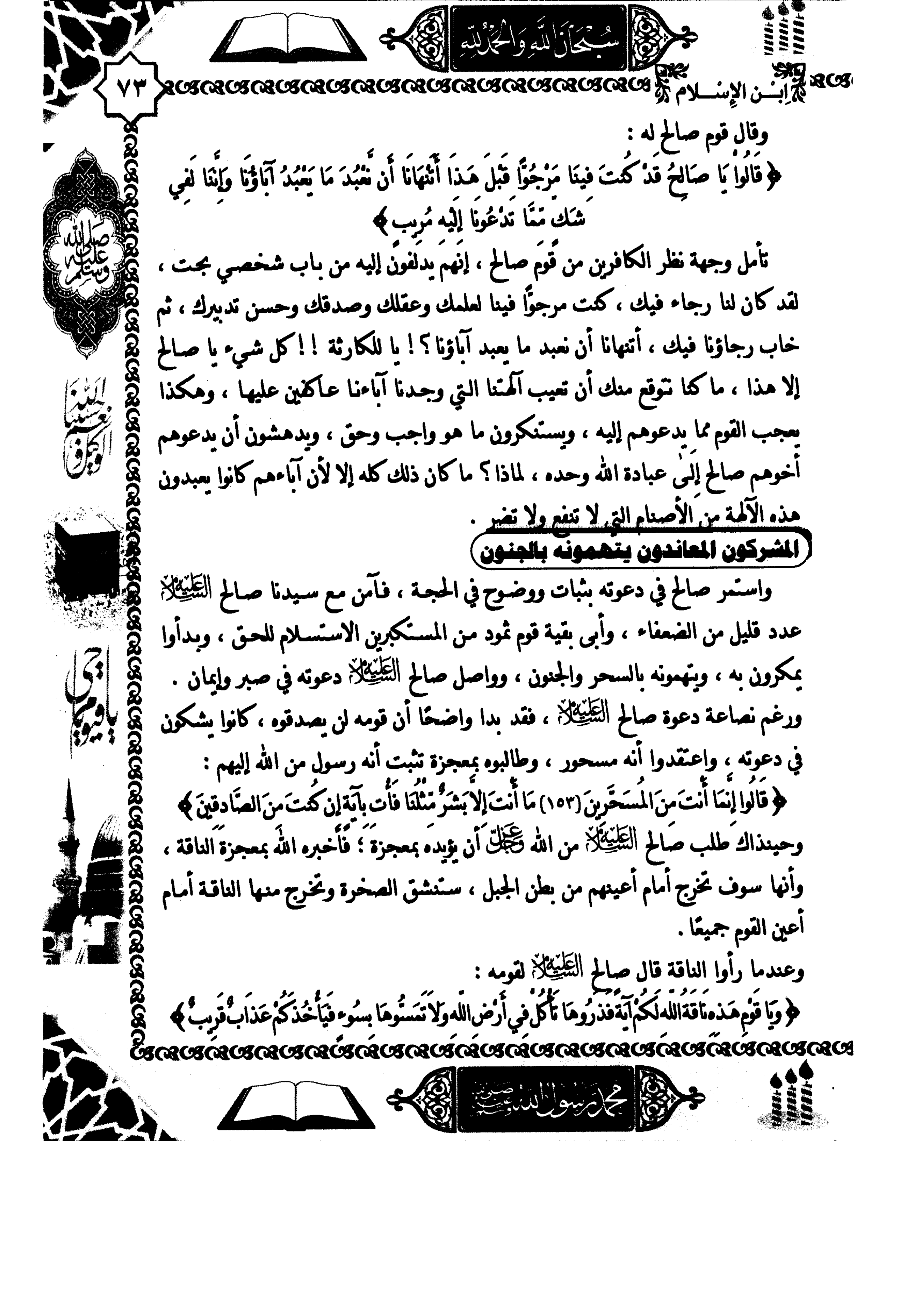
نفس الكلمة التي يقولها كل نبي ، لا تتبدل ولا تتغير ، كما أن الحق لا يتبدل ولا يتغير ، فوجئ الكبار من قوم صالح بما يقوله ، إنه يتهم آلهتهم بأنها بلا قيمة ، وهو ينهاهم عن عبادتها ويأمرهم بعبادة الله وحده ، وأحدثت دعوته هزة كبيرة في المجتمع ، وكان صالح عليه السلام معروفًا بالحكمة والطيبة والخير ، كان قومه يحترمونه قبل أن يوحي الله إليه ويرسله بالدعوة إليهم .











وقال قوم صالح له :

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

تأمل وجهة نظر الكافرين من قوم صالح ، إنهم يدلفون إليه من باب شخصي بحت ، لقد كان لنا رجاء فيك ، كنت مرجوًّا فينا لعلمك وعقلك وصدقك وحسن تدبيرك ، ثم خاب رجاؤنا فيك ، أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ ! يا للكارثة ! ! كل شيء يا صالح إلا هذا ، ما كنا نتوقع منك أن تعيب آلهتنا التي وجدنا آباءنا عاكفين عليها ، وهكذا يعجب القوم مما يدعوهم إليه ، ويستنكرون ما هو واجب وحق ، ويدهشون أن يدعوهم أخوهم صالح إلى عبادة الله وحده ، لماذا ؟ ما كان ذلك كله إلا لأن آباءهم كانوا يعبدون هذه الآلهة من الأصنام التي لا تنفع ولا تضر .

المشركون المعاندون يتهمونه بالجنون

واستمر صالح في دعوته بثبات ووضوح في الحجة ، فآمن مع سيدنا صالح عليه السلام عدد قليل من الضعفاء ، وأبى بقية قوم ثمود من المستكبرين الاستسلام للحق ، وبدأوا يمكرون به ، ويتهمونه بالسحر والجنون ، وواصل صالح عليه السلام دعوته في صبر وإيمان . ورغم نصاعة دعوة صالح عليه السلام ، فقد بدا واضحًا أن قومه لن يصدقوه ، كانوا يشكون في دعوته ، واعتقدوا أنه مسحور ، وطالبوه بمعجزة تثبت أنه رسول من الله إليهم :

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

وحينذاك طلب صالح عليه السلام من الله عز وجل أن يؤيده بمعجزة ؛ فأخبره الله بمعجزة الناقة ، وأنها سوف تخرج أمام أعينهم من بطن الجبل ، ستنشق الصخرة وتخرج منها الناقة أمام أعين القوم جميعًا .

وعندما رأوا الناقة قال صالح عليه السلام لقومه :

﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾







واعلم - أيها الابن الحبيب - أن هؤلاء الناس حين يطلبون دليلا أو معجزة ، فهم يطلبونها فقط للتعجيز ، أو للاستهزاء ، أو لتضييع الوقت ، وإلا فالكلام الذي يناسب الفطرة لا يحتاج إلى معجزات ، فانظر حين رأوا هذه المعجزة المبهرة كيف كان تصرفهم ؟ هل آمنو ؟ . . أبدًا . . . إنها المراوغة .

معجزة نبي الله صالح عليه السلام

والآية هي المعجزة ، والناقة كانت معجزة لماذا ؟ :

- لأن صخرة بالجبل انشقت يومًا وخرجت منها الناقة أمام أعينهم ، ها هي ولدت من غير الطريق المعروف للولادة ، معجزة؛ لأن الله أخرجها من الصخر فلم تولد كبقية النوق .
- وكانت معجزة ؛ لأنها كانت تشرب المياه الموجودة في الآبار في يوم فلا تقترب بقية الحيوانات من المياه في هذا اليوم .
- وكانت معجزة ؛ لأنها كانت تدر لبنًا يكفي لشرب الناس جميعًا في هذا اليوم الذي تشرب فيه الماء فلا يبقى شيء للناس من الماء ، ويشربون بدلا منه اللبن الذي تدره لهم .

كانت هذه الناقة معجزة فعلًا ، وصفها الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ نَاقَةُ اللهِ ﴾ أضافها لنفسه عز وجل إضافة تشريف ، بمعنى أنها ليست ناقة عادية ؛ وإنما هي معجزة من الله عز وجل ، وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى صالح عليه السلام أن يأمر قومه بعدم المساس بالناقة أو إيذائها أو قتلها ، أمرهم أن يتركوها تأكل في أرض الله ، وألا يمسوها بسوء ، وحذرهم أنهم إذا مدوا أيديهم بالأذى للناقة فسوف يأخذهم عذاب قريب ، إنه تحذير شديد :




﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ ، ووعيد أكيد : ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ .

في البداية تعاظمت دهشة ثمود حين ولدت الناقة من صخور الجبل ، كانت ناقة مباركة ، كان لبنها يكفي آلاف الرجال والنساء والأطفال ، كان واضحًا أنها ليست مجرد ناقة عادية ؛ وإنما هي آية من الله ، وعاشت الناقة بين قوم صالح ، آمن منهم من آمن

وبقي أغلبهم على العناد والكفر ، وذلك لأن الكفار عندما يطلبون من نبيهم آية ، فلا يكون ذلك لأنهم يريدون التأكد من صدقه والإيمان به ؛ وإنما لتحديه وإظهار عجزه أمام البشر ، لكن الله كان يخذلهم بتأييد أنبيائه بمعجزات من عنده ، ومع ذلك لا يؤمنون ! !

تكذيب ثمود وإعراضهم

وتحولت الكراهية عن سيدنا صالح عليه السلام إلى الناقة المباركة ، تركزت عليها الكراهية ، وبدأت المؤامرة تنسج خيوطها ضد الناقة ، كره الكافرون هذه الآية العظيمة ، ودبروا في أنفسهم أمرًا .

إن صالحًا عليه السلام يحدث قومه برفق وحب ، وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وينبههم إلى أن الله قد أخرج لهم معجزة هي الناقة ، دليلا على صدقه وبينة على دعوته، وهو يرجو منهم أن يتركوا الناقة تأكل في أرض الله ، وكل الأرض أرضُ الله ، وهو يحذرهم أن يمسوها بسوء خشية وقوع عذاب الله عليهم ، كما ذكرهم بإنعام الله عليهم: بأنه جعلهم خلفاء من بعد قوم عاد ، وأنعم عليهم بالقصور ، والجبال المنحوتة ، والنعيم ، والرزق ، والقوة ، لكن قومه تجاوزوا كلماته وتركوه ، واتجهوا إلى الذين آمنوا بصالح : يسألونهم سؤال استخفاف وازدراء : ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ ؟!

قالت الفئة الضعيفة التي آمنت بصالح : ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ .

فأخذت الذين كفروا العزة بالإثم : ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ، هكذا باحتقار واستعلاء وغضب ، يظهرون حقيقة امتناعهم عن الإيمان ، إنهم كفروا عنادًا فيمن آمن ، واحتقارًا لمن آمن : ﴿إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ .

مؤتمر للمكر بالدعوة

وفي إحدى الليالي ، انعقدت جلسة لكبار القوم ، ودار حوار بينهم :

﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾

وهم يتحدثون ويتشاورون ، أمرهم واحد منهم بالسكوت ، وقال : ليس هناك غير حل واحد ، يجب أن نقتل الناقة وبعدها نقتله هو .

لكن أحدهم قال : حذرنا صالح من المساس بالناقة ، وهددنا بالعذاب القريب ، فقال أحدهم سريعًا قبل أن يؤثر كلام من سبقه علىٰ عقول القوم : أعرف من يجرؤ علىٰ قتل الناقة .

تناقلوا الاسم بينهم في سرور واضح ، ذلك جبار من جبابرة المدينة ، رجل يعيث فسادًا في الأرض ، الويل لمن يعترضه ، تساءلوا : من يساعده علىٰ القتل ؟ فقيل : إن له زملاء في المدينة :

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾

إنهم عصابة الفساد والإفساد ، ورفض الصلاح والإصلاح ، وتولى المفسدون في الأرض المهمة :

تنفيذ جريمة ذبح الناقة

اتفقوا على موعد الجريمة ومكان التنفيذ ، وفي الليلة المحددة ، وبينما كانت الناقة المباركة تنام في سلام ، انتهى المجرمون التسعة من إعداد أسلحتهم وسيوفهم وسهامهم ، لارتكاب الجريمة .

﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾

وانطلق الرجال التسعة الأشرار في مهمتهم ، وبحثوا عن الناقة حتى وجدوها قادمة من البئر ، فرماها أحدهم بسهم أصاب ساقها ، وهلل الجميع في حماس ، وهجم عليها رجل آخر بسيفه ، فسقطت الناقة أرضًا ، فانقض عليها وذبحها ، امتدت الأيدي الآثمة القاتلة إلىٰ الناقة ، وسالت دماء الناقة علىٰ الأرض ؛ فحُقَّ علىٰ أهل الأرض العذاب .

سفاهة ثمود

علم النبي صالح عليه السلام بما حدث فخرج غاضبًا علىٰ قومه ، قائلًا لهم :

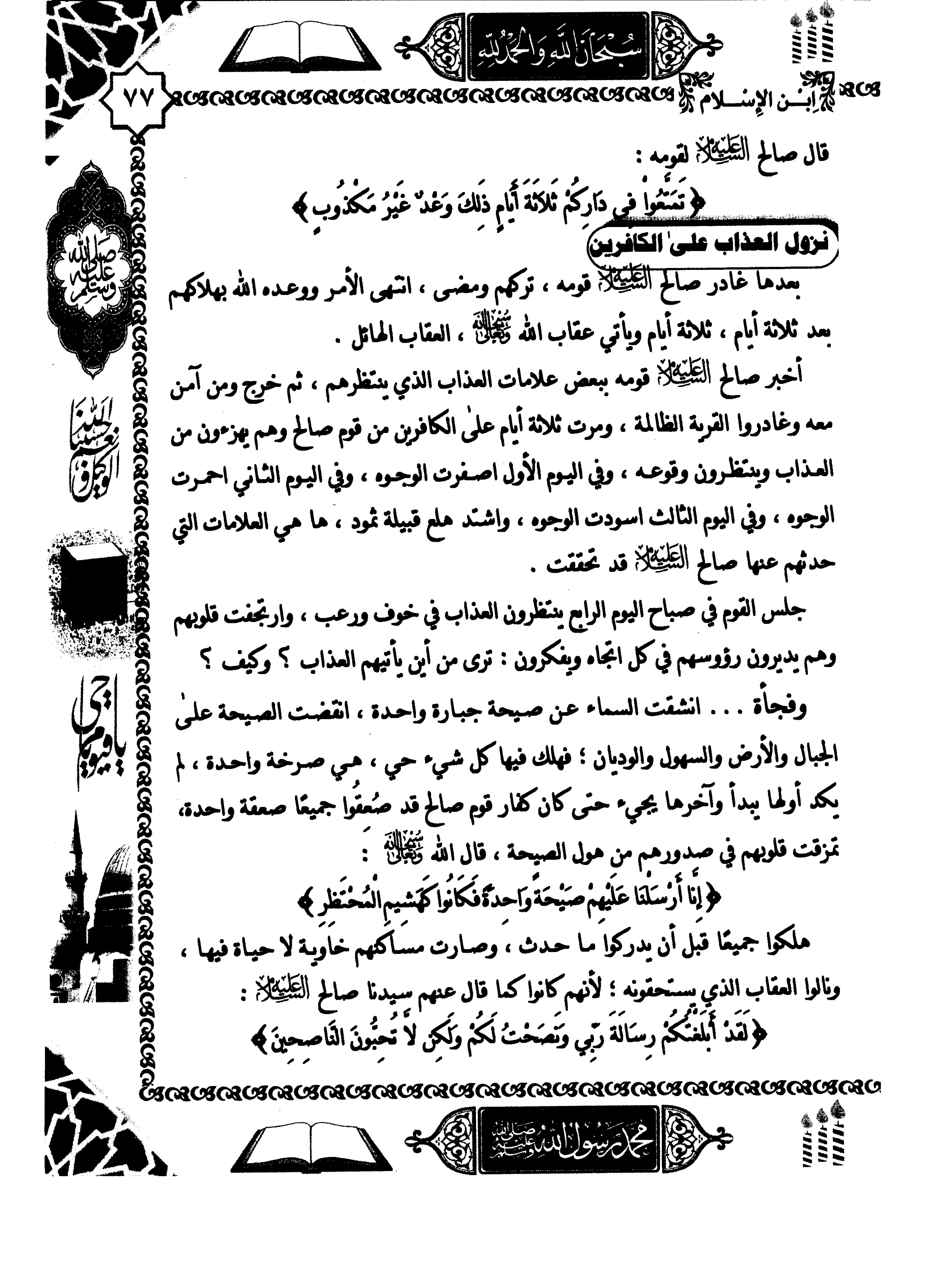
ألم أحذركم من أن تمسوا الناقة ؟

ولكنهم سخروا منه ، وتهكموا عليه ، ولم يصدقوا العذاب الذي ينتظرهم ، وتمادوا في جرأتهم فقالوا : قتلناها فأتنا بالعذاب واستعجله ، ألم تقل : إنك من المرسلين؟

﴿ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾







قال صالح عليه السلام لقومه :

﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾

نزول العذاب على الكافرين

بعدها غادر صالح عليه السلام قومه ، تركهم ومضى ، انتهى الأمر ووعده الله بهلاكهم بعد ثلاثة أيام ، ثلاثة أيام ويأتي عقاب الله سبحانه وتعالى ، العقاب الهائل .

أخبر صالح عليه السلام قومه ببعض علامات العذاب الذي ينتظرهم ، ثم خرج ومن آمن معه وغادروا القرية الظالمة ، ومرت ثلاثة أيام على الكافرين من قوم صالح وهم يهزءون من العذاب وينتظرون وقوعه ، وفي اليوم الأول اصفرت الوجوه ، وفي اليوم الثاني احمرت الوجوه ، وفي اليوم الثالث اسودت الوجوه ، واشتد هلع قبيلة ثمود ، ها هي العلامات التي حدثهم عنها صالح عليه السلام قد تحققت .

جلس القوم في صباح اليوم الرابع ينتظرون العذاب في خوف ورعب ، وارتجفت قلوبهم وهم يديرون رؤوسهم في كل اتجاه ويفكرون : ترى من أين يأتيهم العذاب ؟ وكيف ؟

وفجأة . . . انشقت السماء عن صيحة جبارة واحدة ، انقضت الصيحة على الجبال والأرض والسهول والوديان ؛ فهلك فيها كل شيء حي ، هي صرخة واحدة ، لم يكد أولها يبدأ وآخرها يجيء حتى كان كفار قوم صالح قد صُعِقُوا جميعًا صعقة واحدة، تمزقت قلوبهم في صدورهم من هول الصيحة ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾

هلكوا جميعًا قبل أن يدركوا ما حدث ، وصارت مساكنهم خاوية لا حياة فيها ، ونالوا العقاب الذي يستحقونه ؛ لأنهم كانوا كما قال عنهم سيدنا صالح عليه السلام :

﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾

أما الذين آمنوا بسيدنا صالح ، فكانوا قد غادروا المكان مع نبيهم ونجوا، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [سورة هود : ٦٦-٦٨] .

نعم . . . جاءهم الخزي والعذاب ، وانتصر الله سبحانه لنبيه من الأعداء الكافرين، وهكذا دومًا . . الخزي والبعد والعذاب لمن خذل دين الله ، واتبع هواه ، والنصر والعز لمن آمن بالرسل ، وصدق مع الله ، فكن صالحًا تكن عزيزًا . .



من فوائد القصة

١. بالشكر تزيد النعم وتكثر ، وبالكفر تمحق وتذهب .
٢. الاتهامات الفارغة هي حيلة أعداء الرسل والأنبياء في كل وقت ، فإن لم توجد عندهم الحجة لجأوا إلى الاتهامات الساذجة الكاذبة .
٣. الله يؤيد رسله بمعجزات تثبتهم وتكبت أعداءهم ، وهذا دليل على أن الله على كل شيء قدير .
٤. من رضي بالمعصية فهو عاص ، ومن أمر بالجريمة فهو شريك فيها .
٥. للشيطان جنود وأعوان يتآمرون بالباطل ، يوحي إليهم الشيطان بحيله ، ويلقي عليهم خططه ؛ لينفذوها ويصدوا عن سبيل الله .
٦. إياك والغرور والكبر ، اسمع وأطع والتزم الحق وإن جاءك من أقل الناس .

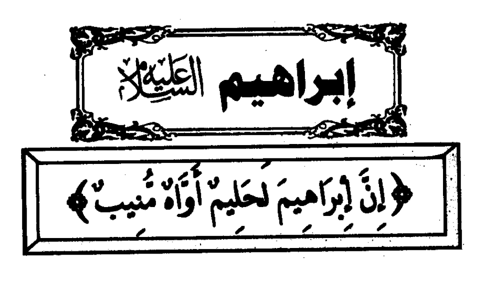












إبراهيم عليه السلام

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾

إبراهيم الخليل

هو أحد أولي العزم الخمسة الكبار الذين أخذ الله منهم ميثاقًا غليظًا ، وهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم السلام ، بترتيب بعثتهم ، وهو النبي الذي ابتلاه الله ببلاء مبين ، كان بلاء فوق قدرة البشر وطاقة الأعصاب، ورغم حدة الشدة ، وعظمة البلاء، كان إبراهيم عليه السلام هو العبد الذي وفى ، وزاد على الوفاء بالإحسان .

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

هو خليل الله ، اصطفاه الله برسالته وفضله على كثير من خلقه :

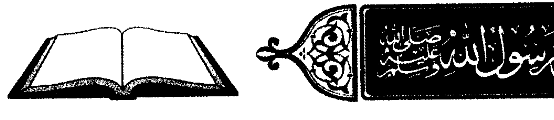
﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « تُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ، وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ » (صحيح البخاري : ٤٤٦٣) .

فضل إبراهيم عليه السلام

ولو مضينا نبحث في فضل إبراهيم عليه السلام وتكريم الله له فسوف نمتلئ بالدهشة :

- نحن أمام بشر جاء ربه بقلب سليم .
- إنسان لم يكد الله سبحانه وتعالى يقول له : ﴿ أَسْلِمْ ﴾ حتى قال : ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .
- نبي هو أول من سمّانا المسلمين .





- نبي أثمرت دعوته المستجابة عن بعث نبينا محمد بن عبد الله ﷺ .
- نبي كان جدًا وأبًا لكل أنبياء الله الذين جاءوا بعده .
- نبي هادئ متسامح حليم أواه منيب، قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ .

وقال عز وجل :

﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يذكر لنا ربنا ذو الجلال والإكرام أمرًا آخر أفضل من كل ما سبق ، فيقول الله عز وجل في محكم آياته :

﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ .

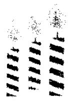
لم يرد في كتاب الله ذكر لنبي ، اتخذه الله خليلاً غير إبراهيم عليه السلام ، وإن كان نبينا محمد ﷺ قد أخبر أنه خليل الله أيضًا، قال العلماء: الخلة هي شدة المحبة .

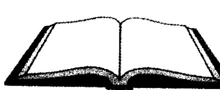
فوق هذه القمة الشامخة يجلس إبراهيم عليه السلام ، إن منتهى أمل السالكين ، وغاية هدف المحققين ، أن يحبوا الله عز وجل ، أما أن يحلم أحدهم أن يحبه الله ، أن يفرده بالحب، أن يختصه بالخلة وهي شدة المحبة ، فذلك شيء وراء آفاق التصور ، كان إبراهيم عليه السلام هو هذا العبد الرباني الذي استحق أن يتخذه الله عز وجل خليلاً.

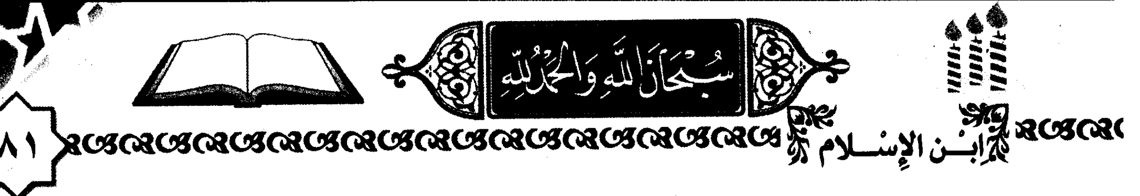
مولد الحنيفية وطفولة الخليل

إنه إبراهيم عليه السلام الذي يصل نسبه إلى سام بن نوح عليه السلام ، ولد سيدنا إبراهيم عليه السلام في بابل بين دجلة والفرات بالعراق ، وشب سيدنا إبراهيم عليه السلام بين قوم يعبدون الأصنام ، لهم ملك ظالم متكبر جبار اسمه النمرود ، وكان هذا الملك يدعي أنه إله .

كان والد سيدنا إبراهيم عليه السلام يسمى آزر ، وكان نجارًا ، وكان ممن يصنعون الأصنام ويعبدونها ، وكان كل من حوله ينحني ويسجد لهذه الأحجار والأخشاب ، ولكن سيدنا إبراهيم لم يقتنع أبدًا أنها آلهة ، لقد رفض عقله الراجح أن يصدق هذه الخرافات ، وينقاد وراء الجهل والفساد ، فمقت هذه العبادة الزائفة :





﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ ﴾

ومرت الأيام ، وكبر إبراهيم عليه السلام ، كان قلبه يمتلأ منذ طفولته بكراهية صادقة لهذه التماثيل التي يصنعها والده ، لم يكن يفهم كيف يمكن لإنسان عاقل أن يصنع بيديه تمثالا ، ثم يسجد بعد ذلك لما صنع بيديه ، لاحظ إبراهيم عليه السلام أن هذه التماثيل لا تشرب ولا تأكل ولا تتكلم ولا تستطيع أن تعتدل لو قلبها أحد على جنبها ، كيف يتصور الناس أن هذه التماثيل تضر وتنفع ؟!

عذبت هذه الفكرة إبراهيم عليه السلام طويلا ، هل يمكن أن يكون كل قومه على خطأ ، وهو وحده على الحق ؟ أليس هذا شيئًا مدهشًا ؟

كان لقوم إبراهيم معبد كبير يمتلئ بالتماثيل ، وكان في وسط المعبد محراب توضع فيه تماثيل أكبر الآلهة ، وكانت الآلهة أنواعًا وأصنافًا وأشكالا ، وكان إبراهيم يزور المعبد مع والده وهو طفل ، كان يحس باحتقار عظيم لكل هذه الأخشاب والحجارة .

وبدأت نبوة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، قال له الله عز وجل : ﴿ أَسْلِمْ ﴾ ..

وأجاب إبراهيم عليه السلام دعوة ربه : ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ..

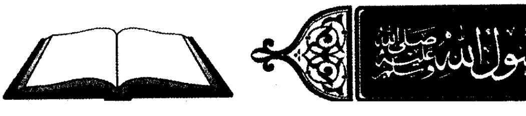
وفكر سيدنا إبراهيم في أقرب إنسان إليه يدعوه إلى عبادة الله الواحد القهار ، إنه والده ، فاتجه إليه ليبدأ جهاده في سبيل الله .

بداية الدعوة

وقف سيدنا إبراهيم عليه السلام أمام أبيه يحاوره في لطف ولين ، محاولا إقناعه بالتخلي عن عبادة الأصنام ، قال له : يا أبت ، انظر إلى هذه الأصنام ، ألا ترى أنها لا تسمع النداء ولا تجيب الدعاء ولا ترانا ؛ لأنها جماد ، حجارة وأخشاب .

واسترسل سيدنا إبراهيم محاولا إقناع أبيه قائلا :

﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾




إنه سؤال فطري صريح بمنتهى البساطة : لماذا .. لماذا تعبد هذه الأصنام ؟ ولا تجد ردًا أبدًا عند عُبَّاد الأصنام عن هذا السؤال ، كلما وجه إليهم هذا السؤال الصريح : لماذا تعبدون الأصنام ؟ تجد الجواب دائمًا الهروب والالتواء ، ولأن هذا السؤال سيثير غضب الوالد أراد إبراهيم عليه السلام أن يستثير عاطفة الأبوة للفرح بمنزلة ولده .

وأوضح سيدنا إبراهيم لأبيه أن الله سبحانه وتعالى اختاره للنبوة وللرسالة قائلا :

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾

وحذره إبراهيم عليه السلام من الشيطان ، فهو الذي يزين لهم هذا الباطل فقال :

﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾

تأمل قول إبراهيم عليه السلام في غاية الأدب والتوقير للأب : يا أبت .. يا أبت .. يا أبت . ولكن إبراهيم في واد والأب في واد آخر ، فليست عنده أجوبة صحيحة لهذه الأسئلة الصريحة ، فلم يكن إلا أن ثار الأب لجرأة إبراهيم على آلهته وقال :

﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ ؟!

وهدده الأب وتوعده بالرمي بالحجارة والطرد من المنزل قائلا :

﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾

ولكن سيدنا إبراهيم الابن البار بوالده قال له على الرغم من عناده وكفره في أدب جم :

﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾

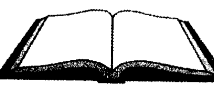
وأعلن براءته من عبادة الأصنام ، وإخلاصه في عبادة رب العالمين قائلاً :

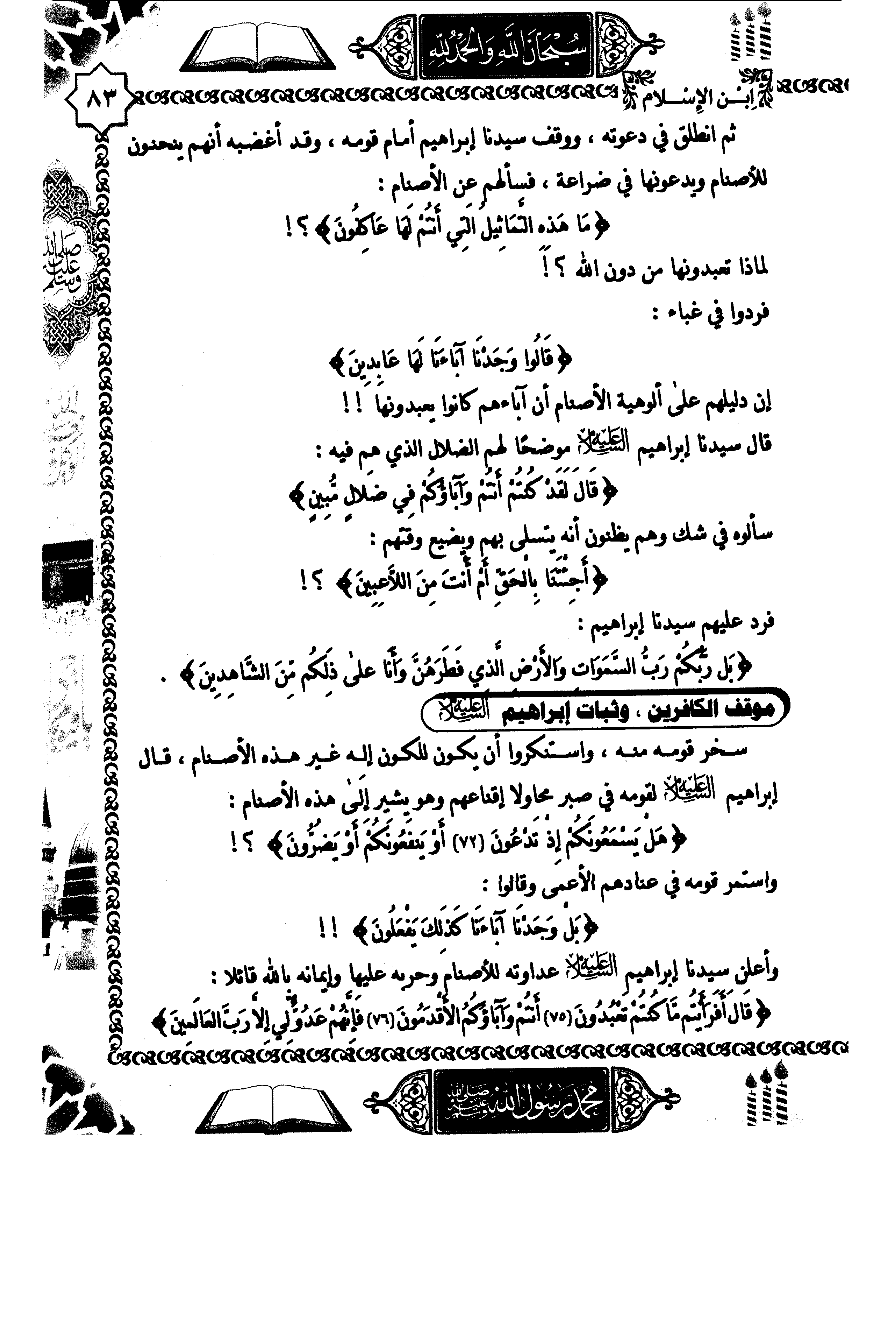
﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾

واستغفر سيدنا إبراهيم عليه السلام لوالده أملا أن يغفر الله له ذنوبه ، ولكن عندما تبين له أن والده عدو لله تبرأ منه ؛ فاستحق ثناء الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾







ثم انطلق في دعوته ، ووقف سيدنا إبراهيم أمام قومه ، وقد أغضبه أنهم ينحنون للأصنام ويدعونها في ضراعة ، فسألهم عن الأصنام :

﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ ؟!

لماذا تعبدونها من دون الله ؟!

فردوا في غباء :

﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾

إن دليلهم على ألوهية الأصنام أن آباءهم كانوا يعبدونها !!

قال سيدنا إبراهيم عليه السلام موضحًا لهم الضلال الذي هم فيه :

﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

سألوه في شك وهم يظنون أنه يتسلى بهم ويضيع وقتهم :

﴿ أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ ؟!

فرد عليهم سيدنا إبراهيم :

﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

موقف الكافرين ، وثبات إبراهيم عليه السلام

سخر قومه منه ، واستنكروا أن يكون للكون إله غير هذه الأصنام ، قال إبراهيم عليه السلام لقومه في صبر محاولا إقناعهم وهو يشير إلى هذه الأصنام :

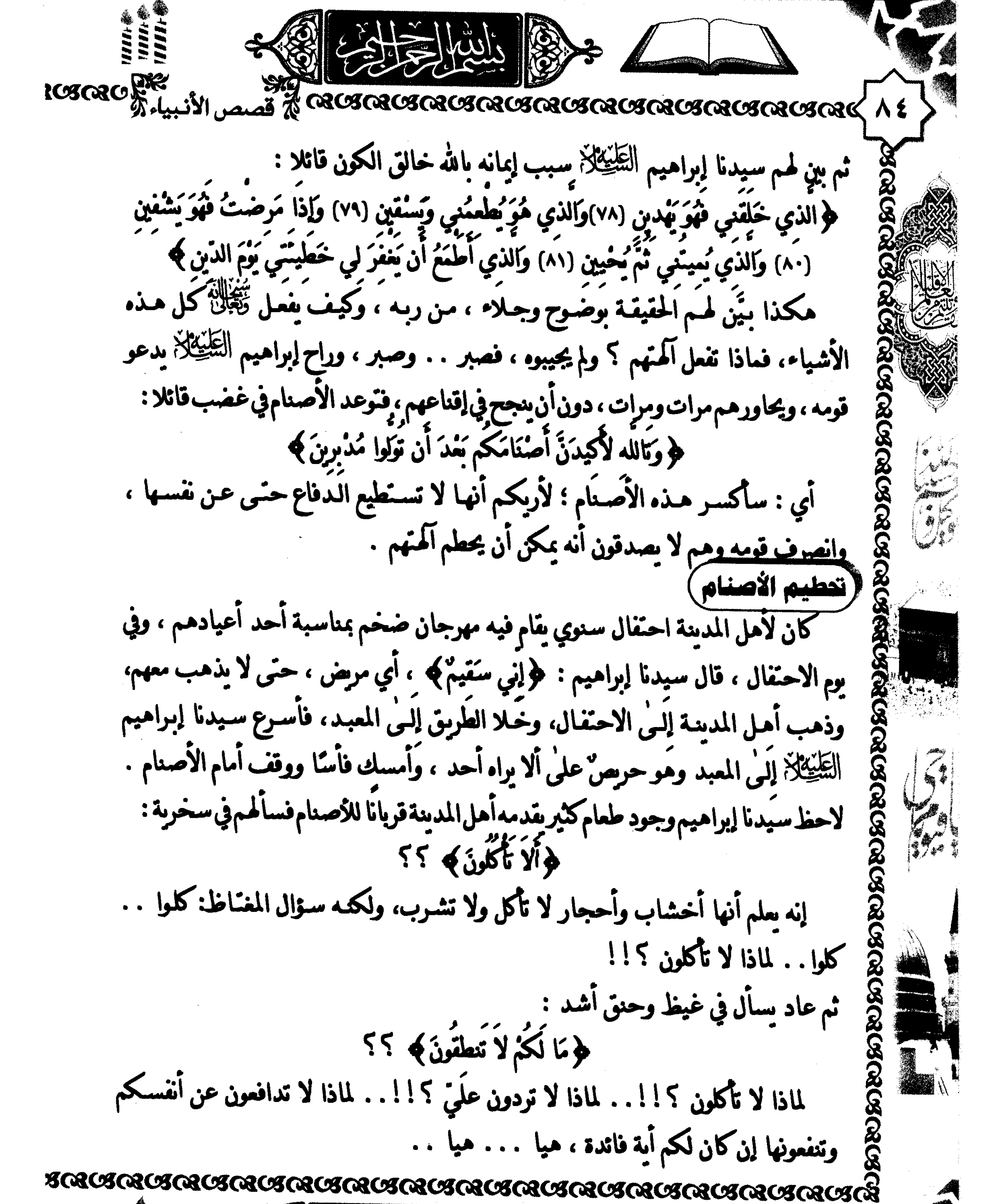
﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ ؟!

واستمر قومه في عنادهم الأعمى وقالوا :

﴿ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ !!

وأعلن سيدنا إبراهيم عليه السلام عداوته للأصنام وحربه عليها وإيمانه بالله قائلا :

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾



ثم بين لهم سيدنا إبراهيم عليه السلام سبب إيمانه بالله خالق الكون قائلا :

﴿ الذي خلقني فهو يهدين (٧٨) والذي هو يطعمني ويسقين (٧٩) وإذا مرضت فهو يشفين (٨٠) والذي يميتني ثم يحيين (٨١) والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾

هكذا بيّن لهم الحقيقة بوضوح وجلاء ، من ربه ، وكيف يفعل سبحانه وتعالى كل هذه الأشياء، فماذا تفعل آلهتهم ؟ ولم يجيبوه ، فصبر . . وصبر ، وراح إبراهيم عليه السلام يدعو قومه ، ويحاورهم مرات ومرات ، دون أن ينجح في إقناعهم ، فتوعد الأصنام في غضب قائلا :

﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾

أي : سأكسر هذه الأصنام ؛ لأريكم أنها لا تستطيع الدفاع حتى عن نفسها ، وانصرف قومه وهم لا يصدقون أنه يمكن أن يحطم آلهتهم .

تحطيم الأصنام

كان لأهل المدينة احتفال سنوي يقام فيه مهرجان ضخم بمناسبة أحد أعيادهم ، وفي يوم الاحتفال ، قال سيدنا إبراهيم : ﴿ إني سقيم ﴾ ، أي مريض ، حتى لا يذهب معهم، وذهب أهل المدينة إلى الاحتفال، وخلا الطريق إلى المعبد، فأسرع سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى المعبد وهو حريص على ألا يراه أحد ، وأمسك فأسًا ووقف أمام الأصنام .

لاحظ سيدنا إبراهيم وجود طعام كثير يقدمه أهل المدينة قربانًا للأصنام فسألهم في سخرية :

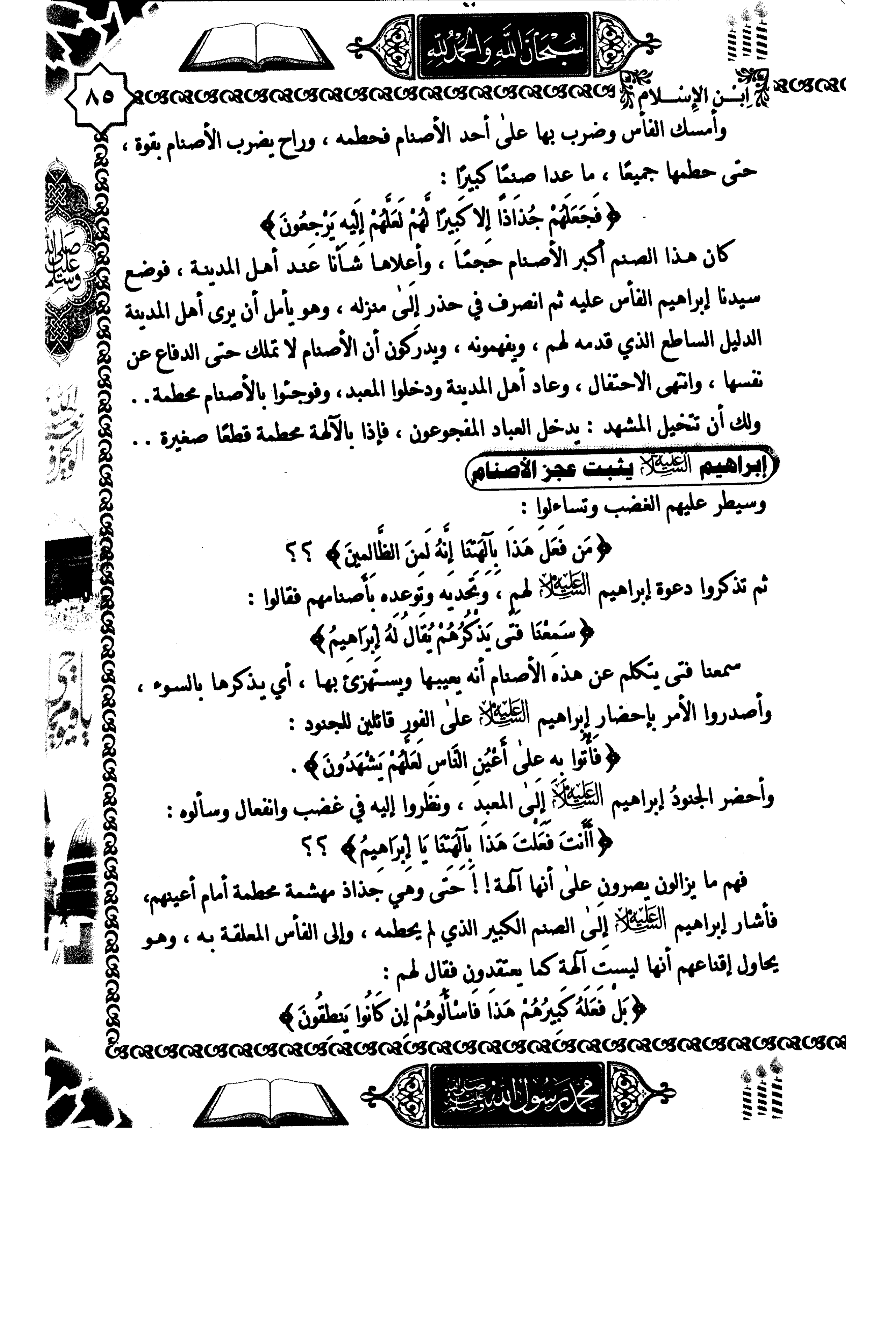
﴿ ألا تأكلون ﴾ ؟؟

إنه يعلم أنها أخشاب وأحجار لا تأكل ولا تشرب، ولكنه سؤال المغتاظ: كلوا . . كلوا . . لماذا لا تأكلون ؟!!

ثم عاد يسأل في غيظ وحنق أشد :

﴿ ما لكم لا تنطقون ﴾ ؟؟

لماذا لا تأكلون ؟!! . . لماذا لا تردون عليّ ؟!! . . لماذا لا تدافعون عن أنفسكم وتنفعونها إن كان لكم أية فائدة ، هيا . . . هيا . .



وأمسك الفأس وضرب بها علىٰ أحد الأصنام فحطمه ، وراح يضرب الأصنام بقوة ، حتى حطمها جميعًا ، ما عدا صنمًا كبيرًا :

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾

كان هذا الصنم أكبر الأصنام حجمًا ، وأعلاها شأنًا عند أهل المدينة ، فوضع سيدنا إبراهيم الفأس عليه ثم انصرف في حذر إلىٰ منزله ، وهو يأمل أن يرى أهل المدينة الدليل الساطع الذي قدمه لهم ، ويفهمونه ، ويدركون أن الأصنام لا تملك حتى الدفاع عن نفسها ، وانتهى الاحتفال ، وعاد أهل المدينة ودخلوا المعبد ، وفوجئوا بالأصنام محطمة . .

ولك أن تتخيل المشهد : يدخل العباد المفجوعون ، فإذا بالآلهة محطمة قطعًا صغيرة . .

إبراهيم عليه السلام يثبت عجز الأصنام

وسيطر عليهم الغضب وتساءلوا :

﴿ مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ؟؟

ثم تذكروا دعوة إبراهيم عليه السلام لهم ، وتحديه وتوعده بأصنامهم فقالوا :

﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾

سمعنا فتى يتكلم عن هذه الأصنام أنه يعيبها ويستهزئ بها ، أي يذكرها بالسوء ، وأصدروا الأمر بإحضار إبراهيم عليه السلام علىٰ الفور قائلين للجنود :

﴿ فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ .

وأحضر الجنودُ إبراهيم عليه السلام إلىٰ المعبد ، ونظروا إليه في غضب وانفعال وسألوه :

﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ ؟؟

فهم ما يزالون يصرون علىٰ أنها آلهة ! ! حتى وهي جذاذ مهشمة محطمة أمام أعينهم، فأشار إبراهيم عليه السلام إلىٰ الصنم الكبير الذي لم يحطمه ، وإلى الفأس المعلقة به ، وهو يحاول إقناعهم أنها ليست آلهة كما يعتقدون فقال لهم :

﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾

وفكر القوم : لقد تحطمت الآلهة ، وكبيرهم لا يستطيع الدفاع عنهم ، إنها أحجار لا تنطق ولا تبصر ، ولا تملك القدرة علىٰ الدفاع حتى عن نفسها ، فكيف يعبدونها إذاً ؟ !

لقد ظلموا أنفسهم بعبادة هذه الأحجار :

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

اعترفوا عندما فاجأهم إبراهيم عليه السلام بالدليل القوي ، ولكنهم سرعان ما ارتدوا إلىٰ الضلال ، استكبروا أن يكونوا من المخطئين ، وهذا الفتى يكون صادقاً ، لم تكن إلا ومضة واحدة أعقبها الظلام ، وإلا خفقة واحدة عادت بعدها قلوبهم إلىٰ الخمود .

تكبروا وتملكهم العناد ، لم يعترفوا بتفاهة عقولهم وضيق أفقهم ، فقالوا له في إصرار :

﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾

فغضب سيدنا إبراهيم وقال لهم :

﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

قال : إذا كنتم تعلمون وأعلم أنهم لا يسمعون ولا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرون ، بدليل أنهم لم يدافعوا عن أنفسهم، فلماذا تعبدونهم؟ ! أين عقولكم؟ ! . . أين عقولكم؟ !

الكيد لنبي الله وإلقاؤه في النار

وثار القوم ، وراحوا يفكرون في وسيلة لعقاب إبراهيم عليه السلام ، حتى اهتدوا إلىٰ شيء رهيب ، أن يحرقوه في النار ، وصدر الحكم القاسي الظالم :

﴿ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾

وبدأوا يستعدون لإحراق سيدنا إبراهيم عليه السلام . .

انتشر النبأ في المملكة كلها، وجاء الناس من القرى والجبال والمدن ؛ ليشهدوا عقاب الذي تجرأ علىٰ الآلهة وحطمها واعترف بذلك وسخر من الكهنة ، وحفروا حفرة عظيمة ملأوها بالحطب والخشب والأشجار ، وأشعلوا فيها النار ، وأحضروا المنجنيق وهو آلة







جبارة ؛ ليقذفوا إبراهيم فيها فيسقط في حفرة النار ، ووضعوا إبراهيم بعد أن قيدوا يديه وقدميه في المنجنيق ، واشتعلت النار في الحفرة وتصاعد اللهب إلى السماء ، وكان الناس يقفون بعيدًا عن الحفرة من فرط الحرارة اللاهبة ، وأصدر كبير الكهنة أمره بإطلاق إبراهيم في النار.

جاء جبريل عليه السلام ووقف عند رأس إبراهيم عليه السلام وسأله: يا إبراهيم ، ألك حاجة؟

قال إبراهيم عليه السلام : أما إليك فلا .

قال له جبريل عليه السلام : فاسأل ربك .

فرد عليه سيدنا إبراهيم عليه السلام : الله يعلم حالي .

لم يقل إبراهيم عليه السلام سوى كلمة واحدة عظيمة وهو يلقى به في النيران: حسبنا الله ونعم الوكيل.

إنجاء الله وحفظه له

انطلق المنجنيق ملقيًا إبراهيم عليه السلام في حفرة النار ، كانت النار موجودة في مكانها ، ولكنها لم تكن تمارس وظيفتها في الإحراق ، فقد أمر الله عز وجل النار :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾

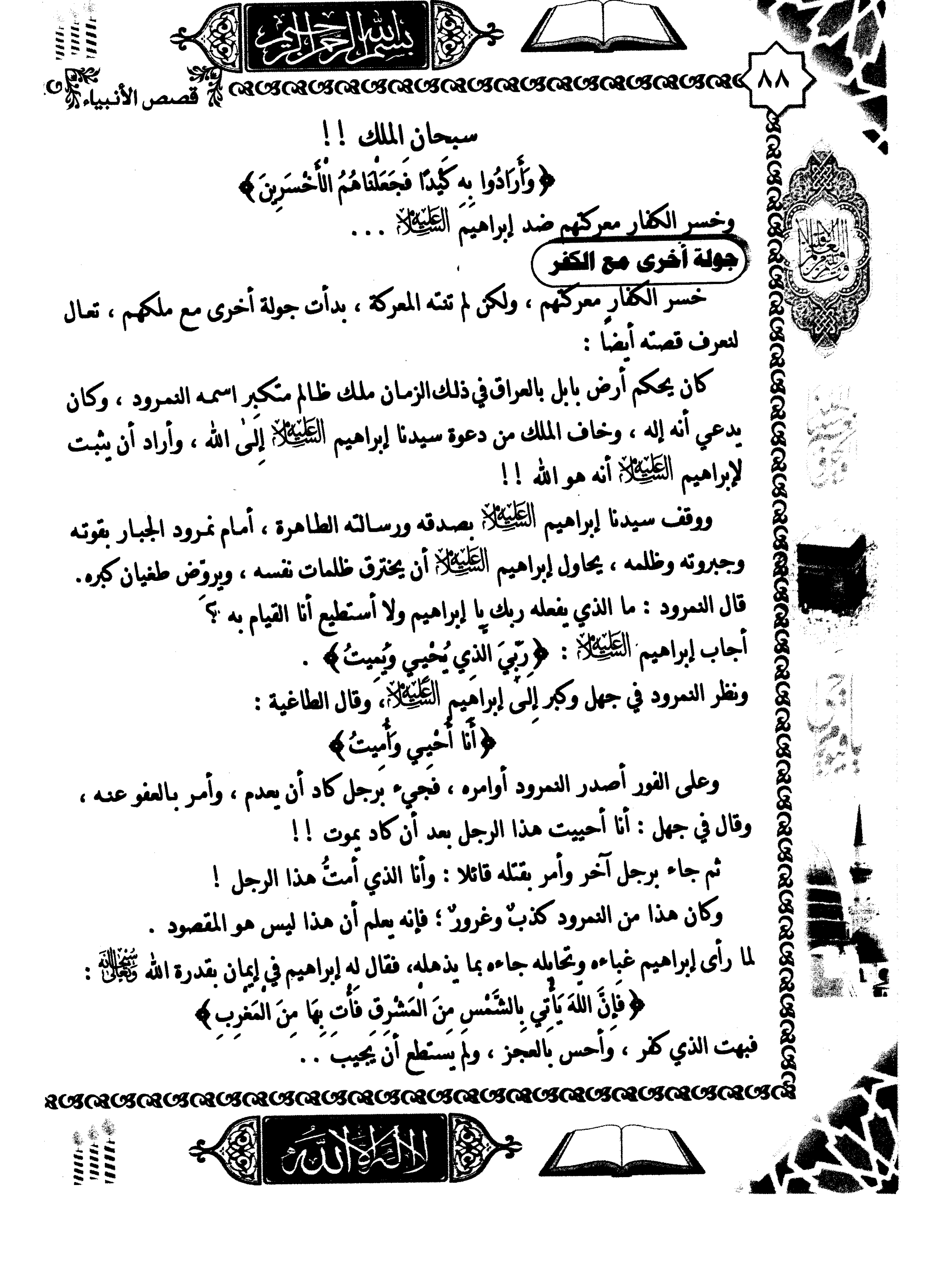
أطاعت النار فكانت ﴿ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، أحرقت قيوده فقط ، وجلس إبراهيم عليه السلام وسطها كأنه يجلس وسط حديقة ، كان يسبح بحمد ربه ويمجده ، لم يكن في قلبه مكان خال يمكن أن يمتلئ بالخوف أو الرهبة أو الجزع ، كان القلب مليئًا بالحب وحده ، ومات الخوف ، وتلاشت الرهبة ، واستحالت النار إلى سلام بارد يلطف عنه حرارة الجو.

وظلت النار تشتعل فترة طويلة حتى ظن الكافرون أنها لن تنطفئ أبدًا ، فلما انطفأت فوجئوا بإبراهيم يخرج من الحفرة سليمًا كما دخل ! !

وجوههم مسودة من دخان الحريق ، ووجهه يتلألأ بالنور والجلال ! !

ثيابهم احترق نصفها بسبب ما تساقط عليها من الأخشاب الملتهبة ، وثيابه كما هي لم تحترق ! !

عليهم أثر الدخان والحريق ، وليس عليه أي أثر للدخان أو الحريق ! !



سبحان الملك !!

﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾

وخسر الكفار معركتهم ضد إبراهيم عليه السلام . . .

جولة أخرى مع الكفر

خسر الكفار معركتهم ، ولكن لم تنته المعركة ، بدأت جولة أخرى مع ملكهم ، تعال لنعرف قصته أيضاً :

كان يحكم أرض بابل بالعراق في ذلك الزمان ملك ظالم متكبر اسمه النمرود ، وكان يدعي أنه إله ، وخاف الملك من دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى الله ، وأراد أن يثبت لإبراهيم عليه السلام أنه هو الله !!

ووقف سيدنا إبراهيم عليه السلام بصدقه ورسالته الطاهرة ، أمام نمرود الجبار بقوته وجبروته وظلمه ، يحاول إبراهيم عليه السلام أن يخترق ظلمات نفسه ، ويروّض طغيان كبره.

قال النمرود : ما الذي يفعله ربك يا إبراهيم ولا أستطيع أنا القيام به ؟

أجاب إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ .

ونظر النمرود في جهل وكبر إلى إبراهيم عليه السلام، وقال الطاغية :

﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾

وعلى الفور أصدر النمرود أوامره ، فجيء برجل كاد أن يعدم ، وأمر بالعفو عنه ، وقال في جهل : أنا أحييت هذا الرجل بعد أن كاد يموت !!

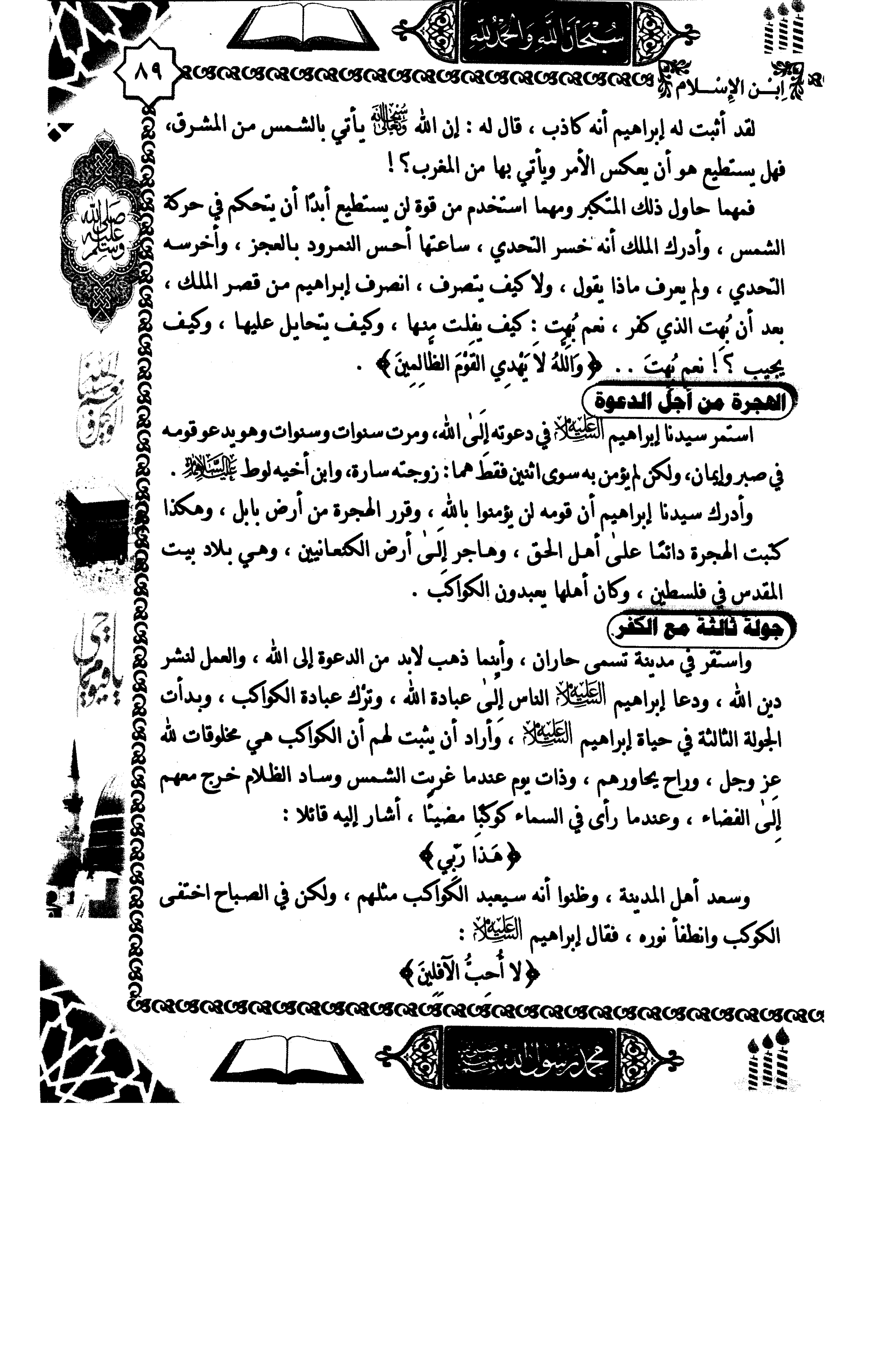
ثم جاء برجل آخر وأمر بقتله قائلا : وأنا الذي أمتُّ هذا الرجل !

وكان هذا من النمرود كذبٌ وغرورٌ ؛ فإنه يعلم أن هذا ليس هو المقصود .

لما رأى إبراهيم غباءه وتحامله جاءه بما يذهله، فقال له إبراهيم في إيمان بقدرة الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾

فبهت الذي كفر ، وأحس بالعجز ، ولم يستطع أن يجيب . .



لقد أثبت له إبراهيم أنه كاذب ، قال له : إن الله سبحانه وتعالى يأتي بالشمس من المشرق، فهل يستطيع هو أن يعكس الأمر ويأتي بها من المغرب؟ !

فمهما حاول ذلك المتكبر ومهما استخدم من قوة لن يستطيع أبدًا أن يتحكم في حركة الشمس ، وأدرك الملك أنه خسر التحدي ، ساعتها أحس النمرود بالعجز ، وأخرسه التحدي ، ولم يعرف ماذا يقول ، ولا كيف يتصرف ، انصرف إبراهيم من قصر الملك ، بعد أن بُهت الذي كفر ، نعم بُهت : كيف يفلت منها ، وكيف يتحايل عليها ، وكيف يجيب ؟! نعم بُهتَ .. ﴿ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

الهجرة من أجل الدعوة

استمر سيدنا إبراهيم عليه السلام في دعوته إلى الله، ومرت سنوات وسنوات وهو يدعو قومه في صبر وإيمان، ولكن لم يؤمن به سوى اثنين فقط هما : زوجته سارة، وابن أخيه لوط عليه السلام .

وأدرك سيدنا إبراهيم أن قومه لن يؤمنوا بالله ، وقرر الهجرة من أرض بابل ، وهكذا كتبت الهجرة دائمًا على أهل الحق ، وهاجر إلى أرض الكنعانيين ، وهي بلاد بيت المقدس في فلسطين ، وكان أهلها يعبدون الكواكب .

جولة ثالثة مع الكفر

واستقر في مدينة تسمى حاران ، وأينما ذهب لابد من الدعوة إلى الله ، والعمل لنشر دين الله ، ودعا إبراهيم عليه السلام الناس إلى عبادة الله ، وترك عبادة الكواكب ، وبدأت الجولة الثالثة في حياة إبراهيم عليه السلام ، وأراد أن يثبت لهم أن الكواكب هي مخلوقات لله عز وجل ، وراح يحاورهم ، وذات يوم عندما غربت الشمس وساد الظلام خرج معهم إلى الفضاء ، وعندما رأى في السماء كوكبًا مضيئًا ، أشار إليه قائلا :

﴿ هَذَا رَبِّي ﴾

وسعد أهل المدينة ، وظنوا أنه سيعبد الكواكب مثلهم ، ولكن في الصباح اختفى الكوكب وانطفأ نوره ، فقال إبراهيم عليه السلام :

﴿ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾



وفي الليلة الثانية عندما ظهر القمر وبزغ نوره قال سيدنا إبراهيم :

﴿هَذَا رَبِّي﴾

واختفى القمر في الصباح ، فقال إبراهيم عليه السلام :

﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾

وراح يشرح لقومه أنه لن يعبد إلها يظهر ثم يختفي ، يضيء ثم ينطفئ ، هذا لا يمكن أن يكون إلها ، وفي الصباح رأى الشمس ساطعة ، فأشار إليها قائلا :

﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾

ولم يدرك قومه غرضه إلا بعد أن غربت الشمس وتوارت وراء الأفق ، فقال سيدنا إبراهيم :

﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

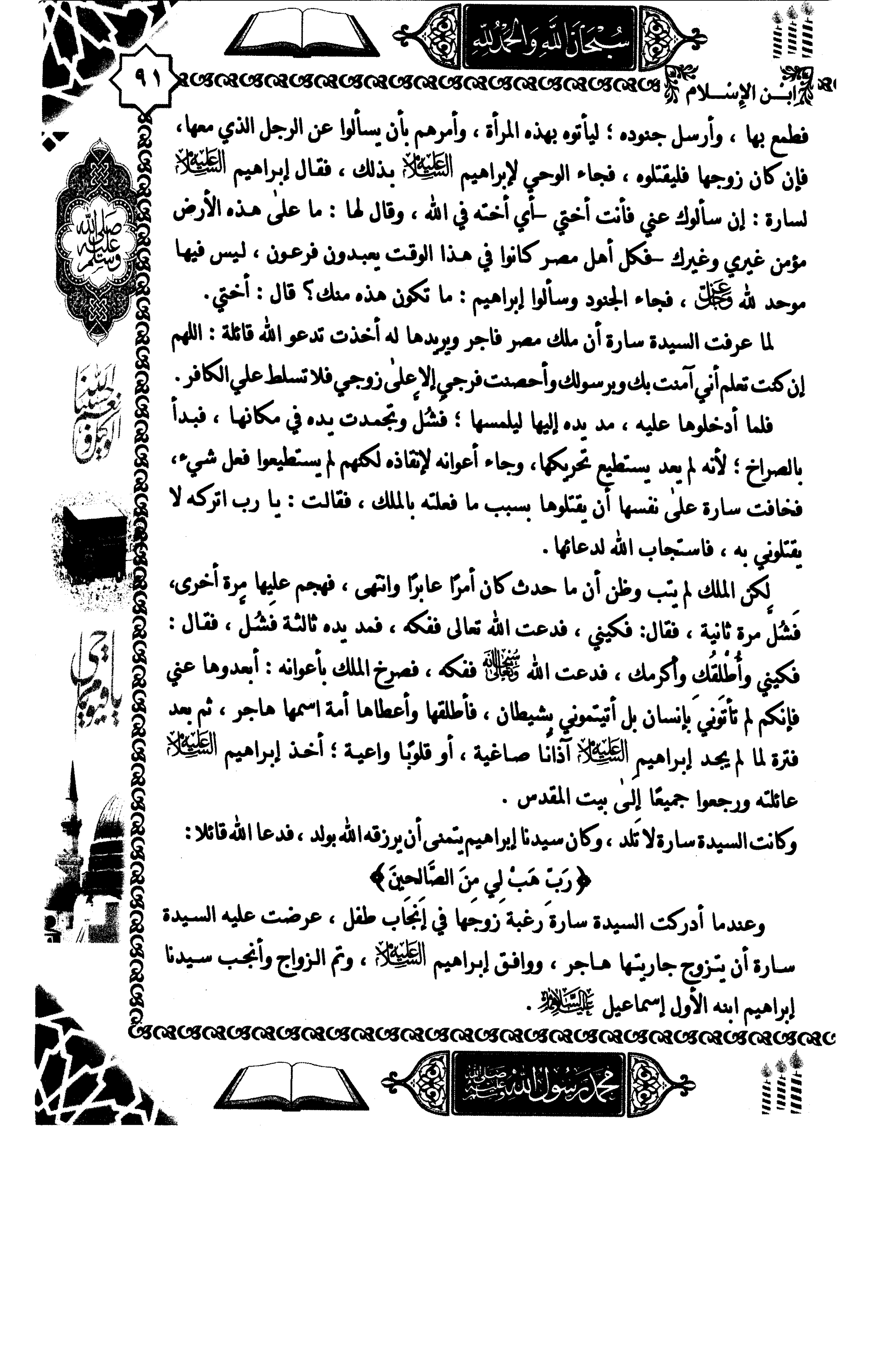
أعلن لقومه أن هذه الكواكب مجرد مخلوقات أبدعها الخالق عز وجل ، ودعاهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى بعد أن أثبت لهم أن الكواكب ليست آلهة ، وهدده عبدة النجوم والكواكب ، وحاولوا بث الخوف في قلبه .

قالوا له : إن آلهتهم ستنتقم منه وتؤذيه ، ولكنه وقف يدافع عن الحق قائلا :

﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

أنتم الذين يجب أن تخافوا ؛ لأنكم أشركتم بالله ، أما أنا فلن يصيبني شيء إلا بأمر الله عز وجل ، واستمر إبراهيم عليه السلام في دعوته إلى الله ، ثم لما لم يجد آذانا صاغية لدعوته قرر الهجرة إلى مصر ؛ لعله يهتدي به أحد من أهلها .

وصل سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى مصر ، ومعه زوجته السيدة سارة ، وسرعان ما وصلت الأخبار لملك مصر بوصول رجل إلى مصر معه امرأة هي أجمل نساء الأرض ،



فطمع بها ، وأرسل جنوده ؛ ليأتوه بهذه المرأة ، وأمرهم بأن يسألوا عن الرجل الذي معها، فإن كان زوجها فليقتلوه ، فجاء الوحي لإبراهيم عليه السلام بذلك ، فقال إبراهيم عليه السلام لسارة : إن سألوك عني فأنت أختي -أي أخته في الله ، وقال لها : ما على هذه الأرض مؤمن غيري وغيرك -فكل أهل مصر كانوا في هذا الوقت يعبدون فرعون ، ليس فيها موحد لله عز وجل ، فجاء الجنود وسألوا إبراهيم : ما تكون هذه منك؟ قال : أختي.

لما عرفت السيدة سارة أن ملك مصر فاجر ويريدها له أخذت تدعو الله قائلة : اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط علي الكافر.

فلما أدخلوها عليه ، مد يده إليها ليلمسها ؛ فشُل وتجمدت يده في مكانها ، فبدأ بالصراخ ؛ لأنه لم يعد يستطيع تحريكها، وجاء أعوانه لإنقاذه لكنهم لم يستطيعوا فعل شيء، فخافت سارة على نفسها أن يقتلوها بسبب ما فعلته بالملك ، فقالت : يا رب اتركه لا يقتلوني به ، فاستجاب الله لدعائها .

لكن الملك لم يتب وظن أن ما حدث كان أمرًا عابرًا وانتهى ، فهجم عليها مرة أخرى، فَشُل مرة ثانية ، فقال: فكيني ، فدعت الله تعالى ففكه ، فمد يده ثالثة فشُل ، فقال : فكيني وأُطلقك وأكرمك ، فدعت الله سبحانه وتعالى ففكه ، فصرخ الملك بأعوانه : أبعدوها عني فإنكم لم تأتوني بإنسان بل أتيتموني بشيطان ، فأطلقها وأعطاها أمة اسمها هاجر ، ثم بعد فترة لما لم يجد إبراهيم عليه السلام آذانا صاغية ، أو قلوبًا واعية ؛ أخذ إبراهيم عليه السلام عائلته ورجعوا جميعًا إلى بيت المقدس .

وكانت السيدة سارة لا تلد ، وكان سيدنا إبراهيم يتمنى أن يرزقه الله بولد ، فدعا الله قائلا :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

وعندما أدركت السيدة سارة رغبة زوجها في إنجاب طفل ، عرضت عليه السيدة سارة أن يتزوج جاريتها هاجر ، ووافق إبراهيم عليه السلام ، وتم الزواج وأنجب سيدنا إبراهيم ابنه الأول إسماعيل عليه السلام .

من فوائد القصة

﴿١﴾ تفاهة مبادئ الكفر وسقوطها ، وأنه ليس على الارض دين يرتضيه الله إلا الإسلام ، الذي هو دين كل أنبياء الله ورسله ، والذي أصله وأساسه عبادة الله وحده ، ونبذ ما يعبد من دون الله .

﴿٢﴾ الأدب مع الوالدين حتّى ولو كانا كافرين بالله ، مع الحرص كل الحرص علىٰ هدايتهما ودعوتهما إلَىٰ الله تعالى ، فهما أحق الناس بذلك .

﴿٣﴾ الأدب في الحوار يستجلب مودة الخصم ، ويذهب حرارة العناد .

﴿٤﴾ لابد من الثبات وعدم التردد لحظة واحدة ، فمهما علا الباطل فهو زاهق زائل ، ومهما ضعف الحق فهو منصور .

﴿٥﴾ من مبادئ الدعوة تعرية الباطل وفضح الشرك وأهله حتّى يحذره الناس ، ولابد من بيان أنه لا يملك النفع والضر إلا الله وحده ، ومن ادعى غير ذلك فهو مفترٍ كذاب .

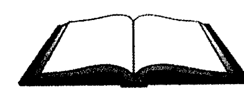
﴿٦﴾ كل من دعا إلَىٰ استقامة لابد أن يجد الكيد من أهل الزيغ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا ، ولكن كيد الكائدين يزول بحفظ الله لأوليائه .

﴿٧﴾ لا يملك الإحياء والإماتة إلا الله ، ولا يملك الإتيان بالشمس من المشرق أو المغرب إلا هو وحده ، فهو يتصرف في ملكه كيف شاء .

﴿٨﴾ على كل إنسان أن يعمل ولا ينتظر النتائج ، فهذا شأن صاحب العمل وليس شأن الأجير ، ولا ينبغي أن ييئس بقلة من استجاب للحق واتبعه ، بل يكفيه أن يؤدي ما أمره الله به .

﴿٩﴾ علامة الحب لله الغيرة لمحارمه ، وهيجان القلب وثورانه عند رؤية المنكرات ، وعدم السكوت عند رؤية المنكر بحال .





إبراهيم عليه السلام يمضي بزوجه وولده إلى مكة

عاش إبراهيم عليه السلام وهو يسبح الله ويدعو الناس إليه ، حتى جاء يوم أمر زوجته هاجر أن تحمل ابنها الرضيع إسماعيل لتسافر معه .

سار سيدنا إبراهيم عليه السلام مع هاجر وإسماعيل طويلا حتى تجاوزوا العمران ، ووصلوا إلى صحراء واسعة مترامية الأطراف خالية من الزرع والماء هي صحراء الجزيرة العربية ، وهناك في مكة ترك سيدنا إبراهيم زوجته وطفله الرضيع ، ووضع بجوارهما بعض الطعام والماء ، وسار مبتعدًا ، أسرعت خلفه زوجته وهي تقول له : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه شيء ؟ !

لم يرد عليها سيدنا إبراهيم ، وظل يسير ، عادت تقول له ما قالته وهو صامت لا يرد ولا يجيب ، أخيرًا فهمت أنه لا يتصرف هكذا من نفسه ، أدركت أن الله أمره بذلك وسألته : هل الله أمرك بهذا ؟ قال إبراهيم عليه السلام : نعم ، قالت : إذًا لن يضيعنا الله .

قالت زوجته المؤمنة العظيمة : لن نضيع ما دام الله معنا وهو الذي أمرك بهذا ، وسار إبراهيم عليه السلام حتى إذا أخفاه جبل عنهما وقف ورفع يديه الكريمتين إلى السماء وراح يدعو الله سبحانه وتعالى :

﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

ترك إبراهيم زوجته وابنه الرضيع في صحراء مكة وسار راجعًا إلى كفاحه في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى .

زمزم

أرضعت أم إسماعيل ابنها وأحست بالعطش ، كانت الشمس ملتهبة وساخنة وتثير الإحساس بالعطش ، بعد يومين انتهى الماء تمامًا ، وجفَّ لبن الأم ، وأحسَّت هاجر وإسماعيل بالعطش ، كان الطعام قد انتهى هو الآخر ، بدأ إسماعيل يبكي من العطش ، وتركته أمه وانطلقت تبحث عن ماء .

راحت تمشي مسرعة حتى وصلت إلى جبل اسمه الصفا ، فصعدت إليه وراحت تنظر هنا وهناك ، تبحث عن بئر أو إنسان أو قافلة وتطيل النظر ، وترفع رأسها إلى أقصى ما ترى العينان ، ولكن لم يكن هناك شيء ، ونزلت مسرعة من الصفا حتى إذا وصلت إلى الوادي راحت تسعى سعي الإنسان المجهد حتى جاوزت الوادي ووصلت إلى جبل المروة ، فصعدت إليه ونظرت لترى أحدًا لكنها لم تر أحدًا ، وعادت الأم إلى طفلها فوجدته يبكي وقد اشتد عطشه ، فأسرعت إلى الصفا مرة أخرى فوقفت عليه فنظرت ثم هرولت إلى المروة فنظرت من فوقه ، وراحت تذهب وتجيء سبع مرات بين الجبلين الصغيرين ، سبع مرات وهي تذهب وتعود ، وتذهب وتعود تحدق في الفضاء الواسع ، ليس ثمَّ إلا رمال صفراء .

(لهذا يذهب الحجاج سبع مرات ويعودون بين الصفا والمروة إحياء لذكريات أمهم الأولى ونبيهم العظيم إسماعيل) .

عادت هاجر بعد المرة السابعة وهي مجهدة متعبة تلهث ، وجلست بجوار ابنها الذي كان صوته قد بح من البكاء والعطش ، أصابها الإعياء من الجهد ، وأصاب ولدها مثله من البكاء .

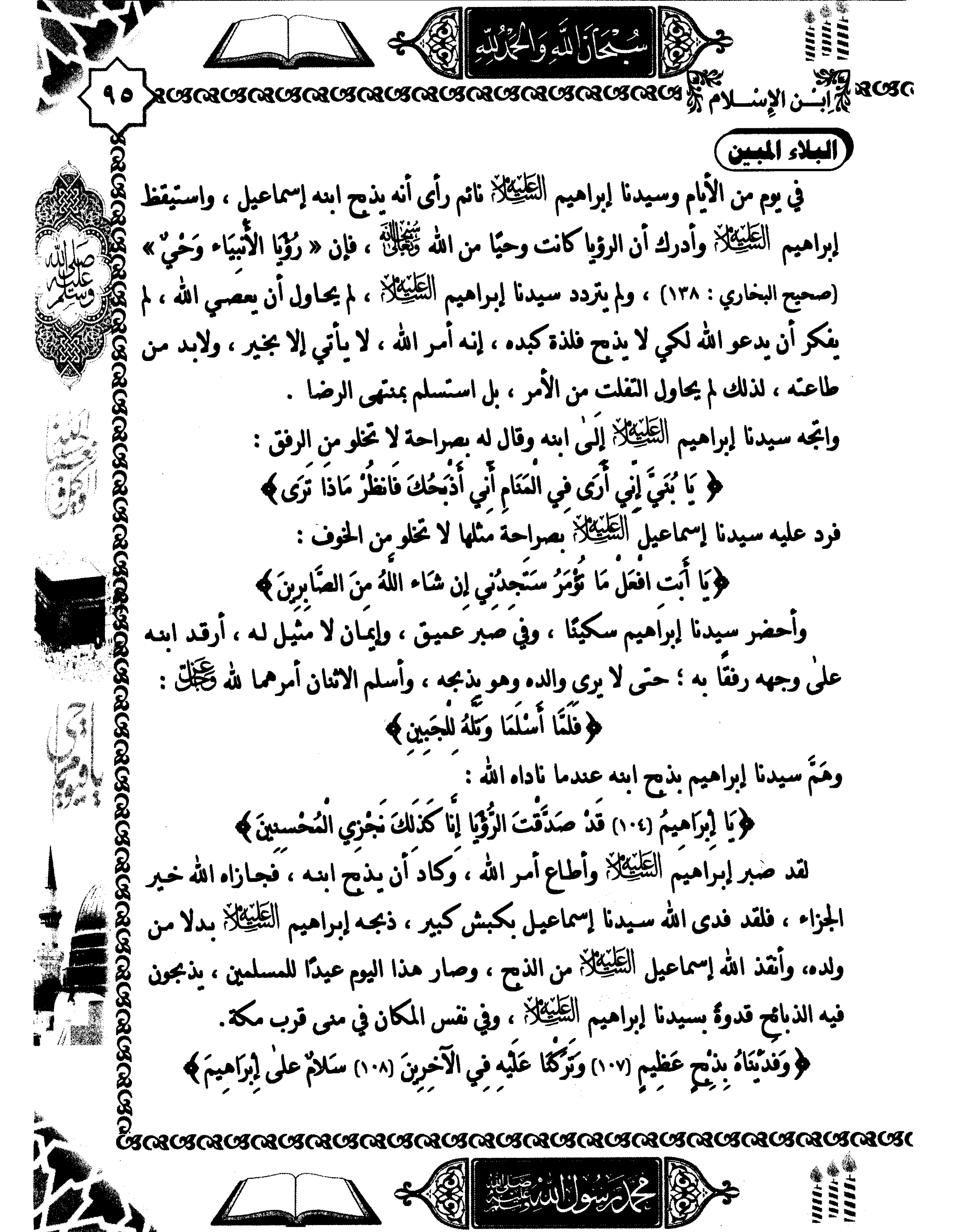
وهنا ... وفي هذه اللحظة اليائسة أدركتها رحمة الله عز وجل الرحيم بكل شيء ، وأرسل لها جبريل عليه السلام فبحث بعقبه أو بجناحه عند موضع قدم إسماعيل فانفجرت بئر زمزم ، وفار الماء من البئر ، أنقذت حياة الطفل والأم ، راحت الأم تغرف بيدها وتشرب وهي تشكر الله ، وشربت وسقت طفلها وبدأت الحياة تدب في المنطقة ، صدق ظنها حين قالت : لن نضيع ما دام الله معنا ، سبحان الله ! ينبع الماء من تحت قدم الطفل ، لا على الصفا ، ولا على المروة ، ولا بينهما .

بداية عمران مكة

وبدأت بعض القوافل تستقر في المنطقة ، وجذب الماء الذي انفجر من بئر زمزم عديدًا من الناس ، وبدأ العمران يبسط أجنحته على المكان .

وبدأ إسماعيل عليه السلام ينمو ويكبر ، وإبراهيم عليه السلام يتابعه في حب وحنان ، ويزداد تعلق قلبه به ، حتى جاء يوم تعرض فيه سيدنا إبراهيم لاختبار صعب ، وابتلاء مبين .





البلاء المبين

في يوم من الأيام وسيدنا إبراهيم عليه السلام نائم رأى أنه يذبح ابنه إسماعيل ، واستيقظ إبراهيم عليه السلام وأدرك أن الرؤيا كانت وحيًا من الله سبحانه وتعالى ، فإن « رُؤْيَا الأَنْبِيَاء وَحْيٌ » (صحيح البخاري : ١٣٨) ، ولم يتردد سيدنا إبراهيم عليه السلام ، لم يحاول أن يعصي الله ، لم يفكر أن يدعو الله لكي لا يذبح فلذة كبده ، إنه أمر الله ، لا يأتي إلا بخير ، ولابد من طاعته ، لذلك لم يحاول التفلت من الأمر ، بل استسلم بمنتهى الرضا .

واتجه سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى ابنه وقال له بصراحة لا تخلو من الرفق :

﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾

فرد عليه سيدنا إسماعيل عليه السلام بصراحة مثلها لا تخلو من الخوف :

﴿ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾

وأحضر سيدنا إبراهيم سكينًا ، وفي صبر عميق ، وإيمان لا مثيل له ، أرقد ابنه على وجهه رفقًا به ؛ حتى لا يرى والده وهو يذبحه ، وأسلم الاثنان أمرهما لله عز وجل :

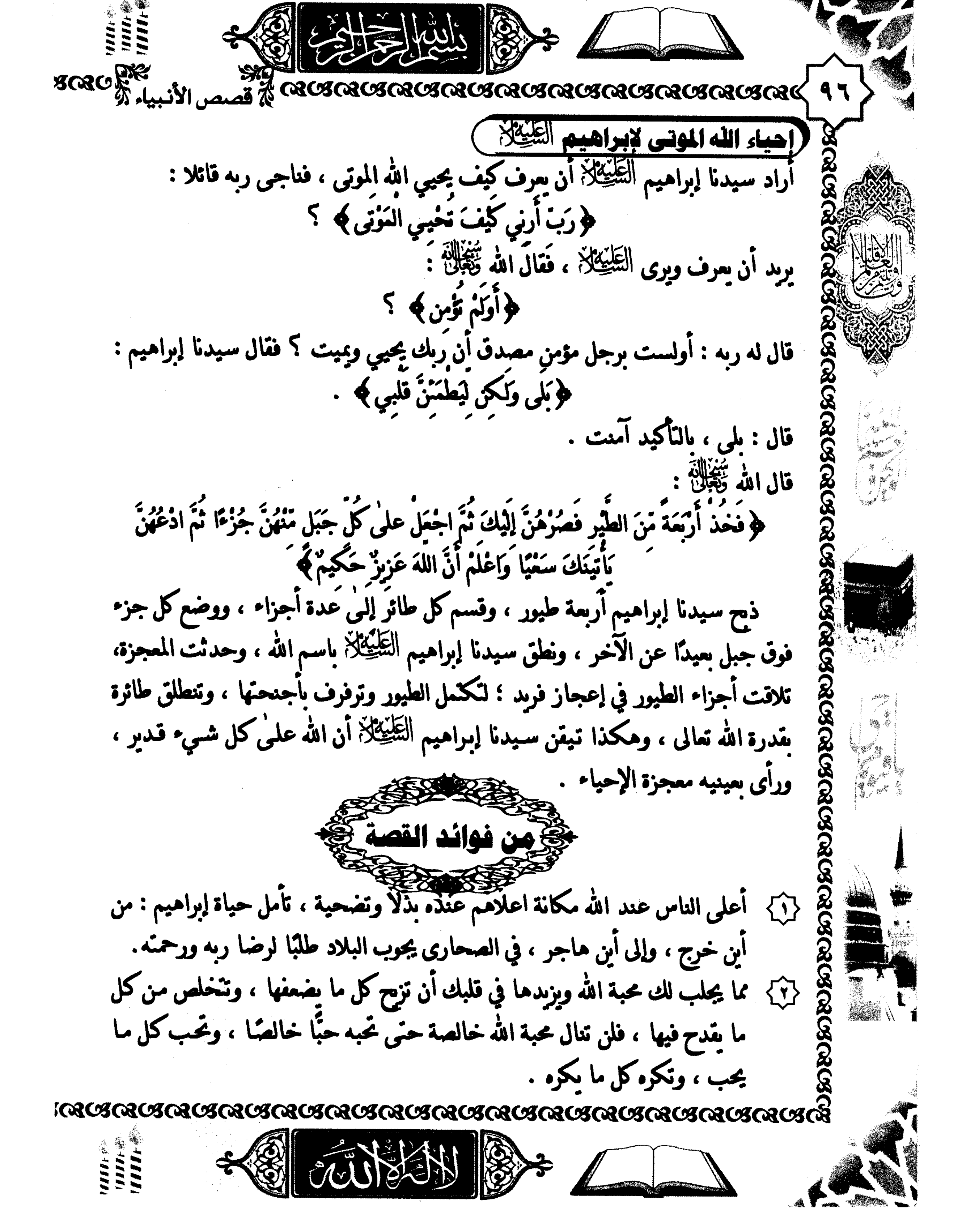
﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾

وهَمَّ سيدنا إبراهيم بذبح ابنه عندما ناداه الله :

﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

لقد صبر إبراهيم عليه السلام وأطاع أمر الله ، وكاد أن يذبح ابنه ، فجازاه الله خير الجزاء ، فلقد فدى الله سيدنا إسماعيل بكبش كبير ، ذبحه إبراهيم عليه السلام بدلا من ولده، وأنقذ الله إسماعيل عليه السلام من الذبح ، وصار هذا اليوم عيدًا للمسلمين ، يذبحون فيه الذبائح قدوةً بسيدنا إبراهيم عليه السلام ، وفي نفس المكان في منى قرب مكة .

﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾



إحياء الله الموتى لإبراهيم عليه السلام

أراد سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يعرف كيف يحيي الله الموتى ، فناجى ربه قائلا :

﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ ؟

يريد أن يعرف ويرى عليه السلام ، فقال الله سبحانه وتعالى :

﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ ؟

قال له ربه : أولست برجل مؤمن مصدق أن ربك يحيي ويميت ؟ فقال سيدنا إبراهيم :

﴿ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ .

قال : بلى ، بالتأكيد آمنت .

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

ذبح سيدنا إبراهيم أربعة طيور ، وقسم كل طائر إلى عدة أجزاء ، ووضع كل جزء فوق جبل بعيدًا عن الآخر ، ونطق سيدنا إبراهيم عليه السلام باسم الله ، وحدثت المعجزة، تلاقت أجزاء الطيور في إعجاز فريد ؛ لتكتمل الطيور وترفرف بأجنحتها ، وتنطلق طائرة بقدرة الله تعالى ، وهكذا تيقن سيدنا إبراهيم عليه السلام أن الله على كل شيء قدير ، ورأى بعينيه معجزة الإحياء .

من فوائد القصة

(١) أعلى الناس عند الله مكانة أعلاهم عنده بذلاً وتضحية ، تأمل حياة إبراهيم : من أين خرج ، وإلى أين هاجر ، في الصحارى يجوب البلاد طلبًا لرضا ربه ورحمته.

(٢) مما يجلب لك محبة الله ويزيدها في قلبك أن تزيح كل ما يضعفها ، وتتخلص من كل ما يقدح فيها ، فلن تنال محبة الله خالصة حتى تحبه حبًّا خالصًا ، وتحب كل ما يحب ، وتكره كل ما يكره .

٣- التضحية في سبيل الله شأن كل العاملين لهذا الدين ، وياله والله من بلاء عندما يؤمر إبراهيم بأن يذبح ابنه ! ! لا أن يموت بمرض ولا بغيره ، أو يذبحه غيره ، بل هو يذبح ولده الذي انتظره طويلا بيده ، فيطيع أمر الله ؛ لأن أمر الله أحب إليه وأعظم عنده .

٤- بركة المكان ببركة ما فيه من طاعة لله ، وأعظم بلاد الله بركة مكة المكرمة ، والصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ، فيالها من بركة عظيمة .

٥- الدعاء سلاحك وزادك ، وكلما كان تضرعك أكثر ، وذلك لله أعظم ؛ استجاب الله دعاءك ، وبالدعاء يرفع البلاء ، وتحصل البركات للعبد ، فعليك بالدعاء .

٦- لا ينبغي أن يحرص الإنسان علىٰ نفسه فحسب ، بل ينبغي أن يحرص علىٰ حصول الخير لكل الناس ، وأحق الناس بهذا ذريته فيحرص علىٰ صلاحهم ، ويدعو لهم ، ويتخذ الأسباب إلىٰ ذلك .

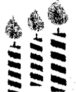
٧- صبر إسماعيل نبع من يقين هاجر ، ويقين هاجر ينبع من صدق إبراهيم عليه السلام ، ويأتيها الله بالفرج العظيم ، ويخلد ذكرها في العالمين بهذه الثقة في الله : إذاً لن يضيعنا الله .

كرم الخليل ، والبشارة بإسحاق عليه السلام

وفي يوم من الأيام ، كان إبراهيم عليه السلام جالسًا وحده في بيته ، في هذه اللحظة ، هبطت علىٰ الأرض أقدام ثلاثة من الملائكة : جبريل وإسرافيل وميكائيل عليهم السلام ، يتشكلون في صور بشرية من الجمال الخارق ، ساروا صامتين ، مهمتهم مزدوجة ، المرور علىٰ إبراهيم وتبشيره ، ثم زيارة قوم لوط ووضع حد لجرائمهم.

سار الملائكة الثلاثة قليلا حتىٰ وصلوا إلىٰ المكان الذي يجلس فيه إبراهيم عليه السلام ، رفع إبراهيم عليه السلام رأسه ، تأمل وجوههم ، لا يعرف أحدًا منهم، بادروه بالتحية ، قالوا: سَلامًا ، قال : سَلامٌ .





نهض إبراهيم ورحب بهم ، أدخلهم بيته وهو يظن أنهم ضيوف وغرباء ، وقد كان عليه السلام يحب إكرام الضيف ، أجلسهم واطمأن أنهم قد اطمأنوا ، ثم استأذن وخرج ، أسرع إلىٰ أهله .

نهضت زوجته سارة حين دخل عليها ، كانت عجوزا قد ابيض شعرها ولم يعد يتوهج بالشباب فيها غير وميض الإيمان الذي يطل من عينيها .

قال إبراهيم لزوجته : زارنا ثلاثة غرباء .

سألته : من يكونون؟

قال : لا أعرف أحدًا منهم ، وجوههم غريبة علىٰ المكان ، لا ريب أنهم من مكان بعيد ، غير أن ملابسهم لا تشي بالسفر الطويل ، اذبحي لهم عجلا سمينًا ، هم ضيوف وغرباء ، ليست معهم دواب أو أحمال أو طعام ، ربما كانوا جوعى وربما كانوا فقراء .

اختار إبراهيم عليه السلام عجلا سمينًا وأمر بذبحه ، فذكروا عليه اسم الله وذبحوه ، وأعدت المائدة ، ، ودعا إبراهيم عليه السلام ضيوفه إلىٰ الطعام ، وأوقف زوجته في خدمتهم زيادة في الإكرام والحفاوة ، ووضع العجل المشوي أمام الضيوف .

أشار إبراهيم بيده أن يتفضلوا باسم الله ، وبدأ هو يأكل ليشجعهم ، كان إبراهيم عليه السلام كريمًا يعرف أن الله لا يتخلى عن الكرماء وربما لم يكن في بيته غير هذا العجل ، وضيوفه ثلاثة ، غير أنه كان سيدًا عظيم الكرم ، راح إبراهيم يأكل ثم استرق النظر إلىٰ ضيوفه ؛ ليطمئن أنهم يأكلون ، لاحظ أنه لا أحد منهم يمد يده إلىٰ الطعام ، قَرَّبَ إليهم الطعام وقال :

﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ؟

قال : هيا .. كلوا .. كلوا .. بسم الله ..

عاد إلىٰ طعامه ثم اختلس إليهم نظرة فوجدهم مازالوا لا يأكلون ، رأى أيديهم لا تصل إلىٰ الطعام ، عندئذ .. ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ .

في تقاليد البادية التي عاش فيها إبراهيم عليه السلام ، كان معنى امتناع الضيوف عن الأكل أنهم يقصدون شرًّا بصاحب البيت .

ولاحظ إبراهيم عليه السلام بينه وبين نفسه أكثر من ملاحظة تؤيد غرابة ضيوفه ، لاحظ أنهم دخلوا عليه فجأة ، لم يرهم إلا وهم عند رأسه ، لم يكن معهم دواب تحملهم ، لم تكن معهم أحمال، وجوههم غريبة تمامًا عليه ، كانوا مسافرين وليس عليهم أثر لتراب السفر . .

ثم ها هو ذا يدعوهم إلىٰ طعامه فيجلسون إلىٰ المائدة ولا يأكلون ، ازداد خوف إبراهيم ، رفع نظره فوجد امرأته سارة تقف في نهاية الحجرة .

كأن الملائكة كانوا يقرأون أفكاره التي تدور في نفسه ، دون أن يشي بها وجهه ، قال له أحد الملائكة: ﴿لَا تَخَفْ﴾ ، رفع إبراهيم رأسه وقال بصدق عظيم وبراءة : لقد دعوتكم إلىٰ الطعام ورحبت بكم ، ولكنكم لا تمدون أيديكم إليه ، هل تنوون بي شرًا ؟

ابتسم أحد الملائكة وقال : نحن لا نأكل يا إبراهيم ، نحن ملائكة الله ، وقد :

﴿أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ .

وكانت السيدة سارة واقفة تستمع إلىٰ الحوار فضحكت ؛ فبشرتها الملائكة أنها ستلد ولدًا اسمه إسحاق ، ثم سينجب إسحاق ولدًا اسمه يعقوب :

﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾

تعجبت السيدة سارة وقالت :

﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾

كيف ألد وأنا في هذه السن المتأخرة، وقد كنت عاقرًا، وهذا زوجي شيخ كبير السن؟!

فردت عليها الملائكة :

﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾

لم تكن البشرى شيئًا بسيطًا في حياة إبراهيم عليه السلام وزوجته ، لم يكن لإبراهيم غير ولد واحد هو إسماعيل ، تركه هناك بعيدًا في الجزيرة العربية ، ولم تكن زوجته سارة قد أنجبت خلال عشرتها الطويلة لإبراهيم عليه السلام ، وهي التي زوجته من جاريتها هاجر ، ومن هاجر جاء إسماعيل ، أما سارة ، فلم يكن لها ولد ، وكان حنينها إلىٰ الولد

عظيمًا، لم يطفئ مرور الأيام من توهجه، ثم دخلت شيخوختها واحتضر حلمها ومات، كانت تقول: إنها مشيئة الله سبحانه وتعالى.

هكذا أراد الله لها، وهكذا أراد لزوجها، ثم ها هي ذي في مغيب العمر تتلقى البشارة، ستلد غلامًا، ليس هذا فحسب، بشرتها الملائكة بأن ابنها سيكون له ولد اسمه يعقوب تشهد مولده وتشهد حياته، لقد صبرت طويلا، ثم يئست، ثم نسيت، ثم يجيء جزاء الله مفاجأة تمحو هذا كله في لحظة.

أما سيدنا إبراهيم فقد قال في تعجب:

﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ ؟

قالت الملائكة لتبشره وتبدد يأسه:

﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾

فقال إبراهيم عليه السلام في إيمان:

﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ ؟!

تقبل سيدنا إبراهيم البشرى في سعادة غامرة، وفرح بالمولود الموعود، وأنسته الفرحة ما ذكره الملائكة عليهم السلام من أمر لوط ابن أخيه عليه السلام.

وعندما زالت المفاجأة عن سيدنا إبراهيم عليه السلام وأدرك أن الملائكة سيدمرون قوم ابن أخيه لوط، راح يجادلهم ويقول لهم: إنه ربما يؤمن قوم لوط، أو ربما يتمكن لوط من هداية بعضهم، ولكن الملائكة أفهموه أنه أمر الله، وأن الله سبحانه وتعالى لن يؤجل عذابهم:

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾

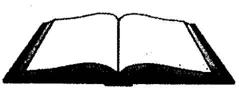
كانت كلمة الملائكة إيذانًا بنهاية الجدال، سكت إبراهيم، وتوجهت الملائكة لقوم لوط عليه السلام.

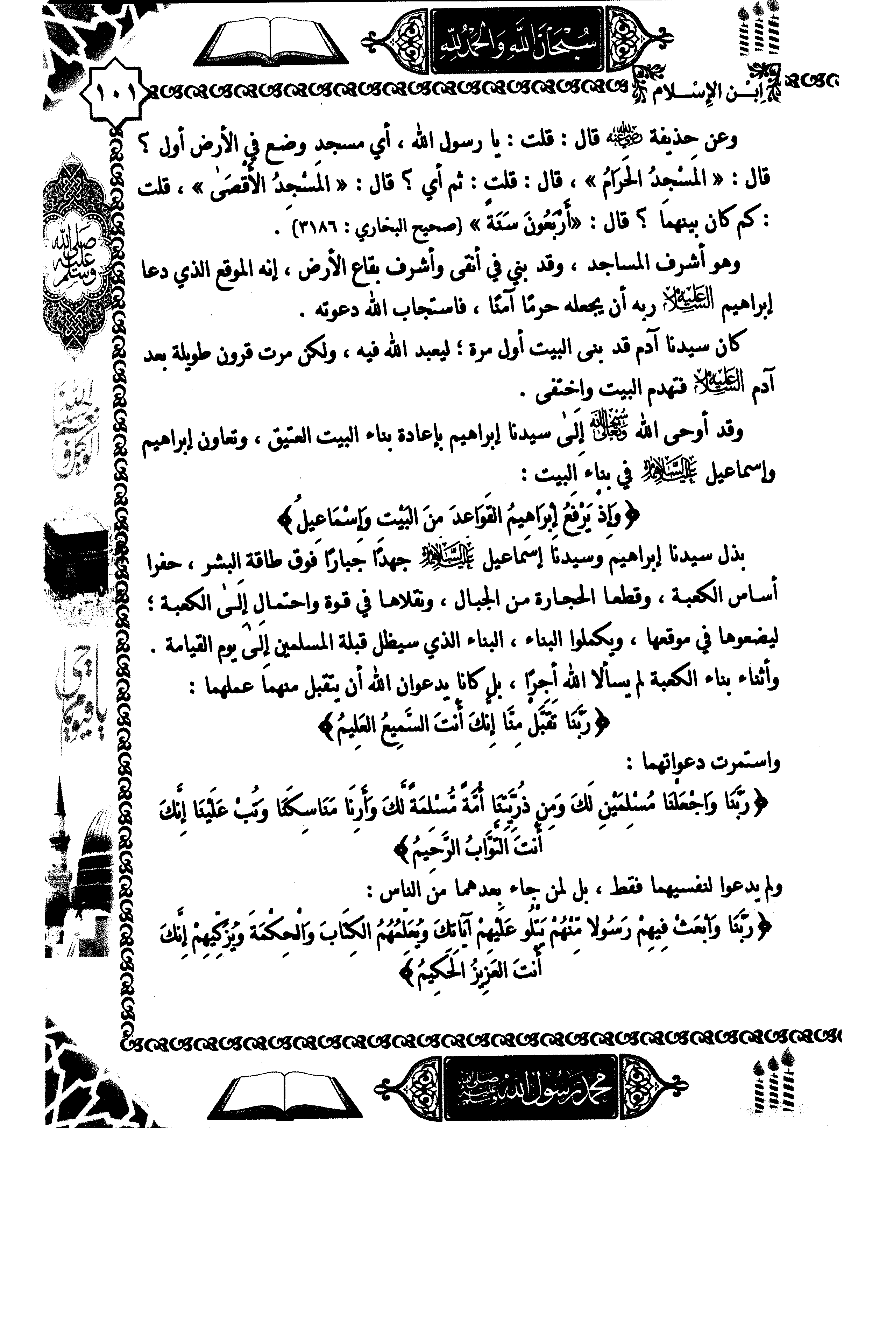
بناء البيت

إن أول مسجد بني ليعبد الناس فيه الله كان موقعه في مكة:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾





وعن حذيفة رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، أي مسجد وضع في الأرض أول ؟ قال : « المَسْجِدُ الحَرَامُ » ، قال : قلت : ثم أي ؟ قال : « المَسْجِدُ الأَقْصَى » ، قلت : كم كان بينهما ؟ قال : «أَرْبَعُونَ سَنَةً » (صحيح البخاري : ٣١٨٦) .

وهو أشرف المساجد ، وقد بني في أنقى وأشرف بقاع الأرض ، إنه الموقع الذي دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يجعله حرمًا آمنًا ، فاستجاب الله دعوته .

كان سيدنا آدم قد بنى البيت أول مرة ؛ ليعبد الله فيه ، ولكن مرت قرون طويلة بعد آدم عليه السلام فتهدم البيت واختفى .

وقد أوحى الله سبحانه وتعالى إِلَىٰ سيدنا إبراهيم بإعادة بناء البيت العتيق ، وتعاون إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في بناء البيت :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾

بذل سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام جهدًا جبارًا فوق طاقة البشر ، حفرا أساس الكعبة ، وقطعا الحجارة من الجبال ، ونقلاها في قوة واحتمال إِلَىٰ الكعبة ؛ ليضعوها في موقعها ، ويكملوا البناء ، البناء الذي سيظل قبلة المسلمين إِلَىٰ يوم القيامة .

وأثناء بناء الكعبة لم يسألا الله أجرًا ، بل كانا يدعوان الله أن يتقبل منهما عملهما :

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

واستمرت دعواتهما :

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

ولم يدعوا لنفسيهما فقط ، بل لمن جاء بعدهما من الناس :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

وكان دعاؤهما عليهما السلام يؤنسهما أثناء العمل ، ويسعدهما بعد العمل ، وهكذا دومًا يكون شعور بالارتباط بالله جل جلاله ، وطلب المعونة منه قبل العمل ، واحتساب الأجر عنده بعد العمل .

وكان سيدنا إبراهيم عليه السلام يقف على حجر ؛ ليرى استواء بناء الكعبة ، فتركت قدماه في الحجر أثرًا عميقًا ، وهو ما يسمى بمقام إبراهيم ، تراه اليوم أمام الكعبة .

قال رسول الله ﷺ : « جَاءَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ ، وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ قَالَ : فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ قَالَ : وَتُعِينُنِي قَالَ: وَأُعِينُكَ قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا ، وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا .

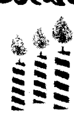
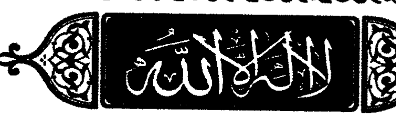
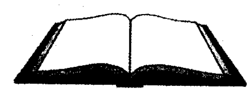
قَالَ : فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ ، وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي ، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ ، فَوَضَعَهُ لَهُ ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَهُمَا يَقُولَانِ (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) قَالَ : فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » (صحيح البخاري : ٣١١٢) .

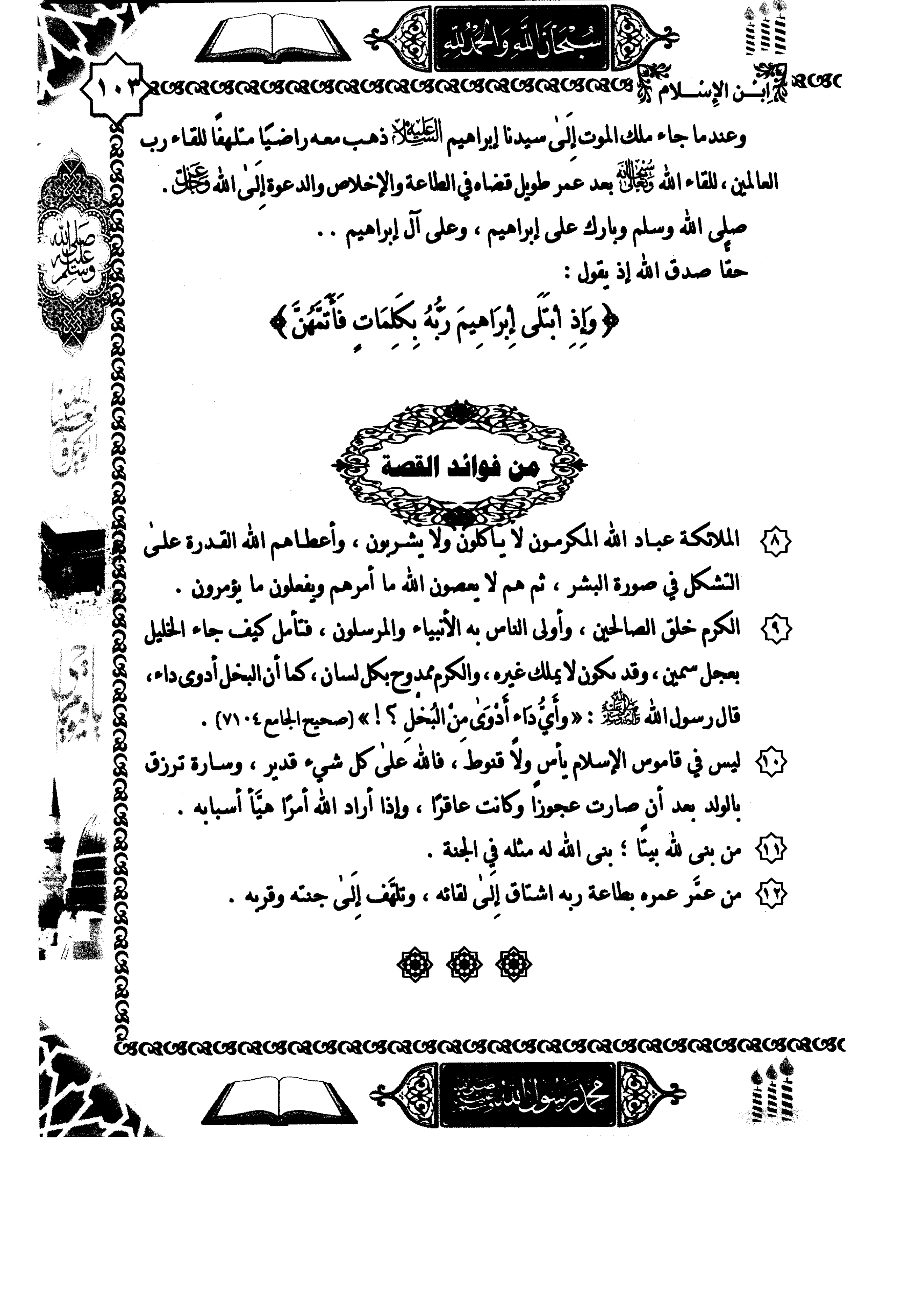
والله إنها لحكاية ينشرح لها الصدر ويسعد بها القلب ، لما فيها من معان إيمانية ، وفوائد تربوية ، أقتصر منها على ذلك الود والحب العميق والألفة الطيبة بين الابن وأبيه ، وتعاونهما على طاعة الله ، وتنفيذ أوامره .

وتم بناء الكعبة ، وأمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام أن ينادي في الناس بالحج ، ففعل وأسمع الله سبحانه وتعالى بقدرته صوت إبراهيم إلى كل الناس :

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾

وهنا تمت مهمة إبراهيم عليه السلام ، مر بابتلاءات كثيرة ، وتجاوز عقبات ضخمة ، وجاءت النهاية : الموت ، الذي هو حق على كل إنسان .



وعندما جاء ملك الموت إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام ذهب معه راضيًا متلهفًا للقاء رب العالمين ، للقاء الله سبحانه وتعالى بعد عمر طويل قضاه في الطاعة والإخلاص والدعوة إلى الله عز وجل .

صلى الله وسلم وبارك على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم . .

حقًا صدق الله إذ يقول :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾

من فوائد القصة

٨ الملائكة عباد الله المكرمون لا يأكلون ولا يشربون ، وأعطاهم الله القدرة على التشكل في صورة البشر ، ثم هم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

٩ الكرم خلق الصالحين ، وأولى الناس به الأنبياء والمرسلون ، فتأمل كيف جاء الخليل بعجل سمين ، وقد يكون لا يملك غيره ، والكرم ممدوح بكل لسان ، كما أن البخل أدوى داء ، قال رسول الله ﷺ : « وأيُّ داءٍ أدوَى مِنَ البُخلِ ؟ ! » (صحيح الجامع ٧١٠٤) .

١٠ ليس في قاموس الإسلام يأس ولا قنوط ، فالله على كل شيء قدير ، وسارة ترزق بالولد بعد أن صارت عجوزًا وكانت عاقرًا ، وإذا أراد الله أمرًا هيَّأ أسبابه .

١١ من بنى لله بيتًا ؛ بنى الله له مثله في الجنة .

١٢ من عمَّر عمره بطاعة ربه اشتاق إلى لقائه ، وتلهف إلى جنته وقربه .

إسماعيل عليه السلام

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا ﴾

دعاء الخليل بطلب الذرية

الأولاد هبة محضة من الله ، فهم رزق مقسوم كسائر الأرزاق، يأتي بقدر الله وتقديره، قال سبحانه وتعالى : ﴿ لله مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [سورة الشورى : ٤٩-٥٠] ، وليس وجود الأولاد أو عدمهم دليل غضب أو رضا من الله سبحانه وتعالى ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى ﴾ [سورة سبأ : ٣٧] ، ولكن النفس البشرية جبلت على حب المال والولد ، فهما زينة الحياة الدنيا .

ومن ثم كان إبراهيم عليه السلام يتمنى أن ينجب طفلا ، فدعا الله قائلا : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، والله كريم يستجيب دعاء الصالحين ، فبشره الله سبحانه وتعالى بغلام حليم، وكان قد بلغ من العمر ستا وثمانين سنة .

إنه إسماعيل عليه السلام ، الذي وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه حليم ، صابر ، صادق الوعد ، الذي يدعو أهله إلى الصلاة وإلى المحافظة عليها ، وأمه هي السيدة هاجر.

ولما ولد نبي الله إسماعيل عليه السلام تعرض لأول محنة وهو طفل رضيع ، عندما تركه والده إبراهيم مع والدته هاجر في الصحراء ، وعندما اشتد عطشه بعد أن سعت أمه هاجر بين الصفا والمروة سبع مرات ، ضرب الأرض بقدميه فتفجر بئر زمزم بإذن الله سبحانه وتعالى .

عاش إسماعيل في شبه الجزيرة العربية ما شاء الله عز وجل له أن يعيش ، روّض الخيل واستأنسها واستخدمها ، وساعدت مياه زمزم على سكنى المنطقة وتعميرها .



زيارة الخليل لإسماعيل عليه السلام

استقرت بالمنطقة بعض القوافل ، وسكنها القبائل ، وكبر إسماعيل عليه السلام وتزوج ، وزاره أبوه إبراهيم عليه السلام ، قال رسول الله ﷺ : « جَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ ، فَقَالَتْ خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا ، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ ، فَقَالَتْ : نَحْنُ بِشَرٍّ ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ ، قَالَ : فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ ، وَقُولِي لَهُ يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ ، كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا ، فَقَالَ : هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ قَالَتْ نَعَمْ جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا ، فَسَأَلَنَا عَنْكَ ، فَأَخْبَرْتُهُ ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا ، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ قَالَ : فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ ، وَيَقُولُ غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ .

قَالَ : ذَاكِ أَبِي وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ الْحَقِي بِأَهْلِكِ ، فَطَلَّقَهَا ، وَتَزَوَّجَ بِأُخْرَى ، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ ، فَلَمْ يَجِدْهُ ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ ، فَسَأَلَهَا عَنْهُ ، فَقَالَتْ : خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا ، قَالَ : كَيْفَ أَنْتُمْ ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ ، فَقَالَتْ : نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ ، وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ ، فَقَالَ : مَا طَعَامُكُمْ ؟ قَالَتْ : اللَّحْمُ ، قَالَ : فَمَا شَرَابُكُمْ ؟ قَالَتْ : الْمَاءُ ، قَالَ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ .

قَالَ : فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ ، فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ ، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ : هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ . أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ ، فَأَخْبَرْتُهُ ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا ؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي ، وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ » (سبق تخريجه) .

ثم تعرض سيدنا إسماعيل عليه السلام إلى بلاء آخر أشد من الأول ، وحقًا إنه بلاء مبين، وذلك عندما رأى سيدنا إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يذبح ابنه وفلذة كبده إسماعيل ، فذهب إليه وقص عليه الرؤيا ، فلم يتردد سيدنا إسماعيل . .



وبنفس صابرة مليئة بالإيمان والطاعة لله قال لوالده :

﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾

تأمل رد الابن ، إنسان يعرف أنه سيذبح فيمتثل للأمر الإلهي ويقدم المشيئة ويطمئن والده أنه سيجده : ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ .

هو الصبر على أي حال وعلى كل حال ، وربما استعذب الابن أن يموت ذبحا بأمر من الله ، ها هو ذا إبراهيم عليه السلام يكتشف أن ابنه ينافسه في حب الله.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ : هذا هو الإسلام الحقيقي ، تعطي كل شيء ، فلا يتبقى منك شيء .

عندئذ فقط ، وفي اللحظة التي كان السكين فيها يتهيأ لإمضاء أمره ، نادى الله إبراهيم ، انتهى اختباره ، وفدى الله إسماعيل عليه السلام بذبح عظيم ، وصار اليوم عيدًا لقوم لم يولدوا بعد ، هم المسلمون ، صارت هذه اللحظات عيدًا للمسلمين.

وظهرت نتيجة الامتحان أن نجح الأب و الابن ، سبحان الملك ! ! ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ، مرت المحنة وصارت منحة ، وبقي الذكر الحسن ، أنهما عليهما السلام من الصادقين المحسنين .

وكما كانت حياة إبراهيم عليه السلام مليئة بالابتلاءات التي جاوزها جميعًا بنجاح لم تشهد البشرية مثله ، كذلك كانت حياة ابنه إسماعيل عليه السلام معه ، فبعد امتحان الذبح يأتي اختبار التبتل والبذل ، وقد مرّ معنا حديث أن إبراهيم قال لإسماعيل عليهما السلام : يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ قَالَ : فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ قَالَ : وَتُعِينُنِي قَالَ: وَأُعِينُكَ قَالَ: فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا . . . الحديث .

مازال يتملكني العجب والإعجاب بهذا التعامل السامي بين الأب وابنه ، نسأل الله أن يهدي الآباء ويصلح الأبناء .



بناء الكعبة

لم يحدثنا الله عن زمن بناء الكعبة ، حدثنا عن أمر أخطر وأجدى ، حدثنا عن تجرد نفسية من كان يبنيها ، ودعائه وهو يبنيها :

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

ها هو ذا الرمز يسفر عن أقنعته الشفافة ؛ لنرى وجه الحقيقة الخالد وراءه ، الغرض الأصلي هو الرجوع إلى الله ، أن يتقبل السميع العليم ، وتلك غاية إخلاص المخلصين ، وطاعة الطائعين ، وخوف الخائفين ، إنهما يتعبان ويشقيان في تقطيع الصخر وبناء البيت ، وفقط يرجوان القبول فحسب . .

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾

إن أعظم مسلمين على وجه الأرض يومها يدعوان الله أن يجعلهما مسلمين له ، يعرفان أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا يأمن أحدهما مكر الله عَزَّ وَجَلَّ ، وهما يعبدان الله أصفى ما تكون العبادة ، ويبنيان بيته المعمور ، ويسألانه أن يتقبل عملهما ، ويسألانه بعدها الإسلام وتبلغ الرحمة بهما أن يسألا الله أن يخرج من ذريتهما أمة مسلمة له سبحانه ، يريدان أن يزيد عدد العابدين الموجودين والطائفين والركع السجود .

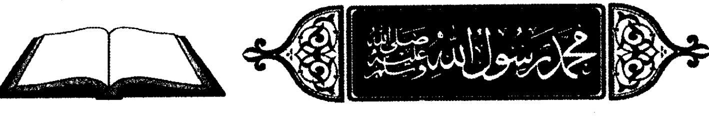
إن دعوة إبراهيم وإسماعيل تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن ، إنه يبني لله بيته ، ومع هذا يشغله أمر العقيدة ، ذلك إيحاء بأن البيت رمز العقيدة .

﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

أرنا أسلوب العبادة الذي ترضاه ، أرنا كيف تحب أن نعبدك في الأرض ، وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم .

بعدها يتجاوز اهتمامهما هذا الزمن الذي يعيشان فيه ، يجاوزانه بالحدس ويدعوان الله :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾



تحققت هذه الدعوة الأخيرة ، حين بعث الله محمد بن عبد الله ﷺ ، تحققت بعد أزمنة وأزمنة .

انتهى بناء البيت ، وأراد إبراهيم عليه السلام حجرًا مميزًا ، يكون علامة خاصة يبدأ منها الطواف حول الكعبة ، أمر إبراهيم إسماعيل أن يأتيه بحجر مميز يختلف عن لون حجارة الكعبة .

سار إسماعيل ملبيًا أمر والده ، حين عاد ، كان إبراهيم عليه السلام قد وضع الحجر الأسود في مكانه ، قال إسماعيل عليه السلام : من الذي أحضره إليك يا أبت؟ قال إبراهيم : أحضره جبريل عليه السلام ، قال رسول الله ﷺ : « الحَجَرُ الأَسْوَدُ مِنَ الجَنَّةِ » (صحيح الترمذي : ٨٧٧) .

انتهى بناء الكعبة ، وبدأ طواف الموحدين والمسلمين حولها ، ووقف إبراهيم يدعو ربه نفس دعائه من قبل ، أن يجعل أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَىٰ المكان :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾

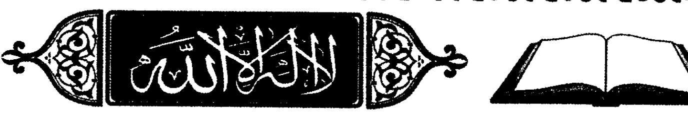
انظر إِلَىٰ التعبير ، إن الهُوِيَّ يُصَوِّرُ انحدارًا لا يُقَاوَم نَحْوَ شيء ، وقمة ذلك الهُوِيّ إِلَىٰ الكعبة ، من هذه الدعوة وُلِدَ الهوى العميق في نفوس المسلمين ، رغبة في زيارة البيت الحرام ، وصار كل من يزور المسجد الحرام ويعود إِلَىٰ بلده ، يحس أنه يزداد عطشًا كلما ازداد ريًا منه ، ويعمق حنينه إليه كلما بعد منه ، وتجيء أوقات الحج في كل عام ، فينشب الهوى الغامض أظافره في القلب نزوعًا إِلَىٰ رؤية البيت ، وعطشًا إِلَىٰ بئر زمزم .

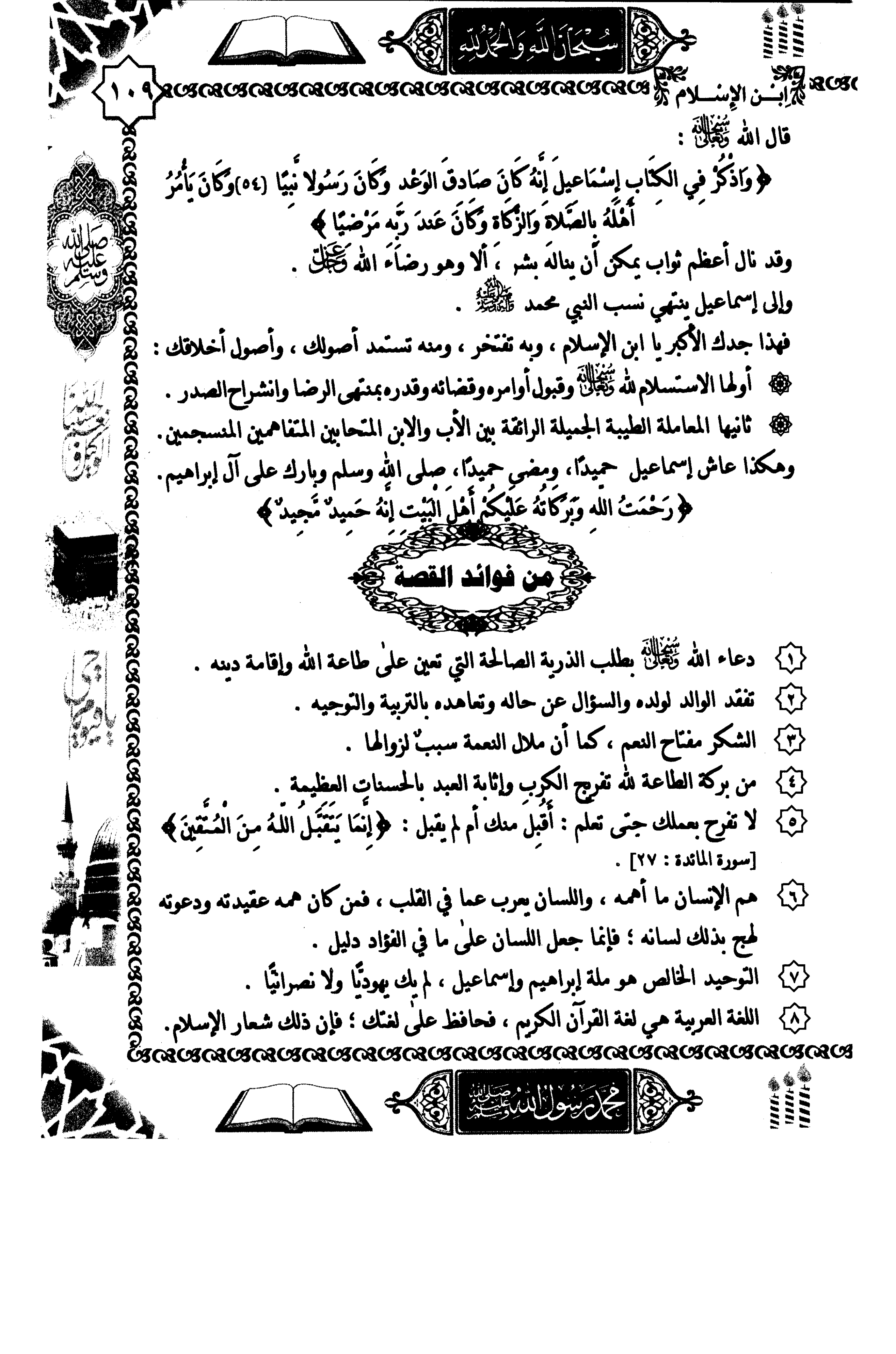
وكلما هفت القلوب إِلَىٰ البيت الحرام وإلى زمزم تذكرت العقول مباشرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، فلهما الفضل بعد الله سبحانه وتعالى في إقامة هذا البيت ، وبزوغ هذه البئر ، ومازالت زمزم طعام طُعْمٍ وشفاء سُقْمٍ ، تشهد لإسماعيل عليه السلام أنه كان عند ربه مرضيًا .

إسماعيل الرَّضِيُّ المَرْضِيُّ

وسيدنا إسماعيل عليه السلام هو أول من ركب الخيل ، وكانت قبل ذلك غير مستأنسة ، وهو أول من تكلم باللغة العربية الفصيحة ، عاش إسماعيل عليه السلام حياته يدعو الناس إِلَىٰ عبادة الله ، وإلى الصلاة والزكاة ، وكان دائم التسبيح والذكر لله ، شديد الإخلاص والطاعة لرب العالمين .







قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾

وقد نال أعظم ثواب يمكن أن يناله بشر ، ألا وهو رضاء الله عز وجل .

وإلى إسماعيل ينتهي نسب النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

فهذا جدك الأكبر يا ابن الإسلام ، وبه تفتخر ، ومنه تستمد أصولك ، وأصول أخلاقك :

- أولها الاستسلام لله سبحانه وتعالى وقبول أوامره وقضائه وقدره بمنتهى الرضا وانشراح الصدر .
- ثانيها المعاملة الطيبة الجميلة الرائعة بين الأب والابن المتحابين المتفاهمين المنسجمين.

وهكذا عاش إسماعيل حميدًا، ومضى حميدًا، صلى الله وسلم وبارك على آل إبراهيم.

﴿ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾

من فوائد القصة

١. دعاء الله سبحانه وتعالى بطلب الذرية الصالحة التي تعين على طاعة الله وإقامة دينه .
٢. تفقد الوالد لولده والسؤال عن حاله وتعاهده بالتربية والتوجيه .
٣. الشكر مفتاح النعم ، كما أن ملال النعمة سببٌ لزوالها .
٤. من بركة الطاعة لله تفريج الكرب وإثابة العبد بالحسنات العظيمة .
٥. لا تفرح بعملك حتى تعلم : أقبل منك أم لم يقبل : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة المائدة : ٢٧] .
٦. هم الإنسان ما أهمه ، واللسان يعرب عما في القلب ، فمن كان همه عقيدته ودعوته لهج بذلك لسانه ؛ فإنما جعل اللسان على ما في الفؤاد دليل .
٧. التوحيد الخالص هو ملة إبراهيم وإسماعيل ، لم يك يهوديًا ولا نصرانيًا .
٨. اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم ، فحافظ على لغتك ؛ فإن ذلك شعار الإسلام.

لوط عليه السلام

﴿ وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ﴾

رسول إلى أفجر أهل الأرض

نبي الله لوط عليه السلام هو ابن أخي سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وقد بعثه الله إلى قوم يعيشون في مدينة سدوم ، قيل : إنها تبعد ثلاثة أيام عن بيت المقدس ، وكانوا من أفجر أهل الأرض ، وأشدهم كفرًا ، وأكثرهم عملا للمنكر والفواحش ، كانوا ظالمين لأنفسهم وللناس ، استكبروا على الحق ، أباحوا لأنفسهم الجرائم البشعة واستحلوا المنكر .

كانوا يقطعون الطريق على المسافرين ، ويخون بعضهم البعض ، ويرتكبون كل الآثام التي عرفها الناس من قبل ، والتي لم يعرفوها من قبل ولا من بعد ، وحاول سيدنا لوط عليه السلام أن يصلح من نفوسهم المريضة ، ويداوي قلوبهم العليلة ، وينير عقولهم المظلمة ، ويمحو الشر من أنفسهم ، ويستأصل منهم الفواحش .

دعوة لوط عليه السلام قومه إلى الله

وقف سيدنا لوط عليه السلام بين قومه يدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى ، قال لهم في رحمة ورفق :

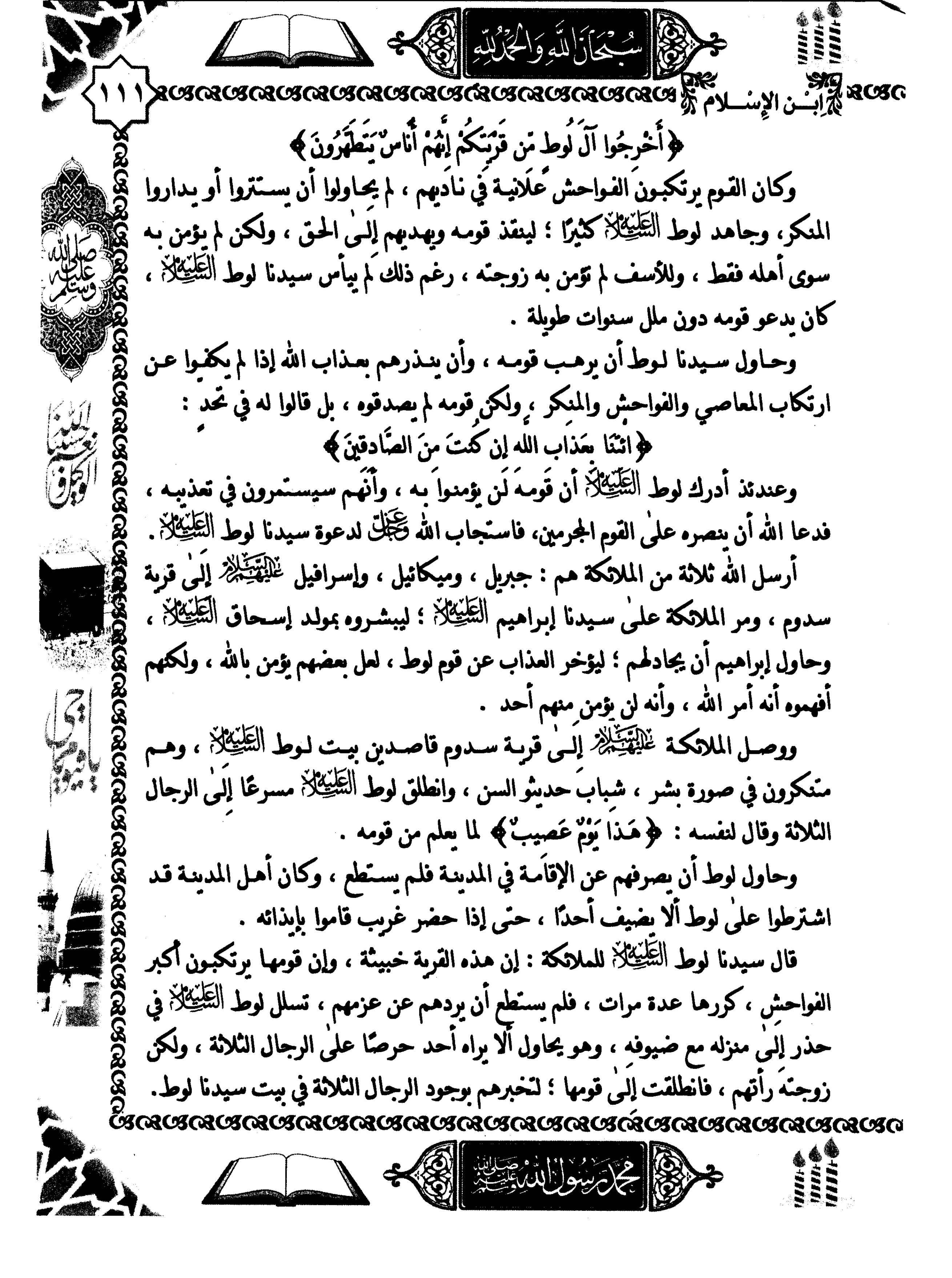
﴿ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

ونهاهم لوط عليه السلام عن الفواحش والمنكر ، وبيّن لهم أن الإنسان العاقل المبصر لا يرتكب الفاحشة ، ولا يأتي المنكر أبدًا ، قال لهم مستنكرًا :

﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾

ولكن القوم استكبروا ، ساءهم أن يكون بينهم رجل طاهر لا يعصي الله ولا يرتكب الفواحش ، كانت نفوسهم مريضة ، ظنوا أن الرجل النقي الطاهر هو رجل لا ينبغي أن يعيش بينهم ، فيكون جزاؤه الطرد والنفي فتنادوا :





﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾

وكان القوم يرتكبون الفواحش علانية في ناديهم ، لم يحاولوا أن يستتروا أو يداروا المنكر، وجاهد لوط عليه السلام كثيرًا ؛ لينقذ قومه ويهديهم إلى الحق ، ولكن لم يؤمن به سوى أهله فقط ، وللأسف لم تؤمن به زوجته ، رغم ذلك لم ييأس سيدنا لوط عليه السلام ، كان يدعو قومه دون ملل سنوات طويلة .

وحاول سيدنا لوط أن يرهب قومه ، وأن ينذرهم بعذاب الله إذا لم يكفوا عن ارتكاب المعاصي والفواحش والمنكر ، ولكن قومه لم يصدقوه ، بل قالوا له في تحد :

﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

وعندئذ أدرك لوط عليه السلام أن قومه لن يؤمنوا به ، وأنهم سيستمرون في تعذيبه ، فدعا الله أن ينصره على القوم المجرمين، فاستجاب الله عز وجل لدعوة سيدنا لوط عليه السلام .

أرسل الله ثلاثة من الملائكة هم : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل عليهم السلام إلى قرية سدوم ، ومر الملائكة على سيدنا إبراهيم عليه السلام ؛ ليبشروه بمولد إسحاق عليه السلام ، وحاول إبراهيم أن يجادلهم ؛ ليؤخر العذاب عن قوم لوط ، لعل بعضهم يؤمن بالله ، ولكنهم أفهموه أنه أمر الله ، وأنه لن يؤمن منهم أحد .

ووصل الملائكة عليهم السلام إلى قرية سدوم قاصدين بيت لوط عليه السلام ، وهم متنكرون في صورة بشر ، شباب حديثو السن ، وانطلق لوط عليه السلام مسرعًا إلى الرجال الثلاثة وقال لنفسه : ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ لما يعلم من قومه .

وحاول لوط أن يصرفهم عن الإقامة في المدينة فلم يستطع ، وكان أهل المدينة قد اشترطوا على لوط ألا يضيف أحدًا ، حتى إذا حضر غريب قاموا بإيذائه .

قال سيدنا لوط عليه السلام للملائكة : إن هذه القرية خبيثة ، وإن قومها يرتكبون أكبر الفواحش ، كررها عدة مرات ، فلم يستطع أن يردهم عن عزمهم ، تسلل لوط عليه السلام في حذر إلى منزله مع ضيوفه ، وهو يحاول ألا يراه أحد حرصًا على الرجال الثلاثة ، ولكن زوجته رأتهم ، فانطلقت إلى قومها ؛ لتخبرهم بوجود الرجال الثلاثة في بيت سيدنا لوط.

وجاء القوم مسرعين ، فخرج سيدنا لوط إِلَىٰ قومه ؛ فطالبوه بالرجال الثلاثة الذين يستضيفهم في منزله ، فوقف يخاطبهم :

﴿يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ ؟!

إنها كلمة تحمل كل معاني الأسى الذي فاض به قلب لوط عليه السلام : أليس منكم رجل ؟ رجل واحد لا يوجد ؟!! ولكن لم تلمس كلماته الفطرة المنحرفة المريضة ، ولا القلب الجامد الميت ، ولا العقل المريض الأحمق .

محاولته حماية ضيوفه

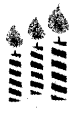
وحاول قدر طاقته أن يحمي ضيوفه ، ولكنه أدرك أنه رجل وحيد ، لن يستطيع أن يهزم رجال قومه كلهم .

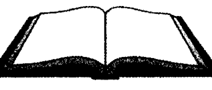
أُسْقِطَ في يد لوط عليه السلام ، أحس ضعفه وهو غريب بين القوم ، نازح إليهم من بعيد بغير عشيرة تحميه ، ولا أولاد ذكور يدافعون عنه ، دخل لوط غاضبًا وأغلق باب بيته ، وضع المزلاج في الباب ووقف يستمع إِلَىٰ الضحكات والضربات التي تنهال علىٰ الباب .

وقف لوط عليه السلام يرتعد وراء الباب حزنًا وأسفًا ، كان الغرباء الثلاثة الذين استضافهم لوط يجلسون هادئين صامتين ، يحف بهم جو من الجلال ، ودهش لوط عليه السلام بينه وبين نفسه من هدوئهم ، وزاد إحساسه بالألم ؛ لأنهم وثقوا به واطمأنوا إليه ، لا يعرفون أنه غير قادر علىٰ حمايتهم ، وازدادت ضربات القوم علىٰ الباب ، وصرخ لوط في لحظة يأس خانق :

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾

تمنى أن تكون له قوة تصدهم عن ضيفه ، وتمنى لو كان له رُكن شديد يحتمي فيه ويأوي إليه ، وقد كان فعلاً يأوي إِلَىٰ ركن شديد ، ركن الله الذي لا يتخلى عن أنبيائه وأوليائه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقرأ هذه الآية : « يَرْحَمُ اللهُ لُوطًا ، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ » (صحيح البخاري : ٣٢٠٧) .



نزول العذاب والانتقام

عندما بلغ الضيق ذروته ، وقال النبي كلمته فطارت مثل عصفور يائس ، تحرك ضيوفه ونهضوا فجأة ، أفهموه أنه يأوي إلى ركن شديد :

﴿ قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ ﴾

لا تجزع يا لوط ولا تخف ، نحن من الملائكة ، ولن يصل إليك هؤلاء القوم ، انكسر الباب فجأة ، واندفع الإعصار المحموم داخل بيت لوط عليه السلام، نهض جبريل عليه السلام ، وأشار بيده إشارة سريعة ، ففقد القوم أبصارهم ، وراحوا يتخبطون داخل الجدران فخرجوا من البيت وهم يظنون أنهم يدخلونه ، طمست إشارة جبريل عليه السلام أبصارهم ، قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾

التفت الملائكة إلى لوط عليه السلام وأوصوه أن يصحب أهله أثناء الليل ويخرج ، وسيسمعون أصواتاً مروعة تزلزل الجبال ، لا يلتفت منهم أحد ، كي لا يصيبه ما يصيب القوم ، سبحان الملك الجبار سبحانه ، أي عذاب هذا ؟ ، هو عذاب من نوع غريب !! يكفي لوقوعه بالمرء مجرد النظر إليه ، أفهموه أن امرأته كانت من الغابرين ، امرأته كافرة مثلهم وستلتفت خلفها فيصيبها ما أصابهم.

اخرج يا لوط فقد جاء أمر ربك ، سأل لوط الملائكة : أينزل الله العذاب بهم الآن ، أنبأوه أن موعدهم مع العذاب هو الصبح :

﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ﴾ ؟!

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾

خرج لوط عليه السلام مع بناته وزوجته ، ساروا في الليل وغذوا السير، واقترب الصبح، كان لوط قد ابتعد مع أهله ، ثم جاء أمر الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [سورة هود : ٨٢-٨٣] .

قال العلماء: اقتلع جبريل عليه السلام ، بطرف جناحه مدنهم السبع من قرارها البعيد ، رفعها جميعًا إلى عنان السماء حتى سمعت الملائكة في السماء أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ، ثم قلب المدن السبع وهوى بها في الأرض ، أثناء السقوط كانت السماء تمطرهم بحجارة من الجحيم ، حجارة صلبة قوية يتبع بعضها بعضًا ، ومعلمة بأسمائهم ، كل واحد منهم يصيبه حجره الخاص به ، نزل عليه خصيصًا من السماء فيهلكه فورًا ، ومقدرة عليهم ، استمر الجحيم يمطرهم ، وانتهى قوم لوط تمامًا ، لم يعد هناك أحد ، نكست المدن على رؤوسها ، وغارت في الأرض ، حتى انفجر الماء من الأرض ، هلك قوم لوط ومحيت مدنهم.

كان لوط عليه السلام يسمع أصواتًا مروعة ، وكان الهواء خلفه يتمزق ، وكان يحاذر أن يلتفت خلفه ، نظرت زوجته نحو مصدر الصوت فانتهت ، تهرأ جسدها وتفتت مثل عمود ساقط من الملح ، قال الله سبحانه وتعالى عن مدن لوط عليه السلام :

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

إنها آية باقية لم تندثر ، يؤكد ذلك قول الله سبحانه وتعالى :

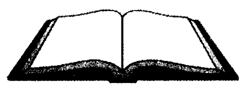
﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾

أي بطريق مسلوك إلى الآن ، وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يعني إنها آية ظاهرة ، قال العلماء: إن مكان المدن السبع ، بحيرة غريبة ، ماؤها أجاج، وكثافة الماء أعظم من كثافة مياه البحر المالحة ، وفي هذه البحيرة صخور معدنية





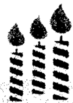

ذائبة ، توحي بأنها الحجارة التي ضرب بها قوم لوط كانت شهبًا مشتعلة ، ويقال : إن البحيرة الحالية التي نعرفها باسم "البحر الميت" في فلسطين ، هي مدن قوم لوط السابقة.

انطوت صفحة قوم لوط ، انمحت مدنهم وأسماؤهم من الأرض ، سقطوا من ذاكرة الحياة والأحياء ، وطويت صفحة من صفحات الفساد ، وتوجه لوط إلىٰ إبراهيم ، زار إبراهيم عليه السلام وقص عليه نبأ قومه ، وأدهشه أن إبراهيم عليه السلام كان يعلم ، ومضى لوط عليه السلام في دعوته إلىٰ الله ، مثلما مضى الحليم الأواه المنيب إبراهيم عليه السلام في دعوته إلىٰ الله سبحانه وتعالى ، مضى الاثنان ينشران الإسلام في الأرض .



من فوائد القصة

١- يود العاصي أن يكون كل الناس عصاة ، ويعيب أهل القذارة الطهارة علىٰ المتطهرين.
٢- إذا انتشرت الفواحش واستُعْلِنَ بها نزل العذاب الأليم ، وعم البلاء العظيم .
٣- إذا كثرت الذنوب عمي القلب ، ولم يبصر إلا ما يهوى ، وانطمست الفطرة ، وصار الإنسان حيوانًا في مسلاخ بشر ، ومن غلبت شهوته عقله فهو أخسُّ عند الله من كلب .
٤- من حقوق الضيف حمايته من الأذى ، ودفع المكروه والسوء عنه .
٥- شدة انتقام الله من العصاة تذهل وتزجر من كان عاقلا .
٦- انتصار الدين هو بقاء الدعوة إلىٰ الله وإهلاك أعدائه .
٧- لا يغني نسب عاص أو أصله عن عذاب الله ، فمن شارك العصاة في معصية عمَّهُ معهم العذاب ، ولا ينجي الله إلا الصالحين المصلحين .
٨- الشهوات تعمي القلب وتصمه ، وما أفلح صاحب شهوة محرمة قط .








إسحق عليه السلام

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ﴾

هو ولد سيدنا إبراهيم عليه السلام من زوجته سارة ، وقد كانت البشارة بمولده من الملائكة عليهم السلام لإبراهيم وسارة لما مروا بهم مجتازين ذاهبين إلىٰ مدائن قوم لوط ؛ ليدمروها عليهم لكفرهم وفجورهم ، ذكره الله في القرآن بأنه ﴿ غُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ ، جعله الله نبيًّا يهدي الناس إلىٰ فعل الخيرات ، جاء من نسله سيدنا يعقوب عليه السلام .

كان ميلادهُ حدثًا خارقًا ، بشرتْ به الملائكةُ ، وورد في البشرى اسم ابنه يعقوب ، وقد جاء ميلاده بعد سنوات من ولادة أخيه إسماعيل ، ولقد قر قلب سارة بمولد إسحق ومولد ابنه يعقوب عليهما السلام ، غير أننا لا نعرف كيف كانت حياة إسحق ، ولا نعرف بماذا أجابه قومه ، كل ما نعرفه أن الله أثنى عليه كنبي من الصالحين :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾

وقال عز وجل :

﴿ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾



من فوائد القصة

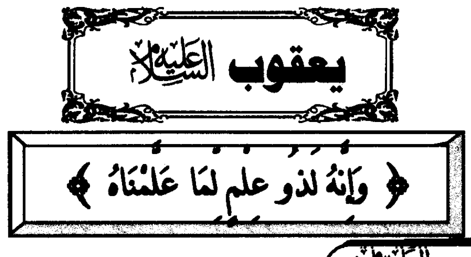
١ من رضي بقدر الله ملأ الله قلبه رضًا ، وقد يعطيه ما منعه حتى تقر عينه ، تأمل كيف أعطيت سارة الولد بعد هذا العمر الطويل .

٢ وظيفة الأنبياء وأتباعهم هداية الناس إلىٰ الخيرات ، وتحذيرهم من المنكرات .









﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾

هذا هو النبي يعقوب عليه السلام :

هو أبو الأسباط يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ، واسمه أيضًا إسرائيل ، كان نبيًا إلى قومه ، ذكر الله سبحانه وتعالى ثلاثة أجزاء من قصته ، بشارة ميلاده ، وقد بشر الملائكة به إبراهيم جده ، وسارة جدته ، أيضًا ذكر الله سبحانه وتعالى وصيته عند وفاته ، ثم جاء ذكره في قصة يوسف عليه السلام .

أثنى الله سبحانه وتعالى عليه في قصة يوسف عليه السلام فقال :

﴿ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

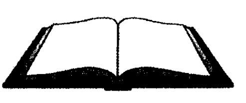
وهو والد يوسف عليه السلام والأسباط الإثنى عشر ، وكل أنبياء بني إسرائيل من نسله، وآخرهم عيسى عليه السلام .

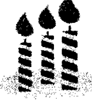
وإنك حين تتأمل في حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام تجد كثرة الابتلاءات التي تعرض لها تثير العجب ! !

ومما يثير العجب أكثر أنه أتمها كلها بما يرضي ربه ، ثم كأنه صارت هذه سمة عامة في ذريته من بعده صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . .

انظر إلى حياة يعقوب عليه السلام ، تجد فيها أيضًا هذا النوع من الابتلاءات الشديدة التي لا يقوى عليها إلا الرجال أصحاب اليقين الراسخ والعزم الماضي والحب المتألق لله عز وجل .

إن حب الأولاد أمر فطري ، زرعه الله عز وجل في القلوب ، ولئن كان ابتلاء إبراهيم عليه السلام في ذبح ابنه بيده ابتلاء شديدًا ، إلا أن قصة غياب يوسف عليه السلام عن أبيه أربعين سنة وما تلا ذلك من غياب أخيه أيضًا من الشدة بمكان .



تعال للنظر كيف واجه هذا النبي الكريم هذا البلاء العظيم . .

لقد ابتلي بلاء شديدًا في ابنه يوسف ، ولكنه صبر وتحمل وتذرع بالصبر عليه السلام عند فقد ولديه ، يخبرنا ربنا سبحانه وتعالى أنه عند فقد ولده يوسف ، وكان أعز ما يملك ، حتى أنه قبل أن يأخذه إخوته قال :

﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ ﴾

يعني مجرد غيابه من أمام عينيه يحزنه ذلك ، فهل تتصور كيف يكون حاله حين يقولون له : أكله الذئب ؟!

سبحان الملك ! يقف هذا النبي العظيم موقفًا لا يستطيعه أب ، يعلم بخيانة أولاده ، ويعلم جيدًا أنهم يتعمدون إخفاء الحقيقة ، وأن وراء هذا الأمر جريمة ، يقول هذا النبي الصالح :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

إنه صبر تعجز عنه الجبال الشُم !!

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ : وكما يقول العلماء أن الصبر الجميل هو الذي لا ضجر معه ولا شكوى معه ، وصبر نبي الله يعقوب صبرًا جميلا حتى جاءت المصيبة الثانية . .

أصر أولاده وأخذوا يتحايلون في أخذ ابنه الآخر شقيق يوسف عليه السلام ، فسمح لهم بعد لأي ، ثم عادوا بدونه ، وكانت مفاجأة غير متوقعة أشد من الأولى . .

وإنه لا ينقضي والله العجب من موقف هذا النبي الصالح ، إنك تجده يقول نفس الجملة بلا تغيير يذكر :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾

ومع زيادة البلاء يزيد الرجاء ، يعلو في الله رجاؤه حتى يقول :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

ثم يقول القانت الصابر المؤمن صاحب اليقين الثابت والبصيرة الثاقبة :

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾



يعيش حياته عليه السلام صابرًا محتسبًا محبًا لله راضيًا بقضائه وقدره ، ابتلي فما خرج من لسانه لفظة إلا وهي نور يتلألأ ، فظل ذكره حسنًا واسمه جميلا .

عاش حميدًا . . ومات حميدًا ، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام . .

وكان من جزاء صبره في آخر عمره أن قرت عينه باجتماع ولده ، ورأى بعينه تأويل رؤيا ولده.

ونعرف أيضًا مقدار تقواه من هذه الإشارة السريعة إلىٰ وفاته ، نعلم أن الموت كارثة تدهم الإنسان فتنسيه رسمه ، ولا يذكر غير همه ومصيبته ، غير أن يعقوب لا ينسى وهو يموت أن يدعو إلىٰ ربه .

لم يكن يشغله في لحظاته الأخيرة في الحياة سوى الاطمئنان علىٰ أن أولاده لن يتركوا الإسلام من بعده ، وأنهم سيحافظون علىٰ دينه :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

وصيته عند موته

إنَّ هذا المشهد بين يعقوب عليه السلام وبنيه في ساعة الموت ولحظات الاحتضار ، مشهد عظيم الدلالة ، نحن أمام ميت يحتضر ، ما القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار ؟ ما الأفكار التي تعبر ذهنه الذي يتهيأ للانزلاق مع سكرات الموت ؟ ما الأمر الخطير الذي يريد أن يطمئن عليه قبل موته ؟ ما التركة التي يريد أن يخلفها لأبنائه وأحفاده ؟ ما الشيء الذي يريد أن يطمئن قبل موته علىٰ سلامة وصوله للناس ، كل الناس ؟

ستجد الجواب عن هذه الأسئلة كلها في سؤاله هو :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ﴾

هذا ما يشغله ويؤرقه ويحرص عليه في سكرات الموت ، قضية الإيمان بالله ، هي القضية الأولى والوحيدة ، وهي الميراث الحقيقي الذي لا ينخره السوس ولا يفسده ، وهي الذخر والملاذ .

قال أبناء يعقوب عليه السلام : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدًا، ونحن له مسلمون ، والنص قاطع في أنهم بعثوا علىٰ الإسلام ، إن خرجوا عنه ، خرجوا من رحمة الله ، وإن ظلوا فيه ، أدركتهم الرحمة.

واطمأن يعقوب عليه السلام وقرت نفسُهُ لجواب أولاده عليه ، وذهب للقاء ربه راضيًا مطمئنًا ، مات يعقوب عليه السلام وهو يسأل أبناءه عن الإسلام ، ويطمئن علىٰ عقيدتهم .

من فوائد القصة

١. أهم قضية يهتم بها الإنسان ويوصي بها أهله وذريته الإيمان بالله .
٢. الميراث الحقيقي الذي ينفع الأبناء هو التوحيد والإسلام والتقوى ، فمن ورَّث أبناءه التقوى فقد ورثهم فضلا عظيمًا ، وياله - والله - من ميراث ! !
٣. الابتلاء أصل في حياة الأنبياء والصالحين ، ولئن كان الله يبتلي أولياءه ؛ فإنما يبتلي ليهذب لا ليعذب ، وبعد البلاء يكون الفرج ، غاب يوسف عن يعقوب عليه السلام ، ثم فرج الله الكرب وردَّه إليه ، ورد عليه بصره .
٤. بصلاح الوالد يحفظ الولد : ﴿ فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظاً ﴾ [سورة يوسف : ٦٤] ، ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً ﴾ [سورة الكهف : ٨٢] ، وقال بعض السلف لولده : يا بني ، والله إني أزيد في صلاتي من أجل أن أحفظ فيك .
٥. أخلص الوصايا ما كانت في لحظات المنايا ، حيث لا يبغي بها الإنسان عرضًا من الدنيا ، أو ثناءً من الناس .
٦. من كانت له وصية فليبادر من الآن بتدوينها ، فقد تشغله سكرات الموت عن ذكرها ، قال رسول الله ﷺ : « مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ » (صحيح البخاري : ٢٥٨٧) .





﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾

رؤيا يوسف عليه السلام

تبدأ القصة بقول المولى سبحانه وتعالى في كتابه الكريم :

﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾

يحكي الصبي الصغير لأبيه رؤياه ، أدرك يعقوب عليه السلام بحدسه وبصيرته أن وراء هذه الرؤية شأنًا عظيمًا لهذا الغلام ، فغاية ما يحلم به الصغير أن تكون الكواكب بين يديه يلعب بها كيفما شاء، أما أن يراها متمثلة في صورة (العقلاء) وتسجد له تعظيمًا فذلك شأن آخر ، لذلك نصحه بأن لا يقص رؤياه على إخوته خشية أن يستشعروا ما وراءها لأخيهم الصغير –غير الشقيق، حيث كان يعقوب قد تزوج من امرأة ثانية أنجبت له يوسف وشقيقه– فيجد الشيطان من هذا ثغرة في نفوسهم ، فتمتلئ نفوسهم بالحقد ، فيدبرون له أمرًا يسوؤه ولهذا:

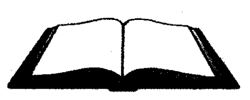
﴿ قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾

لقد أحس يعقوب عليه السلام وهو ابن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام ، أن هذا الشأن متعلق بالدين والصلاح ، فتوقع أن يكون يوسف هو الذي ستحل عليه البركة وتتمثل فيه السلسلة المباركة من بيت إبراهيم عليه السلام .

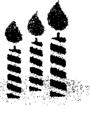
اصطفاء الله له

﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ﴾

كذلك يختارك ربك ، كذلك يصطفيك ، ومعنى التأويل هو معرفة المآل، وكشف النتيجة ، وإدراك أسرار لم تقع بعد ، فما الأحاديث ؟







قالوا : إنها الرؤى والأحلام ، سيستطيع يوسف عليه السلام فيما بعد أن يفسر الأحلام والرؤى فيعرف من رموزها الغامضة ما يقع من أحداث ، وقالوا : إنَّ الأحاديث هي الأحداث ، سيعرف مآل الأحداث التي تنتهي إليه من بداياتها وأوائلها ، سيلهمه الله إلهامًا أن يعرف.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

ردَّ النبي العلم والحكمة إلى الله في ختام حديثه ، فجاء ذلك مناسبًا للبدء .

عمومًا .. استمع الأب إلى رؤيا ابنه وحذره أن يحكيها لأخوته ، استجاب يوسف عليه السلام لتحذير أبيه ، فلم يُحَدّث أخوته بما رأى ، وأغلب الظن أنهم كانوا يحسدونه إلى الحد الذي يصعب فيه أن يطمئن إليهم ويحكي لهم دخائله الخاصة وأحلامه .

مكيدة إخوة يوسف له

اجتمع أخوة يوسف يتحدثون في أمره :

﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

أي نحن مجموعة قوية تدفع وتنفع ، فأبونا مخطئ في تفضيل هذين الصبيين على مجموعة من الرجال النافعين الدافعين ..

اقترح أحدهم حلا للموضوع :

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾

تخلصوا من يوسف ، اقتلوه حتى أو اذهبوا به بعيدًا عن عين أبيكم بأي طريقة ليراكم ، ويخل لكم اهتمامه .

إنه الحسد ! وتدخل الشيطان ضَخَّم حُبَّ أبيهم ليوسف وإيثاره عليهم في نظرهم حتى جعلها توازي القتل – أكبر جرائم الأرض قاطبة بعد الشرك بالله – وطرحه في أرض بعيدة نائية مرادف للقتل ؛ لأنه سيموت هناك لا محالة .

ولماذا هذا كله؟ !حتى لا يراه أبوه فينساه فيوجه حبه كله لهم،ومنْ ثَمَّ يتوبون عن جريمتهم ! !

﴿ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾



قال قائل منهم – حرك الله سبحانه وتعالى أعماقه بشفقة خفية ، أو أثار الله في أعماقه رعبًا مهولا من القتل – قال هذا القائل : ما الداعي لقتله ؟ أنتم تريدون الخلاص منه ، تعالوا نلقه في بئر تمرُّ عليها القوافل ، ستلتقطه قافلة وترحل به بعيدًا ، سيختفي عن وجه أبيه ، ويتحقق غرضنا من إبعاده :

﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾

انهزمت فكرة القتل ، واختيرت فكرة النفي والإبعاد ، نفهم من هذا أن الإخوة ، رغم شرهم وحسدهم ، كان في قلوبهم ، بعض خير لم يمت بعد ، فهم أبناء نبي ، ونشأوا في عائلة الأنبياء .

ومن ثم توجه الأبناء لأبيهم يطلبون منه السماح ليوسف بمرافقتهم ، إنهم يريدون أن ينتزعوه من يد أبيه وقلبه بأي طريقة ، فدار الحوار بينهم وبين أبيهم بنعومة وعتاب خفي ، وإثارة للمشاعر :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ ؟ !

أيمكن أن يكون يوسف أخانا ، وأنت تخاف عليه من بيننا ولا تستأمنّا عليه ، ونحن نحبه وننصح له ونرعاه ؟ ! لماذا لا ترسله معنا يرتع ويلعب ؟ ! أفضل لصحته الخروج واللعب والانطلاق ، انظر إلى وجهه الأصفر من فرط البقاء في البيت ، إن لون الطفل يشحب ؛ لأنه لا يمارس في طفولته اللعب :

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

وردًا على العتاب الاستنكاري الأول جعل يعقوب عليه السلام ينفي – بطريقة غير مباشرة – أنه لا يأمنهم عليه ، ويعلل احتجازه معه بقلة صبره على فراقه وخوفه عليه من الذئاب :

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾

قال : إنَّ مجرد غيابه عن عينيه يجلب له الحزن والألم . .

ففندوا فكرة الذئب الذي يخاف أبوه أن يأكله ، نحن عشرة من الرجال ، فهل نغفل عنه ونحن كثرة ؟ ! نكون خاسرين غير أهل للرجولة لو وقع ذلك . .

لن يأكله الذئب ولا داعي للخوف عليه :

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾

محنة الإلقاء في الجب

وافق الأب تحت ضغط أبنائه ؛ ليتحقق قدر الله وتتم القصة كما تقتضي مشيئة الله !

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾

صحبوا يوسف عليه السلام في اليوم التالي وذهبوا به إلىٰ الصحراء ، اختاروا بئرًا لا ينقطع عنها مرور القوافل وحملوه وقاموا بإلقائه في البئر ، وأوحى الله سبحانه وتعالى إلىٰ يوسف عليه السلام أنه ناج فلا يخاف ، وأنه سيلقاهم بعد يومهم هذا وينبئهم بما فعلوه .

﴿ وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاؤُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾

عند العشاء جاء الأبناء باكين ؛ ليحكوا لأبيهم قصة الذئب المزعومة . .

لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك الكذبة ، فلو كانوا أهدأ أعصابًا ما فعلوها من المرة الأولى التي يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم ! ولكنهم كانوا متعجلين لا يصبرون ، يخشون ألا تواتيهم الفرصة مرة أخرى ، كذلك كان التقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليلا علىٰ التسرع ، وقد كان أبوهم يحذرهم منها أمس ، وهم ينفونها ، ويكادون يتهكمون بها ، فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا في الصباح ؛ ليتركوا يوسف للذئب الذي حذرهم أبوهم منه أمس ! ويمثل هذا التسرع جاءوا علىٰ قميصه بدم كذب لطخوه به في غير إتقان ونسوا في انفعالهم أن يمزقوا قميص يوسف ، جاءوا بالقميص كما هو سليم، ولكنَّه ملطخٌ بالدم ، وانتهى كلامهم بدليل قوي علىٰ كذبهم حين قالوا: ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ أي : وما أنت بمطمئن لما نقوله ، ولو كان هو الصدق ؛ لأنك تشكُّ فينا ولا تطمئن لما نقوله أصلا .



أدرك يعقوب من دلائل الحال ومن نداء قلبه ومن الأكذوبة الواضحة ، أنَّ يوسف لم يأكله الذئب، وأنهم دبروا له مكيدة ما ، وأنهم يلفقون له قصة لم تقع ، فواجههم بأنَّ نفوسهم قد حسنت لهم أمرًا منكرًا وذللته وزينته ويسّرت لهم ارتكابه ؛ وأنه سيصبر متحملا متجملا لا يجزع ولا يفزع ولا يشكو ، مستعينًا بالله علىٰ ما يلفقونه من حيل وأكاذيب :

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾

أثناء وجود يوسف بالبئر، مرت عليه قافلة ، كانت في طريقها إلىٰ مصر ، قافلة كبيرة، - سارت طويلا حتى سميت سيارة - كلها تتجه إلىٰ البئر ، توقفوا للتزود بالماء ، أدلي الدلو في البئر ، تعلق يوسف به ، ظن من دلاه أنه امتلأ بالماء فسحبه ، يا للبشرى! هذا غلام ، حكمه حكم الأشياء المفقودة التي يلتقطها أحد الناس ؛ فإنه يصير عبدًا لمن التقطه، هكذا كان قانون ذلك الزمان البعيد . .

فرح به من وجده في البداية ، ثم زهد فيه حين فكر في همّه ومسئوليته ، وزهد فيه ؛ لأنه وجده صبيًا صغيرًا ، وعوّل علىٰ التخلص منه لدى وصوله إلىٰ مصر ، ولم يكد يصل إلىٰ مصر حتى باعه في سوق الرقيق بثمن بخس دراهم معدودة ، ومن هناك اشتراه رجل تبدو عليه الأهمية .

انتهت المحنة الأولى في حياة هذا النبي الكريم، لتبدأ المحنة الثانية،والفصل الثاني من حياته:

محنة الرق

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾



انظر كيف يكشف الله سبحانه وتعالى مضمون القصة البعيد في بدايتها ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، لقد انطبقت جدران العبودية على يوسف ، أُلقيَ في البئر، أُهين ، حُرِمَ من أبيه ، التُقطَ من البئر ، صار عبدًا يباع في الأسواق ، اشتراه رجل من مصر، صار مملوكًا لهذا الرجل ، ازدادت المأساة ، وصار يوسف بلا حول ولا قوة ، هكذا يظن أي إنسان ، غير أن الحقيقة شيء يختلف عن الظن تمامًا .

ما نتصور نحن أنها مأساة ومحنة وفتنة ، كان هو أول سلم يصعده يوسف في طريقه إلى مجده ، ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ ، سبحانه وتعالى ينفذ تدبيره رغم تدبير الآخرين ، ينفذ من خلاله تدبير الآخرين فيفسده ويتحقق وعد الله، وقد وعد الله يوسف بالنبوة.

وها هو ذا يُلقي محبته على صاحبه الذي اشتراه ، وها هو ذا السيد يقول لزوجته : أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا ، وليس هذا السيد رجلا هيّن الشأن ؛ إنما هو رجل مهم ، رجل من الطبقة الحاكمة في مصر ، سنعلم بعد قليل أنه وزير من وزراء الملك ، وزير خطير سماه القرآن "العزيز"، وكان قدماء المصريين يطلقون الصفات كأسماء على الوزراء ، فهذا العزيز ، وهذا العادل ، وهذا القوي ، إلى آخره ، وأرجح الآراء أن العزيز كان وقتها رئيس وزراء مصر .

تمكين الله ليوسف في الأرض

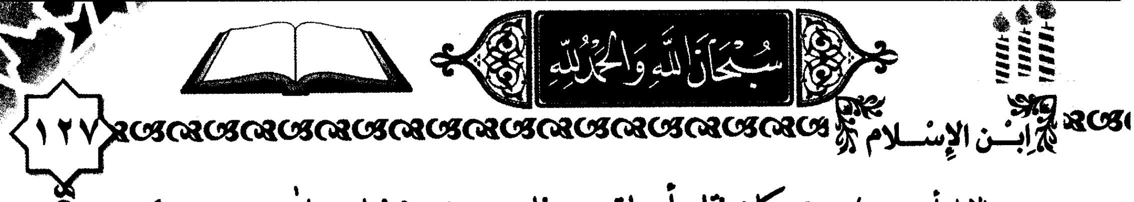
وهكذا مكن الله ليوسف في الأرض ، سيتربى كصبي في بيت رجل يحكم ، وسيعلمه الله من تأويل الأحاديث والرؤى ، وسيحتاج إليه الملك في مصر يومًا ، ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، تم هذا كله من خلال فتنة قاسية تعرض لها يوسف.

ثم يبين لنا المولى سبحانه وتعالى كرمه على يوسف فيقول :



﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

كان يوسف أجمل رجل في عصره ، كان وجهه يحمل طاقة من الجمال البشري المدهش ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أُعْطِيَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَطْرَ الْحُسْنِ » (صحيح ،



مسند الإمام أحمد : ٢٨٦/٣) وكان نقاء أعماقه وصفاء سريرته يضفيان على وجهه مزيدًا من الجمال ، وأوتي صحة الحكم على الأمور ، وأوتي علمًا بالحياة وأحوالها ، وأوتي أسلوبًا في الحوار يخضع قلب من يستمع إليه ، وأوتي نبلا وعفة ، جعلاه شخصية إنسانية لا تقاوم.

وأدرك سيده أن الله قد أكرمه بإرسال يوسف إليه ، اكتشف أنَّ يوسف أعظم من رأى في حياته أمانةً واستقامةً وشهامةً وكرمًا ، وجعله سيده مسئولا عن بيته وأكرمه وعامله كابنه ، وقال لزوجته :

﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾

محنة امرأة العزيز

ثم تبدأ محنة يوسف الثانية وهي أشد وأخطر من المحنة الأولى ، جاءته وقد أوتي صحة الحكم وأوتي العلم -رحمة من الله- ليواجهها وينجو منها جزاء إحسانه الذي سجَّله الله له في قرآنه .

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾

لما كان يوسف جميلا في خلقته ، ورائعًا في حديثه وأدبه ، وعاليًا في خُلُقه ؛ فإنه ينال إعجاب أي إنسان ، ولما كان في بيت العزيز يعامله الجميع كابن من أبناء عزيز مصر فقد اقتربت منه زوجته فيما يبدو أكثر من اللازم ، فوقعت في عشقه ، وأرادته لنفسها ، وراودته على الفاحشة ، ولكن كيف ؟ ومع من ؟ إنه يعرف جيدًا من هو ، فليس له أن يخطئ مهما كانت .

ولذا فإن هذا النبي الكريم وقف في وجه سيدته بمنتهى الحزم والحسم قائلا :

﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

أُعيذُ نفسي بالله أن أعصيَ اللهَ الذي أكرمني بأن نجاني من الجب وجعل في هذه الدار مثواي الطيب الآمن ، ولا يفلح الظالمون الذين يتجاوزون حدود الله ، فيرتكبون ما تدعينني اللحظة إليه.



﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾

قال أبو حاتم : كنت أقرأ غريب القرآن علىٰ أبي عبيدة ، فلما أتيت علىٰ قول الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ، قال أبو عبيدة : هذا علىٰ التقديم والتأخير ، بمعنى ولقد همت به ، ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها ، يستقيم هذا التفسير مع عصمة الأنبياء ، كما يستقيم مع الآيات التي تلحقه مباشرة ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ وهذه الآية التي تثبت أن يوسف من عباد الله المخلصين ، تقطع في نفس الوقت بنجاته من سلطان الشيطان ، قال الله ﷻ لإبليس يوم الخلق :

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾

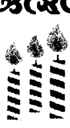
وإبليس نفسه يعلم ذلك : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ، وما دام يوسف من عباد الله المخلصين ، فقد وضح الأمر بالنسبة إليه ، وليس للشيطان سبيل عليه ، إنه كان في نقاء الملائكة ، لقد تعرض لإغراء طويل فقاومه ولم تمل نفسه يومًا، ثم أسكنها تقواها كونه مطلعًا علىٰ برهان ربه ، عارفًا أنه يوسف بن يعقوب النبي ، ابن إسحق النبي، ابن إبراهيم جد الأنبياء وخليل الرحمن عليهم السلام .

قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ » (صحيح البخاري : ٣٢٠٢) .

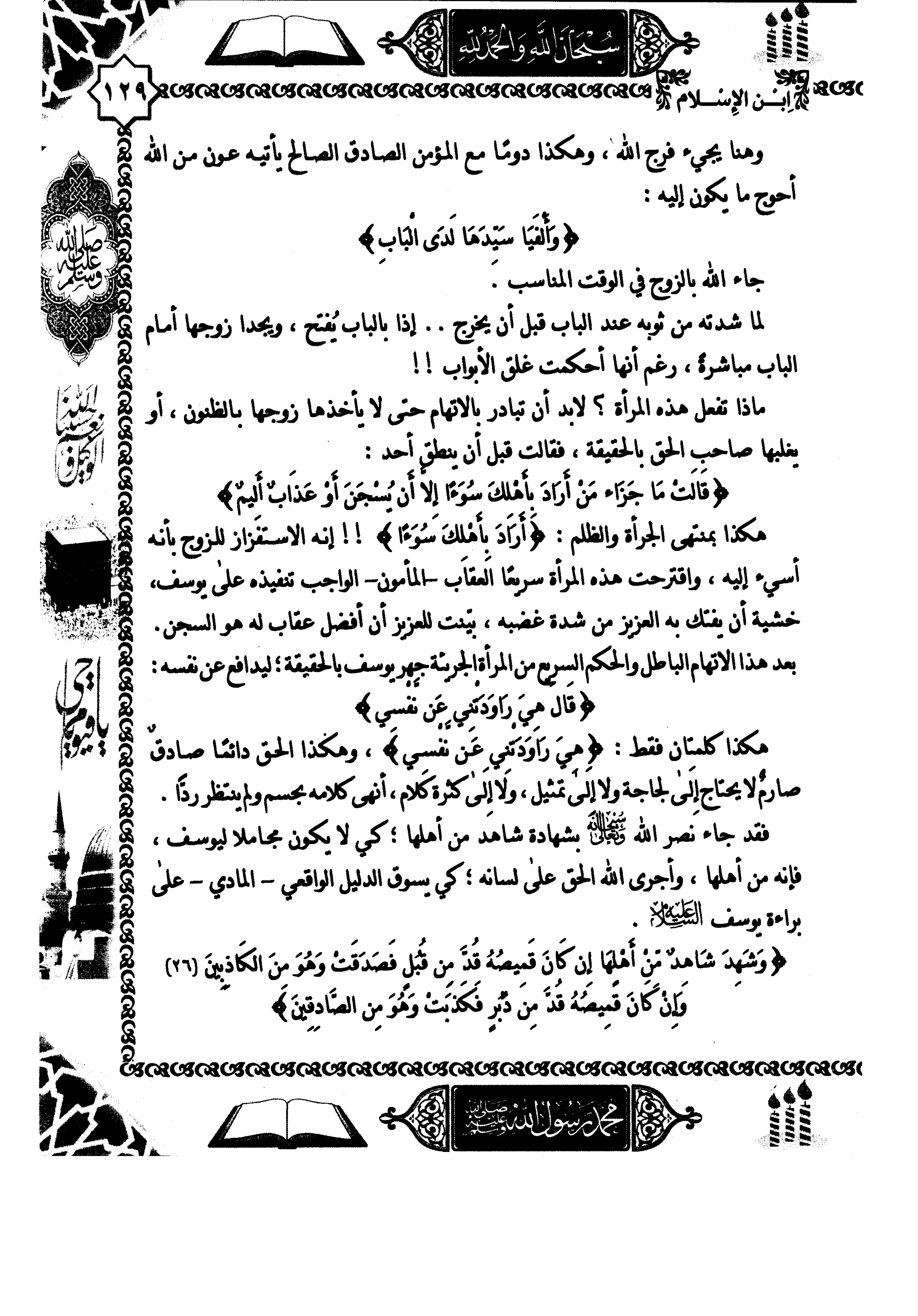
وهنا .. بعد هذه المراودة المكشوفة يبدو أن يوسف عليه السلام آثر الانصراف حتى لا يتطور الأمر أكثر ، فأسرع نحو الباب ليخرج ، لكن امرأة العزيز لحقت به لتمسكه ، فتقع المفاجأة :

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾

حاصرته تلك المرأة ، ولما جرى منها جرت خلفه قبل أن يصل إلىٰ الباب ، وشدته من قميصه من الخلف لتجذبه إليها كي لا يخرج ويفر منها .







وهنا يجيء فرج الله ، وهكذا دومًا مع المؤمن الصادق الصالح يأتيه عون من الله أحوج ما يكون إليه :

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾

جاء الله بالزوج في الوقت المناسب .

لما شدته من ثوبه عند الباب قبل أن يخرج . . إذا بالباب يُفتح ، ويجدا زوجها أمام الباب مباشرةً ، رغم أنها أحكمت غلق الأبواب ! !

ماذا تفعل هذه المرأة ؟ لابد أن تبادر بالاتهام حتى لا يأخذها زوجها بالظنون ، أو يغلبها صاحب الحق بالحقيقة ، فقالت قبل أن ينطق أحد :

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

هكذا بمنتهى الجرأة والظلم : ﴿ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ ! ! إنه الاستفزاز للزوج بأنه أسيء إليه ، واقترحت هذه المرأة سريعًا العقاب -المأمون- الواجب تنفيذه على يوسف، خشية أن يفتك به العزيز من شدة غضبه ، بيّنت للعزيز أن أفضل عقاب له هو السجن.

بعد هذا الاتهام الباطل والحكم السريع من المرأة الجريئة جهر يوسف بالحقيقة ؛ ليدافع عن نفسه :

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾

هكذا كلمتان فقط : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ ، وهكذا الحق دائمًا صادقٌ صارمٌ لا يحتاج إلى لجاجة ولا إلى تمثيل ، ولا إلى كثرة كلام ، أنهى كلامه بحسم ولم ينتظر ردًا .

فقد جاء نصر الله سبحانه وتعالى بشهادة شاهد من أهلها ؛ كي لا يكون مجاملا ليوسف ، فإنه من أهلها ، وأجرى الله الحق على لسانه ؛ كي يسوق الدليل الواقعي – المادي – على براءة يوسف عليه السلام .

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ ﴾

أمرهم الشاهد بالنظر للقميص ، فإن كان ممزقًا من الأمام فذلك من أثر مدافعتها له وهو يريد الاعتداء عليها فهي صادقة وهو كاذب ، وإن كان قميصه ممزقًا من الخلف فهو إذًا من أثر تملصه منها وتعقبها هي له حتى الباب، فهي كاذبة وهو صادق .

﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

لما تأكد الزوج من خيانة زوجته ، لم يثر دمه في عروقه ولم يصرخ ولم يغضب ، فرضت عليه قيم الطبقة الراقية التي وقع فيها الحادث أن يواجه الموقف بلباقة وتلطف ، نسب ما فعلته إلى كيد النساء عمومًا ، وصرح بأن كيد النساء عمومًا عظيم .

بعدها التفت الزوج إلى يوسف قائلا له :

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ﴾

أهمل هذا الموضوع ولا تعره اهتمامًا ، ولا تتحدث به .

هذا هو المهم ، المحافظة على الظواهر ، ثم يوجه عظة –مختصرة– للمرأة التي ضبطت متلبسة بمراودة فتاها عن نفسه وتمزيق قميصه :

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾



محنة النسوة من أهل المدينة

انتهى الحادث الأول ، لكن الفتنة لم تنته ، فلم يفصل سيد البيت بين المرأة وفتاها ، كل ما طلبه هو إغلاق الحديث في هذا الموضوع ، غير أن هذا الموضوع بالذات لا يمكن إغلاقه ، وهذا الأمر حتى وإن أمر بإغلاقه يصعب تحقيقه في قصر يمتلئ بالخدم والخادمات والمستشارين والوصيفات.

بدأ الموضوع ينتشر ، خرج من القصر إلى قصور الطبقة الحاكمة أو الراقية يومها ، ووجدت فيه نساء هذه الطبقة مادة شهية للحديث ، إن خلو حياة هذه الطبقات من المعنى الجاد ، ومن العمل الجاد ، ومن الهموم الحقيقية ، وشغف هذه الطبقة باللعب والكلام، وانصرافها إلى اللهو ، يخلعان أهمية قصوى على الفضائح التي ترتبط بشخصيات



شهيرة ، وهكذا الوضع دائمًا مع الفراغ العملي والعقدي ، يكثر الكلام بالباطل ، فتكون الفضائح مادة دسمة للفكاهة ، وزاد حديث المدينة :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

وانتقل الخبر من فم إلىٰ فم ، ومن بيت إلىٰ بيت ، حتى وصل لامرأة العزيز :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾

قررت امرأة العزيز أن تعدَّ مأدبة كبيرة في القصر ، وندرك من هذا أنهن كن من نساء الطبقة الراقية ، فهن اللواتي يدعين إلىٰ المآدب في القصور ، ويبدو أنهن كن يأكلن وهن متكئات علىٰ الوسائد والحشايا ، فأعدتْ لهنَّ هذا المتكأ ، واختارت ألوان الطعام والشراب بعناية بالغة بحيث أنه لابد أن يحتاج إلىٰ سكاكين ، وأمرت أن توضع السكاكين الحادة إلىٰ جوار الطعام المقدم ، ووجهت الدعوة لكل من تحدثت عنها ، ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ ، وبينما هن منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة ، فاجأتهن بيوسف :

﴿ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ بُهِتْنَ لطلعته ، ودُهِشْنَ ، ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ وجرحن أيديهن بالسكاكين للدهشة المفاجئة ، ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ وهي كلمة تنزيه تقال في هذا الموضع تعبيرًا عن الدهشة بصنع الله ، ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ يتضح من هذه التعبيرات أن شيئًا من ديانات التوحيد تسربت لأهل ذلك الزمان في هذه البلاد .

إنه الذهول الذي أصابهن لرؤية جمال يوسف ، وكان هذا هو المقصود من هذا المتكأ وهذه الدعوة وتلك السكاكين ، كي يظل هذا الجرح في أيديهن مذكرًا لهن بخطئهن في لومها إذ راودته .

ورأت المرأة أنها انتصرت علىٰ نساء طبقتها ، وأنهن لقين من طلعة يوسف الدهش والإعجاب والذهول ، فقالت قولة المرأة المنتصرة ، التي لا تستحي أمام النساء من بنات

جنسها وطبقتها ، والتي تفتخر عليهن بأنَّ هذا في متناول يدها ؛ وإن كان قد استعصم في المرة الأولى فهي ستحاول المرة تلو الأخرى إلى أن يلين :

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

انظرن ماذا لقيتن منه من البهر والدهش والإعجاب ! لقد بهرني مثلكن فراودته عن نفسه لكنه استعصم ، وإن لم يطعني سآمر بسجنه لأذله .

أمام هذه الدعوات استنجد يوسف عليه السلام بربه ؛ ليصرف عنه محاولاتهن لإيقاعه في حبائلهن ، خيفة أن يضعف في لحظة أمام الإغراء الدائم ، فيقع فيما يخشاه على نفسه، دعا يوسف الله سبحانه وتعالى دعاء الإنسان العارف ببشريته ، الذي لا يغتر بعصمته ؛ فيريد مزيدًا من عناية الله وحياطته ، ويعاونه على ما يعترضه من فتنة وكيد وإغراء :

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

واستجاب له الله سبحانه وتعالى وهو الكريم الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء، وصرف عنه كيد النسوة :

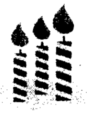
﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

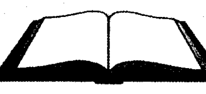
وهذا الصرف قد يكون بإدخال اليأس في نفوسهن من استجابته لهن ، بعد هذه التجربة ؛ أو بزيادة انصرافه عن الإغراء حتى لا يحس في نفسه أثرًا منه ، أو بهما جميعًا ، وهكذا أكرمه الله سبحانه وتعالى واجتاز يوسف عليه السلام المحنة الثالثة بلطف الله ورعايته ، فهو سبحانه وتعالى الذي سمع الكيد ويسمع الدعاء ، ويعلم ما وراء الكيد وما وراء الدعاء .

ما انتهت هذه المحنة الثالثة إلا لتبدأ الرابعة ، لكن هذه الرابعة هي آخر محن الشدة .

محنة دخول السجن

يبدأ هذا الفصل من حياة يوسف عليه السلام بدخوله السجن .



ربما كان دخوله للسجن بسبب انتشار قصته مع امرأة العزيز ونساء طبقتها ، فلم يجد أصحاب هذه البيوت طريقة لإسكات هذه الألسنة سوى سجن هذا الفتى الذي دلت كل الآيات على براءته ؛ لتنسى القصة ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾

وهكذا ترسم الآية الموجزة جو هذا العصر بأكمله ، جو الفساد الداخلي في القصور ، جو الأوساط الأرستقراطية ، وجو الحكم المطلق .

إنَّ حلول المشكلات في الحكم المطلق هي السجن ، وليس هذا بغريب على من يعبد آلهة متعددة ، كانوا على عبادة غير الله ، وها نحن أولاء نرى في قصة يوسف عليه السلام شاهدًا حيًّا يصيب حتى الأنبياء ، أصدروا قرارًا باعتقاله وأدخل السجن ، بلا قضية ولا محاكمة ، ببساطة ويسر ، لا يصعب في مجتمع تحكمه آلهة متعددة أن يسجن بريء ، بل لعل الصعوبة تكمن في محاولة شيء غير ذلك .

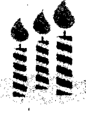
والعجب أن ذلك يحدث بعدما رأوا العلامات والأدلة على طهارته ، ونزاهته ، وصدقه ، هكذا بمنتهى البساطة ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ، كأنهم قالوا : بصفة مؤقتة.

دخل يوسف السجن ثابت القلب هادئ الأعصاب أقرب إلى الفرح ؛ لأنه نجا من إلحاح زوجة العزيز ورفيقاتها ، وثرثرة وتطفلات الخدم ، كان السجن بالنسبة إليه مكانًا هادئًا يخلو فيه ويتفكر في خلق الله .

ويقص الله سبحانه وتعالى علينا قصة يوسف في السجن من أولها ؛ لأنها حقًّا مليئة بالعظات والعبر ، يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾





هكذا علامات الصلاح والإحسان والخير والبركة والعبادة لا تخفى ، وجد في السجن رجلين ، وبمجرد أن رأياه توجها إليه بالسؤال طمعًا في إحسانه :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

هكذا قالا : نحن نراك من أهل الإحسان ، واضح عليك ، وقص كل منهما عليه رؤيا رآها ، وقبل أن يجيب لابد أن يثبت لهما أنه على علم بهذه المسألة ، وهي تأويل الأحاديث، وهكذا فن الدعوة ، لابد من إثبات الكفاءة أولا قبل الدعوة ، فهذا أول سبيل لقبول الدعوة ، ألم تر إلى النبي محمد ﷺ حين أراد أن يدعو قومه قال : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟» قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبًا، قال : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ » (صحيح البخاري : ٤٦٨٧) ، فأثبت ابتداءً أنه صادق ، وهكذا أراد يوسف عليه السلام أن يثبت الكفاءة فقال :

﴿ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾

ثم انتهزها فرصة للدعوة إلى الله ، لم يمنعه السجن من مهمته الأصلية وهي الدعوة ، لم يحمل هم نفسه ويجلس مهمومًا حزينًا ، بل استثارهم قائلا :

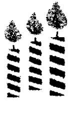
﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾

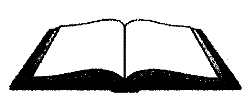
أخبرهما بنسبه ونسبته ، وأثبت لهما أصله وفصله ، ودعاهما إلى الله ربه ، وحذرهما من الشرك وأهله ، ودعاهما للإيمان بالآخرة فهي المرجع والمآب .

ثم فاجأهما بسؤال ، لا يملك من يجيب عليه إلا الإذعان والخضوع :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

هكذا بالإلزام ، وبمنتهى الإخلاص ، يحملهما على الاعتراف بالحق والتسليم للملك القهار .





ثم وبنفس المهارة ينفرهما من خلاف ما يقول :

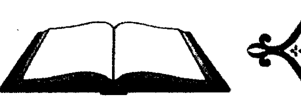
﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

كان يقيم عليهما الحجة بتساؤلاته الهادئة ، وحواره الذكي ، وصفاء ذهنه ، ونقاء دعوته ، وهكذا استغل يوسف الصديق عليه السلام الفرصة في تعليم السجينين ودعوتهما إلى التوحيد ؛ لإنجائهما من سجن الشرك قبل سجن العزيز ، ومن سجن القلب قبل سجن الجسد ، وأنهى القضية بمنتهى الإحسان ، والإجابة على السؤال بمنتهى الثقة :

﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾

انتهت قضية السؤال ، فماذا أنتما فاعلان في قضيتي ؟!

بعدما فسَّر لهما الرؤى ، وبيّن لهما أن أحدهما سيصلب ، والآخر سينجو ، لكنه لم يحدد من هو صاحب البشرى ومن هو صاحب المصير السيئ تلطفًا وتحرجًا من المواجهة بالشر والسوء .



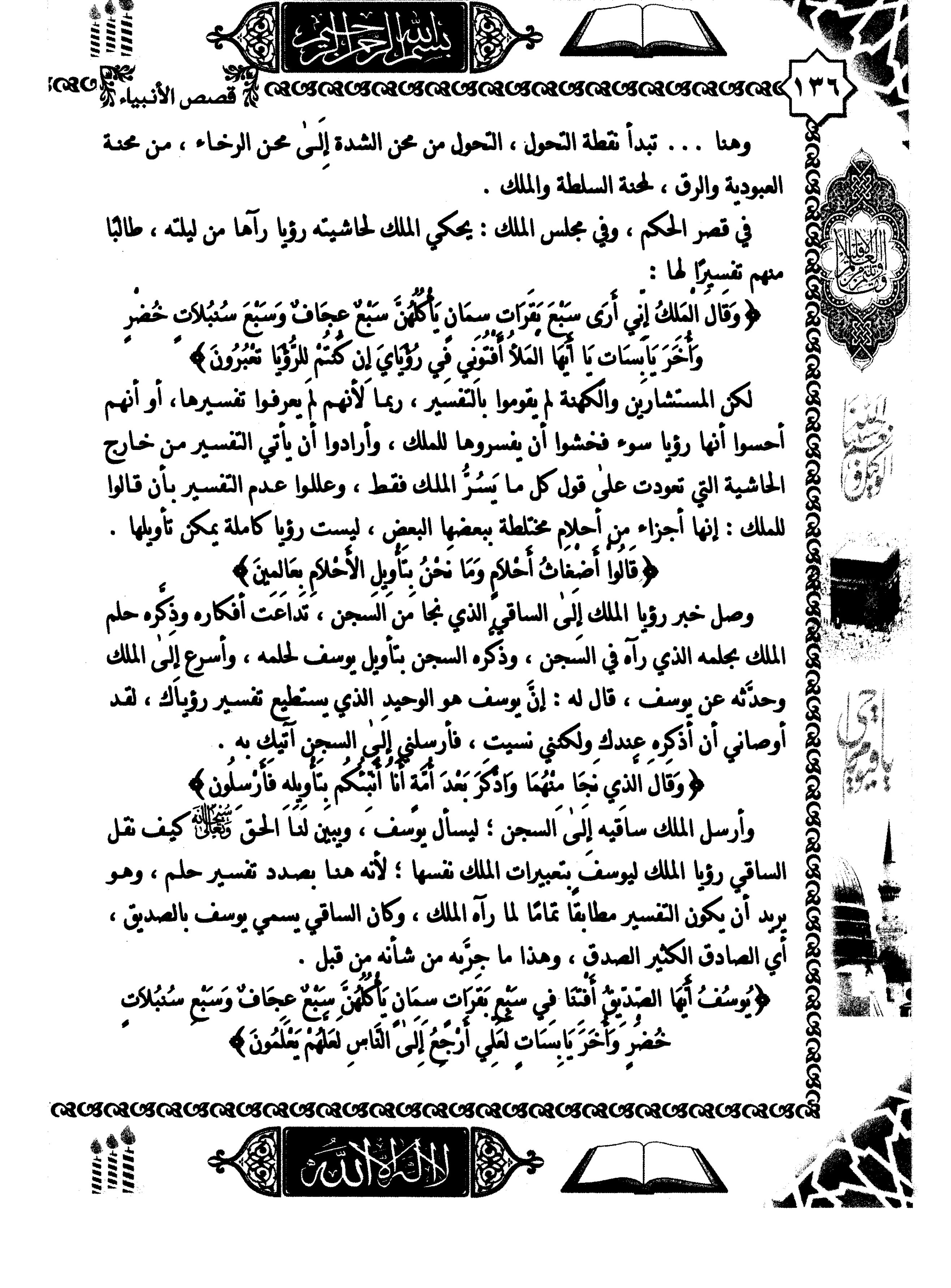


من السجن .. إلى ملك مصر

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾

أوصى يوسف عليه السلام من سينجو منهما أن يذكر حاله عند الملك ، لكنَّ الرجل لم ينفذ الوصية ، فربما ألهته حياة القصر المزدحمة عن يوسف وأمره ، فلبث يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين ، والرجل في لهوه لا يذكر يوسف .

وكان هذا الأمر زيادة في كرم الله سبحانه وتعالى عليه واصطفائه له ، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عبد ، ولا بسبب يرتبط بعبد ، وهكذا دومًا يغار الله على عبده المؤمن أن تأتيه حاجته إلا من الله ، ومن حيث لا يحتسب .



وهنا ... تبدأ نقطة التحول ، التحول من محن الشدة إلىٰ محن الرخاء ، من محنة العبودية والرق ، لمحنة السلطة والملك .

في قصر الحكم ، وفي مجلس الملك : يحكي الملك لحاشيته رؤيا رآها من ليلته ، طالبًا منهم تفسيرًا لها :

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾

لكن المستشارين والكهنة لم يقوموا بالتفسير ، ربما لأنهم لم يعرفوا تفسيرها ، أو أنهم أحسوا أنها رؤيا سوء فخشوا أن يفسروها للملك ، وأرادوا أن يأتي التفسير من خارج الحاشية التي تعودت علىٰ قول كل ما يَسُرُّ الملك فقط ، وعللوا عدم التفسير بأن قالوا للملك : إنها أجزاء من أحلام مختلطة ببعضها البعض ، ليست رؤيا كاملة يمكن تأويلها .

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾

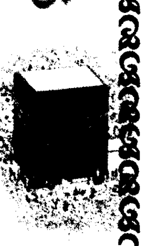
وصل خبر رؤيا الملك إلىٰ الساقي الذي نجا من السجن ، تداعت أفكاره وذكره حلم الملك بحلمه الذي رآه في السجن ، وذكره السجن بتأويل يوسف لحلمه ، وأسرع إلىٰ الملك وحدثه عن يوسف ، قال له : إنَّ يوسف هو الوحيد الذي يستطيع تفسير رؤياك ، لقد أوصاني أن أذكره عندك ولكنني نسيت ، فأرسلني إلىٰ السجن آتيك به .

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾

وأرسل الملك ساقيه إلىٰ السجن ؛ ليسأل يوسف ، ويبين لنا الحق سبحانه وتعالى كيف نقل الساقي رؤيا الملك ليوسف بتعبيرات الملك نفسها ؛ لأنه هنا بصدد تفسير حلم ، وهو يريد أن يكون التفسير مطابقًا تمامًا لما رآه الملك ، وكان الساقي يسمي يوسف بالصديق ، أي الصادق الكثير الصدق ، وهذا ما جربه من شأنه من قبل .

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾









جاء الوقت واحتاج الملك إلى رأيه ، وهنا لابد أن تتذكر : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، سئل يوسف عليه السلام عن تفسير حلم الملك ، فلم يشترط خروجه من السجن مقابل تفسيره ، بل ولم يعاتب ذلك الساقي الناسي الذي نسيه بضع سنين ، لم يعاتبه بكلمة ولا بنظرة ، لم يقل له : الآن تذكرتني حين احتجتني ، لم يساوم ولم يتردد ولم يقل شيئًا غير تفسير الرؤيا ، هكذا ببراءة النبي حين يلجأ إليه الناس فيغيثهم ، وإن كان هؤلاء أنفسهم سجانيه وجلاديه ، وكلام يوسف عليه السلام هنا ليس التأويل المباشر المجرد فقط ؛ إنما هو التأويل والنصح بمواجهة عواقبه ، وهذا أكمل :

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾

أفهم يوسف عليه السلام رسول الملك أن مصر ستمر عليها سبع سنوات مخصبة تجود فيها الأرض بالغلات ، وعلى المصريين ألا يسرفوا في هذه السنوات السبع ؛ لأن وراءها سبع سنوات مجدبة ستأكل كل ما يخزنه المصريون في السبع سنوات السابقة ، وأخبره أن أفضل طريقة لخزن الغلال أن تترك في سنابلها كي لا تفسد أو يصيبها السوس أو يؤثر عليها الجو .

هكذا بمنتهى الحلم والكرم فسر يوسف عليه السلام الحلم ، وأوصى كيف يكون التعامل في الحالين ، بل وبمنتهى النفع والإنصاف دلهم كيف يكون حفظ الثروة .

بهذا انتهى حلم الملك ، وزاد يوسف تأويله لحلم الملك بالحديث عن عام لم يحلم به الملك ، عام من الرخاء ، عام يغاث فيه الناس بالزرع والماء ، وتنمو كرومهم فيعصرون خمرًا ، وينمو سمسمهم وزيتونهم فيعصرون زيتًا ، كان هذا العام الذي لا يقابله رمز في حلم الملك ، علمًا خاصًا أوتيه يوسف ، فبشر به الساقي ؛ ليبشر به الملك والناس .





اعتراف النسوة ببراءة يوسف

عاد الساقي إلى الملك ، أخبره بما قال يوسف عليه السلام ، دهش الملك دهشة شديدة، ما هذا السجين ؟ إنه يتنبأ لهم بما سيقع ، ويوجههم لعلاجه ، دون أن ينتظر أجرًا أو جزاء ، أو يشترط خروجًا أو مكافأة ! ! إنه نوع من البشر لم يعرفه الملك ولم يره، إن كل الناس يعاملونه للمصلحة فقط ، فطلبه فورًا :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾

أصدر الملك أمره بإخراج يوسف عليه السلام من السجن وإحضاره فورًا إليه ، ذهب رسول الملك إلى السجن ، ولا نعرف إن كان هو الساقي الذي جاءه أول مرة ، أم أنه شخصية رفيعة مكلفة بهذه الشؤون ، ذهب إليه في سجنه ، رجا منه أن يخرج للقاء الملك ، فهو يطلبه على عجل، رفض يوسف أن يخرج من السجن إلا إذا ثبتت براءته أولا، لقد زاده ربه تربية وأدبًا في تلك السنين التي بقيها في السجن بعد خروج الساقي :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾

ولقد سكبت هذه التربية وهذا الأدب في قلبه السكينة والثقة والطمأنينة ، ويظهر أثر التربية واضحًا في الفارق بين الموقفين : الموقف الذي يقول يوسف فيه للفتى: اذكرني عند ربك، والموقف الذي يقول فيه : ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيدهن، الفارق بين الموقفين كبير، وبدأ الملك يبحث عن الحقيقة بنفسه ، فهذا أمر لم يعلمه من قبل:

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾

يبدو أن الملك سأل عن القصة ؛ ليكون على بينة من الأمر وظروفه قبل أن يبدأ التحقيق، لذلك جاء سؤاله دقيقًا للنساء، فاعترفت النساء بالحقيقة التي يصعب إنكارها:

﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾





مرة أخرى تنزيه لله سبحانه أن يكذبن أو يخطئن أو يتهمن بالباطل رجلا لم يرَ منه إلا كل خير ، ولم يشهد أحد عليه بسوء .

وهنا تتقدم المرأة المحبة ليوسف ، التي يئست منه ، ولكنها لا تستطيع أن تتخلص من تعلقها به ، تتقدم ؛ لتقول كل شيء بصراحة :

﴿ قالت امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾

ظهر الحق ولم يعد هناك داع لإخفاء شيء ولا لإنكاره إنصافا للسجين الصالح ، قالت بمنتهى التجرد :

﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

شهادة كاملة بإثمها هي، وبراءته ونظافته وصدقه هو ، شهادة لا يدفع إليها خوف أو خشية أو أي اعتبار آخر ،إنها تريد أن تتوب ، وأن تصحح نظرة الكل إليها ، وتنفي الخيانة منها أو منه فقالت :

﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾

لست بهذا السوء الذي يتصوره فيَّ ، ثم تمضي في هذه المحاولة والعودة إلى الفضيلة التي يحبها يوسف ويقدرها :

﴿ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾

كأنها تقول : مهما حاولنا فتنته لم نستطع :

﴿ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾

ومهما حاولنا إيذاءه وسجنه لم نستطع :

﴿ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾

نعم . . مهما حاولنا وحاولنا . . فإنه سيظل طاهراً عزيزاً عاليًا يحتاج إليه الناس ، ولا يحتاج إلى أحد .

ثم تمضي خطوة أخرى في هذه المشاعر الطيبة :

﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾







إن تأمل الآيات يوحي بأن امرأة العزيز قد تحولت إلىٰ دين يوسف عليه السلام ، تحولت إلىٰ التوحيد ، إن سجن يوسف عليه السلام كان نقلة هائلة في حياتها ، آمنت بربه واعتنقت ديانته ، وأحبته علىٰ البعد، وما زالت هي المرأة التي لا تملك إلا أن تظل معلقة بكلمة منه، أو خاطرة ارتياح ، ولو بالغيب ، وعلى البعد ، ودون لقاء أو أمل في لقاء .

ويصدر الأمر الملكي بالإفراج عنه وإحضاره :

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾

بعد ما رأى الملك من أمر يوسف ، براءته ، وعلمه ، وعدم تهافته علىٰ الملك ، عرف أنه أمام رجل كريم ، فلم يطلبه ليشكره أو يثني عليه ؛ وإنما طلبه ليكون مستشاره ، وعندما جلس معه وكلمه ، تحقق له صدق ما توسمه فيه ، فطمأنه علىٰ أنه ذو مكانه وفي أمان عنده ، فماذا قال يوسف ؟!


﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾

لم يسجد شكرًا للملك ، ولم يقل له : عشت يا مولاي وأنا عبدك الخاضع أو خادمك الأمين ، كما يفعل المتملقون للظالمين ؛ كلا إنما طالب بما يعتقد أنه قادر علىٰ أن ينهض به من الأعباء في الأزمة القادمة .

وأورد القرطبي في تفسيره : إن الملك قال فيما قاله : لو جمعتُ أهل مصر ما أطاقوا هذا الأمر ، ولم يكونوا فيه أمناء .

كان الملك يقصد الطبقة الحاكمة وما حولها من طبقات ، إنَّ العثور علىٰ الأمانة في الطبقة المترفة شديد الصعوبة .

واعتراف الملك ليوسف بهذه الحقيقة زاد من عزمه علىٰ تولي هذا الأمر ؛ لإنقاذ مصر وما حولها من البلاد من هذه المجاعة ، قال يوسف عليه السلام : ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ، لم يكن يوسف عليه السلام في كلمته يقصد النفع أو الاستفادة ،

علىٰ العكس من ذلك ، كان يحتمل أمانة إطعام شعوب جائعة لمدة سبع سنوات ، شعوب يمكن أن تمزق حكامها لو جاعت ، كان الموضوع في حقيقته تضحية من يوسف عليه السلام .

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

وهكذا مكن الله ليوسف في الأرض ، صار مسؤولًا عن خزائن مصر واقتصادها ، صار كبيرًا للوزراء ، وجاء في رواية أن الملك قال ليوسف عليه السلام : يا يوسف ليس لي من الحكم إلا الكرسي ، وتصرف يوسف عليه السلام في مصر ، ونحن نعرف أنه حكيمٌ عليمٌ نعرف أنه أمينٌ وصادق ، لا خوف إذًا علىٰ اقتصاد مصر .

إخوة يوسف يأتون إلىٰ قصره

دارت عجلة الزمن ، طوى السياق دورتها ، ومر مرورًا سريعًا علىٰ سنوات الرخاء ، وجاءت سنوات المجاعة ، وكان الأمر كله قد صار ليوسف .

قيل : إنَّ يوسف عليه السلام كان يعطي كل فرد في الفترة الواحدة حمل بعير ، لم يكن كل من يملك الشراء يشتري المقادير التي يستطيع شراءها لخزنها ويموت الآخرون ، وكان قصد يوسف أن يوازن بين حاجات المحتاجين والزمن الطويل الذي يضطلع فيه بالتموين .

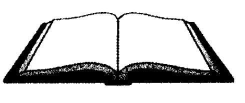
جاء أخوة يوسف من الصحراء ، جاءوا يبتاعون طعامًا من مصر :

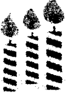
﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾

عرف يوسف عليه السلام إخوته علىٰ الفور ، ولم يعرفوه هم ، يستحيل أن يعبر طيف يوسف أفكارهم الآن ، لقد تخلصوا منه من زمان بعيد ، وضاق بهم الحال فجاءوا من فلسطين يبحثون عن الطعام في مصر ، وأجرى يوسف حواره مع إخوته ، بغير أن يكشف لهم عن نفسه .

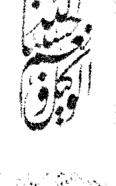
كان عدد الإخوة عشرة ، وكان معهم أحد عشر بعيرًا .

سألهم يوسف – مستخدمًا أحد المترجمين – ؛ لكي لا يتحدث لغته العبرانية : نظامنا يقضي بإعطاء كل إنسان قدر بعير من الطعام ، كم عددكم ؟







قالوا : نحن أحد عشر .

قال يوسف للترجمان قل لهم : لغتكم مخالفة للغتنا ، وزيكم يخالف زينا ، فلعلكم جواسيس .

قالوا : والله ما نحن بجواسيس ، بل نحن بنو أب واحد ، شيخ طيب .

سأل يوسف : قلتم أن عددكم أحد عشر ، ولكنكم عشرة ؟

قالوا : كنا اثني عشر أخًا ، هلك لنا أخ في البرية ، ولنا أخ آخر يحبه أبونا ، ولا يستطيع أن يصبر علىٰ فراقه ، جئنا ببعيره بدلا منه .

قال يوسف : كيف أتأكد من صدقكم؟

قالوا : اختر شيئًا تسكن إليه نفسك .

قال يوسف : يقضي النظام ألا نصرف لأحد غير موجود ، ائتوني بأخيكم لأصرف له طعامه :

﴿ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ ﴾ . . . ؟



استمر الحوار بين أخوة يوسف وبينه ، أفهمهم يوسف عليه السلام أنه سيستثنيهم هذه المرة ، فإذا جاءوا في المرة القادمة بغير أخيهم فلن يصرف لهم ، قالوا له : سنحاول إقناع والده بأن يتركه معنا :

﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾

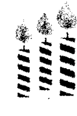


ووعدوا بمحاولة إحضاره في المرة القادمة ، فأعطاهم كيلهم وزادهم ، وأمرهم أن ينصرفوا فانصرفوا ، حتى إذا وصلوا إلىٰ ديارهم دخلوا علىٰ أبيهم :

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾

رجع الإخوة إلىٰ أبيهم ، قبل أن ينزلوا أحمال الجمال ويفكوا متاعهم ، دخلوا علىٰ أبيهم، قائلين له بعتاب : إن لم ترسل معنا أخانا الصغير في المرة القادمة فلن يعطينا عزيز مصر الطعام ، وختموا كلامهم بوعد جديد ليعقوب عليه السلام ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .







ويبدو أن هذا الوعد قد أثار أحزان يعقوب عليه السلام ، فهو ذاته وعدهم له في يوسف! فإذا هو يجهر بما أثاره الوعد من شجونه :

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

وفتح الأبناء أوعيتهم ؛ ليخرجوا ما فيها من غلال ، فإذا هم يجدون فيها بضاعتهم التي ذهبوا يشترون بها ، مردودة إليهم مع الغلال والطعام :

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

وردُّ الثمن يشير إلى عدم الرغبة في البيع ، أو هو إنذار بذلك ، وربما كان إحراجًا لهم ؛ ليعودوا لسداد الثمن مرة أخرى .

وأسرع الأبناء إلى أبيهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ .. لم نكذب عليك ، لقد ردُّ إلينا الثمن الذي ذهبنا نشتري به ، هذا معناه أنهم لن يبيعوا لنا إلا إذا ذهب أخونا معنا .

واستمر حوارهم مع الأب ، أفهموه أنَّ حبه لابنه والتصاقه به يفسدان مصالحهم ، ويؤثران على اقتصادهم ، وهم يريدون أن يتزودوا أكثر ، وسوف يحفظون أخاهم أشد الحفظ وأعظمه ، وانتهى الحوار باستسلام الأب لهم ، بشرط أن يعاهدوه على العودة بابنه ، إلا إذا خرج الأمر من أيديهم وأحيط بهم :

﴿ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

ثم نصحهم الأب ألا يدخلوا - وهم أحد عشر رجلًا - من باب واحد من أبواب مصر ، كي لا يستلفتوا انتباه أحد ، وربما خشي عليهم أبوهم شيئًا كالسرقة أو الحسد ، لا نعرف ماذا كان الأب يخشى ، هي حاجة في نفس يعقوب قالها والله أعلم بها :

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ

حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يوسف يستبقي أخاه معه

عاد إخوة يوسف الأحد عشر هذه المرة :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

ويحتضن يوسف عليه السلام أخاه ويكشف له وحده سر قرابته ، ولا ريب أن هذا لم يحدث فور دخول الإخوة على يوسف ، وإلا لانكشفت لهم قرابة يوسف عليه السلام ؛ إنما وقع هذا في خفاء وتلطف ، فلم يشعر إخوته ، ها هو ذا يوسف عليه السلام يدبر شيئًا لإخوته ، إنه يريد أن يحتفظ بأخيه الصغير معه .

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾

أمر يوسف عليه السلام رجاله أن يخفوا كأس الملك الذهبية في متاع أخيه خلسة ، وكانت الكأس تستخدم كمكيال للغلال ، وكانت لها قيمتها كمعيار في الوزن إلى جوار قيمتها كذهب خالص .

أخفى الكأس في متاع أخيه ، وتهيأ إخوة يوسف للرحيل ، ومعهم أخوهم ، بعدما أخذوا متاعهم وطعامهم ، وفجأة . . . أغلقت أبواب العاصمة :

﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ . . ! !

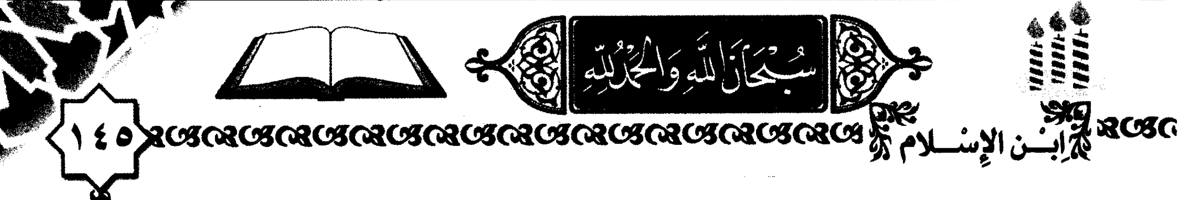
كانت صرخة الجند تعني وقوف القوافل جميعًا ، أقبل الناس ، وأقبل معهم إخوة يوسف :

﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ ؟ !

هكذا تساءل إخوة يوسف ، ما الذي جرى ، وعم تبحثون ؟ ! قال الجنود :

﴿ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ ﴾

ضاعت كأسه الذهبية ، ولمن يجيء بها مكافأة ، سنعطيه حمل بعير من الغلال .








قال إخوة يوسف ببراءة : لم نأت لنفسد في الأرض ونسرق! قال الحراس : لابد من التفتيش الذاتي على الكل ولكن . . (وكان يوسف قد وجههم لما يقولونه) : أي جزاء تحبون توقيعه على السارق ؟!

قال إخوة يوسف : في شريعتنا نعتبر من سرق عبدًا لمن سرقه.

قال الحارس : سنطبق عليكم قانونكم الخاص ، لن نطبق عليكم القانون المصري الذي يقضي بسجن السارق .

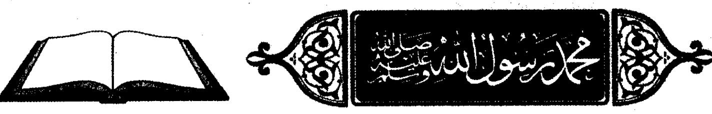
كانت هذه الإجابة من يوسف عليه السلام ، ولولا هذا التدبير الإلهي لامتنع على يوسف أن يأخذ أخاه ، فقد كان الملك أو قانونه لا يقضي باسترقاق من سرق ، وبدأ التفتيش.

كان هذا الحوار على منظر ومسمع من يوسف عليه السلام ، فأمر جنوده بالبدء بتفتيش رحال إخوته أولا قبل تفتيش رحل أخيه الصغير ، كي لا يثير شبهة في نتيجة التفتيش .

اطمأن إخوة يوسف إلى براءتهم من السرقة وتنفسوا الصعداء ، فلم يبق إلا أخوهم الصغير ، وفجأة . . . ظهرت المكيال ، تم استخراج الكأس من رحل الأخ الصغير .

وتم الحكم ، وصار أخو يوسف عبدًا ليوسف عليه السلام بمقتضى قانونهم الذي طبقه القضاء على الحادث .

أعقب ذلك مشهد عنيف من المشاعر ، إن إحساس الإخوة براحة الإنقاذ والنجاة من التهمة ، جعلهم يستديرون باللوم على شقيق يوسف :

﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾

إنهم يتنصلون من تهمة السرقة ، ويلقونها على هذا الفرع من أبناء يعقوب ، وكان يوسف عليه السلام قد اتهم كذبًا بالسرقة وهو صغير ، والقصة ببساطة أنه كانت له خالة تعبد صنمًا من ذهب ، فأخذه وأخفاه تغييرًا للمنكر ؛ كي لا تعبده ، ويمنعها من السجود له ، فاتهم أنه سرقه .

سمع يوسف عليه السلام بأذنيه اتهامهم له ، وأحس بحزن عميق ، كتم يوسف عليه السلام أحزانه في نفسه ولم يظهر مشاعره ، قال بينه وبين نفسه :

﴿ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾

لم يكن هذا سبابًا لهم ، بقدر ما كان تقريرًا حكيمًا لقاعدة من قواعد الأمانة.

أراد أن يقول بينه وبين نفسه : إنكم بهذا القذف شرٌّ مكانًا عند الله من المقذوف ؛ لأنكم تقذفون بريئين بتهمة السرقة ، والله أعلم بحقيقة ما تقولون ، فلا أنا سرقت ، ولا أخي سرق ، الله وحده أعلم بالحقيقة في الحادثتين ، وأنا وأخي بريئان منهما .

سقط الصمت بعد تعليق الإخوة الأخير ، ثم انمحى إحساسهم بالنجاة ، وتذكروا يعقوب ، لقد أخذ عليهم عهدًا غليظًا ، ألا يفرطوا في ابنه ، وبدءوا استرحام يوسف : يوسف أيها العزيز ، يوسف أيها الملك :

﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قال يوسف بهدوء : كيف تريدون أن نترك من وجدنا كأس الملك عنده ، ونأخذ بدلا منه إنسانا آخر . . ؟ هذا ظلم ، ونحن لا نظلم .

كانت هي الكلمة الأخيرة في الموقف ، وعرفوا أن لا جدوى بعدها من الرجاء ، فانسحبوا يفكرون في موقفهم الحرج أمام أبيهم حين يرجعون :

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

عقدوا مجلسًا يتشاورون فيه ، ذكرهم كبيرهم بالموثق المأخوذ عليهم ، كما ذكرهم بتفريطهم في يوسف من قبل ، ثم يبين قراره الجازم : ألا يبرح مصر، وألا يواجه أباه ، إلا أن

يأذن أبوه ، أو يقضي الله له بحكم ، فيخضع له وينصاع ، وطلب منهم أن يرجعوا إلىٰ أبيهم فيخبروه صراحة بأن ابنه سرق ، فأُخذ بما سرق ، ذلك ما علموه وشهدوا به ، أما إن كان بريئًا ، وكان هناك أمر وراء هذا الظاهر لا يعلمونه، فهم غير موكلين بالغيب ، وإن كان في شك من قولهم فليسأل أهل القرية التي كانوا فيها -أي أهل مصر- وليسأل القافلة التي كانوا فيها ، فهم لم يكونوا وحدهم ، فالقوافل الكثيرة كانت ترد مصر لتأخذ الطعام .

فعل الأبناء ما أمرهم به أخوهم الكبير ، وحكوا ليعقوب عليه السلام ما حدث ، استمع يعقوب إليهم وقال بحزن صابر ، وعين دامعة :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ : كلمته ذاتها يوم فقد يوسف ، لكنه في هذه المرة يضيف إليها الأمل أن يرد الله عليه يوسف وأخاه :

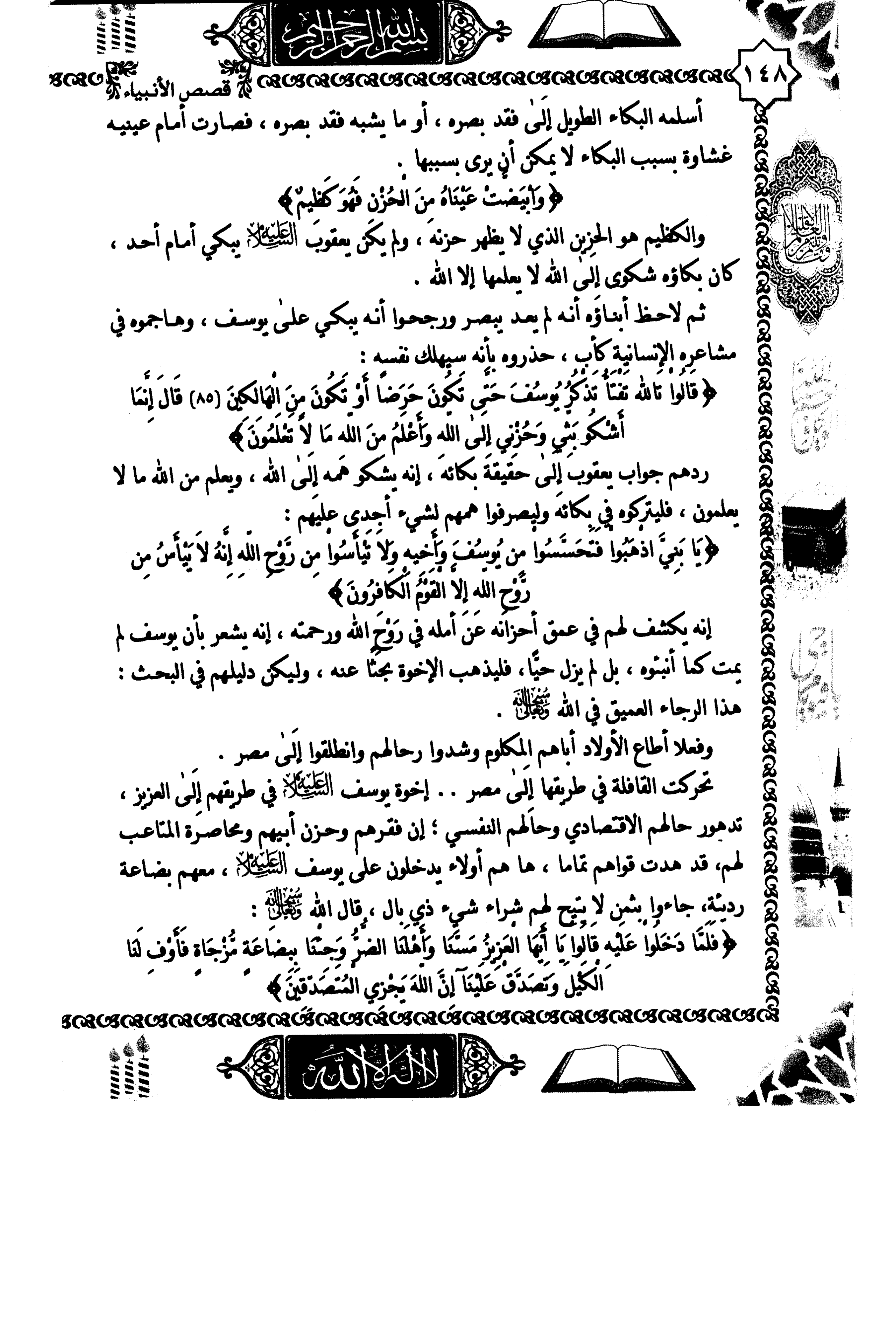
﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

هذا الشعاع من أين جاء إلىٰ قلب هذا الرجل الشيخ ؟ إنه الرجاء في الله سبحانه وتعالى ، والاتصال الوثيق به ، والشعور بجوده ورحمته ، وهو مؤمن بأن الله سبحانه وتعالى يعلم حاله ، ويعلم ما وراء هذه الأحداث والامتحانات ، ويأتي بكل أمر في وقته المناسب ، عندما تتحقق حكمته في ترتيب الأسباب والنتائج .

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

وهي صورة مؤثرة للوالد المفجوع ، يحس أنه منفرد بهمه ، وحيد بمصابه ، لا تشاركه هذه القلوب التي حوله ولا تجاوبه ، فينفرد في معزل ، يندب فجيعته في ولده الحبيب يوسف ، الذي لم ينسه ، ولم تهوّن من مصيبته السنون ، والذي تذكره به نكبته الجديدة في أخيه الأصغر فتغلبه علىٰ صبره الجميل ، حتى يقول وهو يجلس وحده بعيدًا عنهم :

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾



أسلمه البكاء الطويل إلى فقد بصره ، أو ما يشبه فقد بصره ، فصارت أمام عينيه غشاوة بسبب البكاء لا يمكن أن يرى بسببها .

﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

والكظيم هو الحزين الذي لا يظهر حزنه ، ولم يكن يعقوب عليه السلام يبكي أمام أحد ، كان بكاؤه شكوى إلى الله لا يعلمها إلا الله .

ثم لاحظ أبناؤه أنه لم يعد يبصر ورجحوا أنه يبكي على يوسف ، وهاجموه في مشاعره الإنسانية كأب ، حذروه بأنه سيهلك نفسه :

﴿ قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾

ردهم جواب يعقوب إلى حقيقة بكائه ، إنه يشكو همه إلى الله ، ويعلم من الله ما لا يعلمون ، فليتركوه في بكائه وليصرفوا همهم لشيء أجدى عليهم :

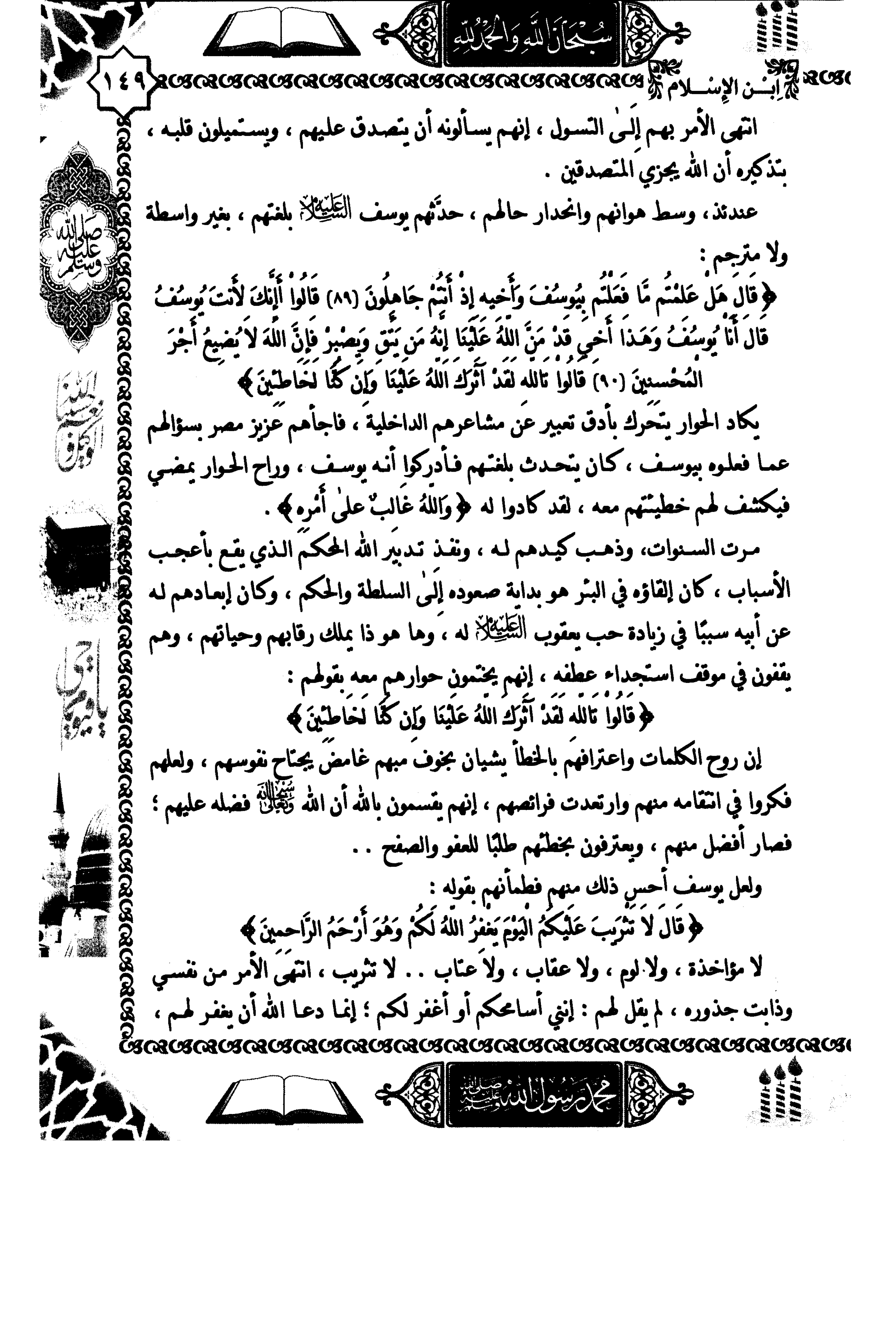
﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾

إنه يكشف لهم في عمق أحزانه عن أمله في روح الله ورحمته ، إنه يشعر بأن يوسف لم يمت كما أنبئوه ، بل لم يزل حيًّا ، فليذهب الإخوة بحثًا عنه ، وليكن دليلهم في البحث : هذا الرجاء العميق في الله سبحانه وتعالى .

وفعلا أطاع الأولاد أباهم المكلوم وشدوا رحالهم وانطلقوا إلى مصر .

تحركت القافلة في طريقها إلى مصر .. إخوة يوسف عليه السلام في طريقهم إلى العزيز ، تدهور حالهم الاقتصادي وحالهم النفسي ؛ إن فقرهم وحزن أبيهم ومحاصرة المتاعب لهم، قد هدت قواهم تماما ، ها هم أولاء يدخلون على يوسف عليه السلام ، معهم بضاعة رديئة، جاءوا بثمن لا يتيح لهم شراء شيء ذي بال ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾



انتهى الأمر بهم إلى التسول ، إنهم يسألونه أن يتصدق عليهم ، ويستميلون قلبه ، بتذكيره أن الله يجزي المتصدقين .

عندئذ، وسط هوانهم وانحدار حالهم ، حدثهم يوسف عليه السلام بلغتهم ، بغير واسطة ولا مترجم :

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾

يكاد الحوار يتحرك بأدق تعبير عن مشاعرهم الداخلية ، فاجأهم عزيز مصر بسؤالهم عما فعلوه بيوسف ، كان يتحدث بلغتهم فأدركوا أنه يوسف ، وراح الحوار يمضي فيكشف لهم خطيئتهم معه ، لقد كادوا له ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ .

مرت السنوات، وذهب كيدهم له ، ونفذ تدبير الله الحكم الذي يقع بأعجب الأسباب ، كان إلقاؤه في البئر هو بداية صعوده إلى السلطة والحكم ، وكان إبعادهم له عن أبيه سببًا في زيادة حب يعقوب عليه السلام له ، وها هو ذا يملك رقابهم وحياتهم ، وهم يقفون في موقف استجداء عطفه ، إنهم يختمون حوارهم معه بقولهم :

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾

إن روح الكلمات واعترافهم بالخطأ يشيان بخوف مبهم غامض يجتاح نفوسهم ، ولعلهم فكروا في انتقامه منهم وارتعدت فرائصهم ، إنهم يقسمون بالله أن الله سبحانه وتعالى فضله عليهم ؛ فصار أفضل منهم ، ويعترفون بخطئهم طلبًا للعفو والصفح . .

ولعل يوسف أحس ذلك منهم فطمأنهم بقوله :

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

لا مؤاخذة ، ولا لوم ، ولا عقاب ، ولا عتاب . . لا تثريب ، انتهى الأمر من نفسي وذابت جذوره ، لم يقل لهم : إنني أسامحكم أو أغفر لكم ؛ إنما دعا الله أن يغفر لهم ،

وهذا يتضمن أنه عفا عنهم وتجاوز عفوه، ومضى بعد ذلك خطوات ، دعا الله أن يغفر لهم ، وهو نبي ودعوته مستجابة ، وذلك تسامح نراه آية الآيات في التسامح .

يعقوب عليه السلام يرجع إليه بصره

ها هو ذا يوسف عليه السلام ينهي حواره معهم بنقلة مفاجئة لأبيه ، يعلم أن أباه قد ابيضت عيناه من الحزن عليه ، يعلم أنه لم يعد يبصر ، لم يدر الحوار حول أبيه لكنه يعلم ، يحس قلبه بأبيه ، ويشتاق له ، فيرسل إليه علامته مرة أخرى ، قميص يوسف ، ولكن هذه المرة قميص صدق يمحو أثر القميص الملوث بالكذب ، خلع يوسف قميصه وأعطاه لهم :

﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

وعادت القافلة إلى فلسطين . .

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾

بمجرد أن خرجوا من مصر ، ويعقوب عليه السلام في فلسطين ، قال يعقوب عليه السلام لمن حوله : إني أشم رائحة يوسف، لولا أنكم تقولون في أنفسكم أنني شيخ خرف لصدقتم ما أقول ، هكذا الشوق يجعلك تشم من بعيد رائحة الأحباب .

فرد عليه من حوله :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾

إنهم جهال ، لا يعرفون الحب ، ولا يعلمون شيئًا . .

لكن المفاجأة التي استبعدوها تقع :

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾

هنا يذكر يعقوب حقيقة ما يعلمه من ربه :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

ونلمح هنا أن في قلب يعقوب شيئًا من بنيه ، وأنه لم يَصْفُ لهم بعد ، وإن كان يعدهم باستغفار الله لهم بعد أن يصفو ويسكن ويستريح : ﴿ سَوْفَ ﴾ .



ثم يأتي المشهد الأخير في قصة يوسف عليه السلام :

اجتماع الشمل بعد طول فراق

بدأت قصته برؤيا ، وها هو ذا الختام تأويل رؤياه :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

تأمل الآن مشاعره ورؤياه تتحقق ، ليس الغرور ولا الزهو ولا الشماتة في إخوته والعلو عليهم ، ولا حتى عتابهم ، ولا تذكيرهم بأخطائهم ، كلا . . إنه الصديق يوسف عليه السلام ، نسي إخوته وأباه وأمه ، وتوجه إلىٰ ربه في إخلاص عميق يسأله لخاصة نفسه ، بعد أن يثني علىٰ ربه بجميل فعله به ، واعترافه بفضل ربه عليه ، وثنائه علىٰ الله بما هو أهله ، وصدق رجائه فيه ، إنه يدعو ربه سبحانه وتعالى :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

هي دعوة واحدة :

﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾

وقد كان . . استجاب الله سبحانه وتعالى دعاءه ، كما استجاب دعاءه دائمًا ، ومات يوسف عليه السلام حميدًا ، صلى الله وسلم وبارك على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنه حميد مجيد . .

من فوائد القصة

(١) أجمل القصص وأحسن القصص قصص القرآن لما فيه من عبر وفوائد وتربية وتسلية للمسلمين .

(٢) الرؤيا الصالحة جزء من أجزاء النبوة .

(٣) من وسائل دفع الحسد إخفاء النعمة عن الحاسد وعدم تحديثه بها .

(٤) كل والد يحب أن يكون ولده خيرًا منه ، ولا يتأتى ذلك من الأخ لأخيه .

(٥) بقايا الصلاح في القلب تدخل عند استحكام الشر ، فتخفف من الجريمة ، وتقلل من حدتها .

(٦) اذكر عند الظلم قدرة الله عليك ، وعند الذنب رؤية الله لك .

(٧) النبوة والهداية محض فضل من الله يؤتيه من يشاء .

(٨) استسلم لتدبير ربك لك ، فربك أرحم بك منك .

(٩) إنما تشتعل الفتنة بوجود أسبابها ، وتزول الفتنة بزوال الأسباب ، حرم الإسلام الخلوة والاختلاط ومصافحة الأجنبية والتبرج وغير ذلك ؛ سدًّا لباب الفتنة ، فإذا وقع شيء منها كانت الفتنة أقرب للوقوع .

(١٠) الدياثة والخبث ، وكثرة الكلام بالباطل ؛ إنما تكثر في أهل الترف ، الذين يكثر لديهم الفراغ ، ولا ينشغلون بعبادة الله والتقرب منه سبحانه .

(١١) الداعية لا يتوقف عن الدعوة ، فهو كالماء المنهمر ، حيثما حل نفع ، ويوسف يدعو إِلَىٰ الله حتى في السجن ، لا يغفل عن الدعوة ، مكتوبٌ علىٰ جبين الداعية :

وقف لله تعالى



﴿١٢﴾ إذا اشتدت المحن فقد أوشك انفراجها وذهابها .

﴿١٣﴾ عاقبة الصبر دائمًا خير ، وكلما كنت أصبر كنت من رحمة الله أقرب .

﴿١٤﴾ يعطى المؤمن فراسة يرى بها حقائق الأشياء وإن كانت غائبة .

﴿١٥﴾ استحباب ختام العمر بالتوبة والاستغفار والدعاء بأن يلحق الله العبد بالصالحين .

﴿١٦﴾ استحباب العفو عمن ظلمك ، ففي عفوك عنه عفو من الله عنك .

﴿١٧﴾ لا تشمت بأحد ، وتعلم أن تتسامح في حقك ، ولا تنتظر مقابلا من البشر .

﴿١٨﴾ الأمور بالخواتيم والعواقب ، فلا تغتر ولا تعجب ، وسل الله حسن الخاتمة .







أيوب عليه السلام

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

الأنبياء أشد الناس بلاءً

قال رسول الله ﷺ : « أَشَدُّ النَّاس بَلاءً الأَنبيَاءُ ثُمَّ الصَّالحُونَ ثُمَّ الأَمْثَل فَالأَمْثَل » (صحيح الجامع : ٩٩٢) ، كان أيوب عليه السلام رجلا من الروم ، أنعم الله عليه بمال وفير ورزق غزير ، كان أيوب عليه السلام غنيًا ، واسع الثراء ، يمتلك أراضي متسعة ، ومواشي كثيرة ، وكان يخدمه الكثير من العبيد ، وكما أنعم الله عليه بالمال الوفير والجاه ، أنعم عليه أيضًا بالأولاد .

أيوب الأواب

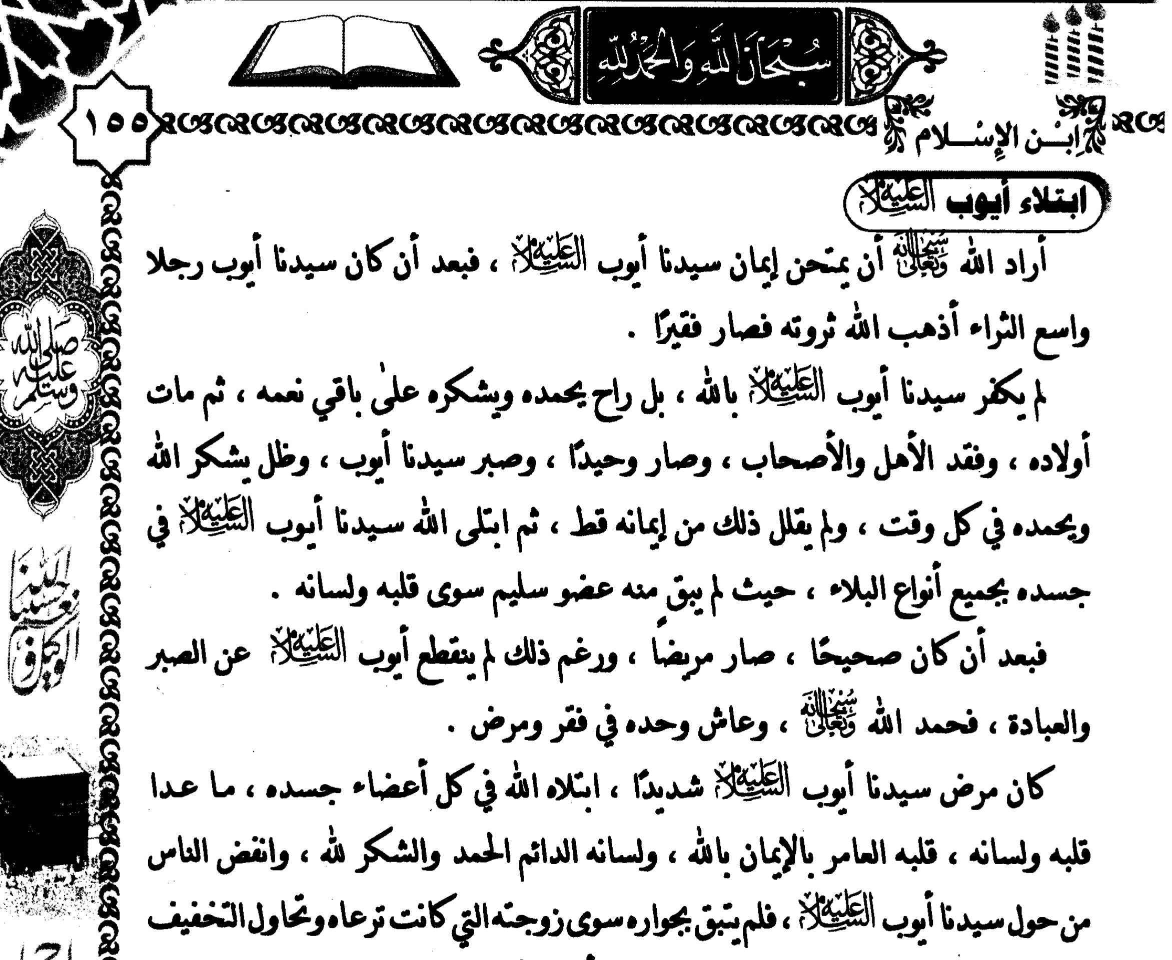
ضربت الأمثال في صبر هذا النبي العظيم ، فكلما ابتلي إنسان ابتلاءً عظيمًا أوصوه بأن يصبر كصبر أيوب عليه السلام ، وقد أثنى الله سبحانه وتعالى علىٰ عبده أيوب في محكم كتابه :



﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

والأوبة هي العودة إلىٰ الله عز وجل ، وقد كان أيوب عليه السلام دائم العودة إلىٰ الله بالذكر والشكر والصبر ، وكان صبره سبب نجاته وسر ثناء الله عليه. والقرآن يسكت عن نوع مرضه فلا يحدده ، وقد نسجت الأساطير عديدًا من الحكايات حول مرضه ، قيل : إنه مرض مرضًا جلديًا منفرًا تجنب الناس الاقتراب منه بسببه ، لكن الله أعلم بحقيقة هذا المرض ، حيث لم يخبرنا سبحانه وتعالى عنه .

وكان سيدنا أيوب عليه السلام يحمد الله علىٰ نعمه في كل وقت ، فقد كان شديد الإيمان بالله ، مخلصًا في عبادته له ، يدعو الناس دومًا إلىٰ عبادة الله سبحانه وتعالى ، كان أيوب عليه السلام نبيًا يدعو الناس إلىٰ التوحيد والصلاح .



ابتلاء أيوب عليه السلام

أراد الله سبحانه وتعالى أن يمتحن إيمان سيدنا أيوب عليه السلام ، فبعد أن كان سيدنا أيوب رجلا واسع الثراء أذهب الله ثروته فصار فقيرًا .

لم يكفر سيدنا أيوب عليه السلام بالله ، بل راح يحمده ويشكره علىٰ باقي نعمه ، ثم مات أولاده ، وفقد الأهل والأصحاب ، وصار وحيدًا ، وصبر سيدنا أيوب ، وظل يشكر الله ويحمده في كل وقت ، ولم يقلل ذلك من إيمانه قط ، ثم ابتلى الله سيدنا أيوب عليه السلام في جسده بجميع أنواع البلاء ، حيث لم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه .

فبعد أن كان صحيحًا ، صار مريضًا ، ورغم ذلك لم ينقطع أيوب عليه السلام عن الصبر والعبادة ، فحمد الله سبحانه وتعالى ، وعاش وحده في فقر ومرض .

كان مرض سيدنا أيوب عليه السلام شديدًا ، ابتلاه الله في كل أعضاء جسده ، ما عدا قلبه ولسانه ، قلبه العامر بالإيمان بالله ، ولسانه الدائم الحمد والشكر لله ، وانفض الناس من حول سيدنا أيوب عليه السلام ، فلم يتبق بجواره سوى زوجته التي كانت ترعاه وتحاول التخفيف عنه حتى نفد مالها ، فراحت تعمل عند الناس بالأجر ، تخدمهم لتطعم زوجها المريض .

تشديد البلاء

وكان سيدنا أيوب عليه السلام يتألم من شدة المرض ، ولكن لسانه لم ينطق إلا بآيات الحمد والصبر لله عز وجل ، ويزداد ألمه وهو يرى زوجته تتعذب معه ، فبعد أن كانت تعيش في نعيم ورخاء مستمتعة بالمال والأولاد والأمل ، صارت وحيدة فقيرة تعمل في صبر لإطعامه وتخفيف آلامه .

وبالرغم من ذلك زاد صبر سيدنا أيوب عليه السلام وإيمانه وشكره لله عز وجل ، وتبدلت الأحوال للأصعب ، فبعد أن طال مرض سيدنا أيوب خاف الناس من مرضه ، وظنوا أنه مرض معدٍ وأن زوجته سينتقل إليها المرض ثم تنقله لهم ، وخاف الناس منها ؛ فمنعوها



من العمل عندهم ، وحارت الزوجة الوفية المخلصة الصابرة ، فكيف تطعم زوجها المريض وهي بدون عمل أو مال ؟ وفكرت كثيرًا ، حتى استقرت على حل صعب . .

أمسكت زوجة سيدنا أيوب ضفائر شعرها وقصتها ، ثم باعتها إلى إحدى بنات الأشراف مقابل الكثير من الطعام الطيب ، وعادت إلى زوجها سعيدة ، وقدمت إليه الطعام فنظر إليها في إنكار وسألها : من أين لك هذا الطعام ؟ واضطرت زوجة سيدنا أيوب أن تخفيَ عليه حقيقة الأمر فقالت : خدمت به بعض الناس .

ومرت سنوات وسنوات طويلة ، وأيوب عليه السلام مريض ، ومرضه يزداد ، وهو يعيش في فقر وحرمان ، وحيدًا بلا أهل سوى زوجته المخلصة الوفية الصابرة ، وبالرغم من آلام الوحدة والفقر والمرض ، كان سيدنا أيوب عليه السلام صابرًا شاكرًا لله ، يحمده في كل وقت.

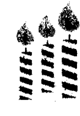
اشتد عذاب سيدنا أيوب عليه السلام عندما سمع حوارًا بين رجلين ، قال أحدهما : لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحدٌ من العالمين ، فمنذ سنوات طويلة وهو مريض لم يرحمه ربه فيشفيه ، فتألم سيدنا أيوب عليه السلام من قول الرجلين ، وزاد ألمه عندما تجرأ عليه الشيطان وراح يوسوس إليه بأفكار خبيثة حتى يكف عن الصبر ويهجر الإيمان بالله ، ولكنه لم يستجب له .

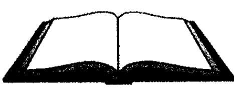
واستمرت زوجة سيدنا أيوب في بيع ضفائرها ؛ لتوفر لزوجها الطعام ، فأصر سيدنا أيوب أن يعرف من أين تأتي زوجته بهذا الطعام ، فأقسم ألا يأكل حتى تخبره زوجته بالحقيقة ، وأقسم أن يضربها بالعصا مائة ضربة عندما يشفى ، وفي حزن شديد كشفت الزوجة الوفية رأسها ، وأدرك سيدنا أيوب عليه السلام ما فعلته من أجله فتألم تألمًا شديدًا .

تضرع أيوب عليه السلام لربه ، وكشف البلاء

خرج سيدنا أيوب إلى الجبال يدعو الله عز وجل ، وقف وحيدًا ورفع كفيه إلى أعلى ، ودعا الله بقلبه المؤمن الصابر في خشوع وإيمان قائلا :

﴿ أَنِي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾








كانت كلماته تحمل كل معاني الإيمان والصبر والعذاب في تلك السنوات الطويلة الصعبة، دعا الله لأول مرة خلال هذه السنوات أن يشفيه، فاستجاب الله سبحانه وتعالى لدعوة أيوب عليه السلام .

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾

أمره الله عز وجل أن يستحم في عين من عيون الجبل المائية ، ثم يشرب من ماء هذه العين .

بالفعل نفذ أيوب عليه السلام ما أمره الله سبحانه وتعالى به ، فاستحم ثم شرب ، وبقدرة الله عز وجل زال عنه المرض واختفى البلاء، وعادت صحة سيدنا أيوب إليه، شفي كأنه لم يمرض قط .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بَيْنَا أَيُوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، فَخَرَّ عَلَيْه جَرَادٌ مِنْ ذَهَب ، فَجَعَلَ أَيوبُ يَحْتَثِي في ثَوْبِه ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ : يَا أَيُوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى ؟ قَالَ : بَلَى وَعِزَّتِكَ ، وَلَكِنْ لا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ » (صحيح البخاري : ٢٧٠) .

وتبدلت أحوال سيدنا أيوب بقدرة الخالق سبحانه وتعالى ، فصار أيوب عليه السلام رجلا موفور الصحة ، أعاد الله إليه المال والثراء ، ورزقه بالأولاد والأهل ، وعاش في نعيم ورخاء يدعو إلى الله سبحانه وتعالى ، قال الله عز وجل :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

ولكن ، كانت هناك مشكلة لابد أن يحلها أيوب عليه السلام . . .

وفاء ولا حنث

كان سيدنا أيوب عليه السلام قد أقسم أن يضرب زوجته مائة ضربة بالعصا إذا شفاه الله، وعندما أنعم الله سبحانه وتعالى عليه بالصحة فكر : كيف ينفذ هذا القسم ويضرب الزوجة الوفية الصابرة ؟ !

وأوحى الله عز وجل إليه لكي يبر قسمه : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ ، أمره الله بجمع حزمة من أعواد الريحان عددها مائة عود ، وأن يضرب بها زوجته ضربة واحدة .



وبذلك نفذ سيدنا أيوب عليه السلام قسمه ، ولم يؤذ زوجته ، وأثنى الله سبحانه وتعالى على سيدنا أيوب عليه السلام قائلا :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ،

لقد صبر سيدنا أيوب عليه السلام صبرًا لم يصبره أحدٌ من البشر ، واحتمل عذابًا لا يطاق ، وجزاه الله خير الجزاء ، الجنة ونعيمها إن شاء الله .



من فوائد القصة

١- الصبر جواد لا يكبو ، وصارمٌ لا ينبو ، ذخيرة عند البلاء ، وعدة في البأساء والضراء ، وبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين ، وبالصبر نال القوم ما نالوا : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [سورة الزمر : ١٠] .

٢- إذا اشتد البلاء فقد اقترب الفرج ، وأشد ساعات الليل سوادًا ما يعقبها طلوع الفجر : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [سورة الشرح : ٥-٦] ، ولن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْنِ .

٣- الرضا بالبلاء شعار المحبين وصفة المتقين ، والصبر فرض والرضا فضل ، والله يؤتي فضله من يشاء .

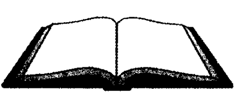
٤- وفاء المرأة لزوجها من صدق إيمانها ، وليت النساء يتعلمن من هذا الموقف درسًا في الوفاء ، وجزاء الوفاء من الزوج وفاء زوجته له .

٥- من ألهم الدعاء فقد ألهم الجواب ، وبالتضرع يكشف البلاء .











﴿وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾

من الأنبياء الصالحين ، وكان يصلي كل يوم مائة صلاة ، قيل : إنه تكفل لبني قومه أن يقضي بينهم بالعدل ويكفيهم أمرهم ففعل ؛ فسمّي بذي الكفل.

ذكر الله سبحانه وتعالى ذا الكفل عليه السلام ، وأثنى عليه مع الأنبياء :

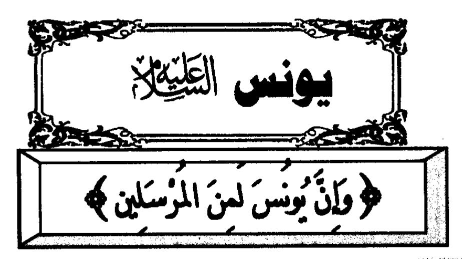
﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

وذو الكفل عليه السلام من الأنبياء الذين أوحى الله إليهم ، وكان ذو الكفل عليه السلام رجلا صالحًا ، وحكمًا مقسطًا عادلاً ، وقد تعهد ذو الكفل أن يكفيهم أمرهم ، ويقضي مصالحهم ، ويحكم بينهم بالعدل ، وقد كان رجلا صابرًا مؤمنًا .

وقد أثنى الله عليه وأدخله في رحمته في الدنيا والآخرة ، هذا ما أخبرنا الله به عنه ، ولا نعلم غيره .



١- العدل سمة الصالحين مع أنفسهم أولا ، ثم مع الناس ، وبالعدل تستقر دعائم الملك .
٢- الصبر والصلاح سبب لدخول الإنسان في رحمة الله عز وجل .
٣- من القربات التي يتقرب بها العبد إلى ربه قضاء مصالح إخوانه وإعانتهم عليها .



يونس عليه السلام

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

عناد أهل نينوى لنبيهم

عاش سيدنا يونس أو ذو النون عليه السلام مع أهل نينوى في أرض الموصل ، وكان نبيًا كريمًا ، كان يدعو قومه إلىٰ الإيمان بالله ويذكرهم بيوم القيامة ، لكن للأسف لم يؤمن به قومه ، بل ازداد عنادهم وكفرهم ، دعاهم سيدنا يونس ولم يجد صدى لدعوته في قلوبهم ، فتملكه اليأس من إيمانهم ، وأدرك أنهم يستحقون عقاب الله لتماديهم في الكفر ، فسأل الله أن يهلكهم ويصب عليهم العذاب لتكبرهم عن الإيمان ، وإيذائهم لرسول الله إليهم ، فتوعدهم بالعذاب بعد ثلاثة أيام .

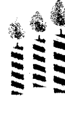
إيمان قومه بعد خروجه مغاضبا

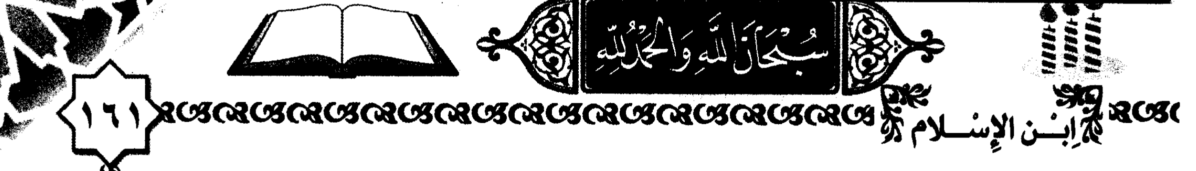
ولم ينتظر سيدنا يونس عليه السلام أمر الله سبحانه وتعالى بالرحيل من القرية الظالمة ، كان غاضبًا حزينًا يائسًا ، فلم يشعر أنه أخطأ وأن مهمته هي تبليغ الرسالة فقط وليس إدراك النجاح، فتعجل الأمر حين أوحى الله إليه بنزول العذاب عليهم ، وغادر سيدنا يونس عليه السلام القرية وهو لا يدري أن الله سيعاقبه .

بعد أن غادر سيدنا يونس عليه السلام القرية اجتمع أهلها ، وراحوا يتذكرون كلمات سيدنا يونس عليه السلام ودعوته إلىٰ الله ، وخاصة تلك الكلمات الأخيرة التي توعدهم فيها بالعذاب القريب ، وامتلأت القلوب بالخوف من الله عز وجل ، وندم أهل القرية علىٰ أعمالهم الظالمة ، وكفرهم وعنادهم ، وتابوا إلىٰ الله .

وقع في نفوسهم أن يلجئوا إلىٰ إله يونس فيؤمنوا ويتوبوا إليه ويستغفروه ، فخرجوا إلىٰ شعاب الجبال وبطون الصحراء ، شاكين متضرعين ، باكين متوسلين ، وفرقوا بين الأمهات







وأطفالها ، والإبل وفصلانها ، والبقر وأولادها ، والغنم وحملانها ، ثم أعول الجميع ، فصاحت الأمهات ، ورغت الإبل ، وخارت البقر ، وثغت الغنم ، وكانت ساعة بسط الله عليهم بعدها جناح رحمته ، ورفع عنهم سحائب نقمته ، وتقبل منهم التوبة والإنابة .

رفعوا أيديهم وتضرعوا إلى الله أن ينجيهم من العذاب المنتظر ، خصوصًا عندما رأوا مقدمات العذاب تظهر ، وسالت دموع الجميع ، الرجال والنساء والأطفال خوفًا من العقاب ، واستمروا في تضرعهم ودعوتهم حتى استجاب الله لهم ، وكشف عنهم العذاب، ونجاهم من العقاب الذي كان ينتظرهم ، آمن أهل يونس بالله بعد أن خرج النبي من قريتهم غاضبًا يائسًا ، قال الله عز وجل : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [سورة يونس : ٩٨] .

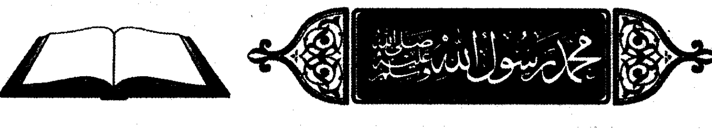
يونس عليه السلام في بطن الحوت

لما غضب يونس عليه السلام من قومه خرج من قريته ، واتجه إلى ساحل البحر هربًا من العذاب المنتظر ، وهناك ركب سيدنا يونس عليه السلام سفينة وانطلقت به ، وراحت الأمواج تضرب السفينة بعنف ، وفقد الركاب توازنهم ، وشعروا أنهم سيغرقون ، ونادى القبطان قائلا : لابد أن نخفف الحمل ، ألقوا متاعكم في البحر حتى لا نغرق .

ووافق الجميع ، ورغم ذلك ظلت السفينة تهتز ، فصاح القبطان : سنجري قرعة بيننا ، والذي تقع عليه القرعة سنقذفه في البحر .

وأعطى الركاب أسماءهم للقبطان الذي أجرى القرعة ، فأخرج اسم سيدنا يونس عليه السلام ، وأجريت القرعة مرة ثانية ، وثالثة ، وفي كل مرة يخرج اسم يونس عليه السلام ، ولم يكن هناك مفر من إلقاء سيدنا يونس عليه السلام في البحر ، ولكن ركاب السفينة رفضوا ، وأخيرًا ، ألقى سيدنا يونس عليه السلام بنفسه في البحر بعد أن غافلهم .

﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾



أرسل الله سبحانه وتعالى حوتًا وراء السفينة ، وأمره أن يبتلع سيدنا يونس عليه السلام دون أن يؤذيه ، وما كاد سيدنا يونس عليه السلام يستقر في البحر حتى ابتلعه الحوت .

فوجئ سيدنا يونس عليه السلام أنه استقر في بطن الحوت ، لحظات ظن أنه مات ، ولكنه حرك جسمه وأدرك أنه حي فخر ساجدًا لله ، ثم أخذ يفكر في هذا الموقف الغريب .

إنه في ظلمات ثلاث : ظلمة الليل ، وظلمة قاع البحر ، وظلمة بطن الحوت ، وعرف يونس عليه السلام ذنبه ، وشعر أنه أخطأ عندما ترك القرية دون أمر من الله ، فراح يصلي لله ويسبحه ، ويستغفره في بطن الحوت .

كان من الممكن أن يظل في بطن الحوت إلىٰ يوم القيامة ، ولكن شيئًا واحدًا كان سبب نجاته من هذا العذاب الأليم ، هذا الشيء هو التسبيح والذكر والدعاء .

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

سمع يونس عليه السلام وهو في جوف الحوت أصواتًا غريبة ، فسأل نفسه : ما هذه الأصوات ، وأوحى الله سبحانه وتعالى إليه : إنه صوت تسبيح مخلوقات البحر ، إن كل المخلوقات تسبح الله عز وجل ، فراح يونس عليه السلام يسبح الله ، لم تمر عليه لحظة واحدة إلا وهو يسبح وينادي الله مسبحًا ومستغفرًا:

﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

واستمر سيدنا يونس عليه السلام في تسبيحه ودعائه ، حتى استجاب الله سبحانه وتعالى له ، فأمر الله الحوت فتحرك نحو الشاطئ ، وفتح فكيه الواسعين ، وقذف يونس عليه السلام إلىٰ جزيرة خالية :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾

خرج يونس عليه السلام من بطن الحوت مريضًا وضعيف البدن ، فأنبت الله سبحانه وتعالى له على ساحل البحر شجرة من يقطين ، وهو نبات له أوراق عريضة ، حمت سيدنا يونس عليه السلام من أشعة الشمس ، فأكل يونس عليه السلام من ثمارها حتى استرد صحته واستظل بظلها .





﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾

وغفر الله لسيدنا يونس عليه السلام الذي بدأ رحلة جديدة من الدعوة إلىٰ الله سبحانه وتعالى .

﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

ولما استوى علىٰ سوقه ، ورجع إلىٰ سابق عهده ، أوحى الله إليه : أن ارجع إلىٰ بلدك وعشيرتك ؛ فإنهم آمنوا فنفعهم الإيمان ، ونبذوا الأصنام والأوثان ، وإنهم الآن يبحثون عن مكانك ويترقبون مجيئك .

وعاد يونس إلىٰ قريته ، وما راعه إلا أنه خلفهم وليس فيهم إلا من هو عاكف علىٰ الأصنام ، وعاد إليهم وما فيهم إلا ألسنة تلهج بذكر الرحمن :

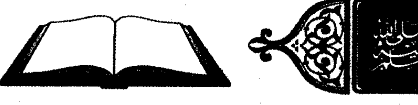
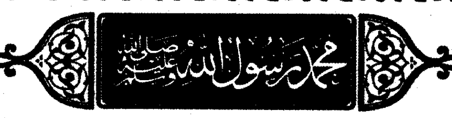
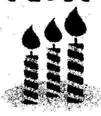
﴿ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

عاد يونس إلىٰ دعوته ، واستقبله قومه استقبالا حافلا ، وعاش فيهم ما شاء الله أن يعيش ، نبيًا مرسلا هاديًا معلمًا :

ألا سلام الله علىٰ يونس في المرسلين . .

قال رسول الله ﷺ : « مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى » (متفق عليه)
وهذا من تواضع نبينا المصطفى ﷺ ، فهو سيد ولد آدم مطلقًا ، إلا أن الحديث يخبرك عن مقام يونس عليه السلام .





من فوائد القصة

١- المؤمن الصادق يتفطر قلبه حزنًا عندما يرى قومه يعصون ربه ﷻ .

٢- التؤدة والأناة والحلم خصال يحبها الله ﷻ ورسوله ﷺ ، وتعود على المرء بخير في دينه ودنياه .

٣- على كل مسلم أن يبلغ دعوة الله ﷻ إلى الخلق دون انتظار النتائج .

٤- قلوب العباد بين يدي الله وحده يصرفها كيف شاء .

٥- عدة المؤمن في الكرب الاستغفار والتضرع والتبرؤ من حول النفس وقوتها إلى حول الله وقوته .

٦- تعرف إلى الله ﷻ في الرخاء يعرفك في الشدة ، ومن كان طائعًا لله وقت الرخاء، كان له رصيد عند الله في الشدائد .

٧- ليس لذكر الله ﷻ ودعائه مكان محدد ولا وقت محدد ، فأكثر من ذكر ربك على كل حال ، فقد كان رسول الله يذكر الله في كل أحيانه .

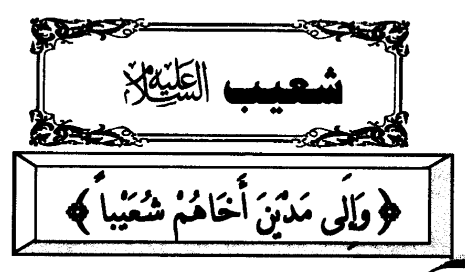
٨- ربنا ﷻ كريم لا أكرم منه ، يقبل دعاء من دعاه ، ويكشف الضر عمن تضرع إليه ، ويقبل توبة من عصاه ، فسبحان الله وبحمده .

٩- النبي نبي حتى يموت ، وإذا ترك هذا الشرف لا يُسمح له بذلك ، وكذلك الإيمان شرف للإنسان المؤمن ، إذا ارتد عنه يقتل .









شعيب عليه السلام

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾

الدين عقيدة وسلوك

لقد برز في قصة شعيب أن الدين ليس قضية توحيد وألوهية فقط ، بل لابد لهما من آثارهما الصحيحة على التصرفات والأفكار ؛ ولذلك فهو منهج لحياة الناس .

أرسل الله سبحانه وتعالى شعيبًا عليه السلام إلى أهل مدين .

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

كان أهل مدين قومًا من الأعراب يسكنون مدينة مدين ، التي تقع في أرض تسمى معان في أرض الشام ، قريبًا من بحيرة قوم لوط ، وكان أهل مدين من الكفار الذين يعبدون الأيكة، وهي شجرة كبيرة حولها أشجار عديدة ملتفة بها ، وكانوا يقطعون الطريق ويخيفون المارة ويرهبونهم ، وكانت معاملاتهم المالية من أسوأ المعاملات .

أهل مدين يغشون في المكيال

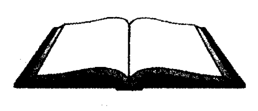
فقد اشتهر أهل مدين بالغش والتلاعب في الميزان والمكيال ، كانوا إذا وزنوا البضاعة غشوا في الميزان ، فيأخذ المشتري حقه ناقصًا، وإذا دفعوا النقود تحايلوا بالغش والخداع ؛ ليأكلوا حقوق الناس .

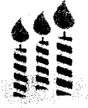
وقد بعث الله سيدنا شعيبًا عليه السلام إلى أهل مدين ، وكان ذا خلق كريم ، فصيحًا، بليغًا ، لذلك أطلق عليه : خطيب الأنبياء .

شعيب عليه السلام يبين معالم الدعوة

وقف سيدنا شعيب عليه السلام أمام أهل مدين يدعوهم إلى الله وينهاهم عن عبادة الأيكة ، قال :

﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾



هكذا هي القضية الأساسية لأية دعوة حقيقية ، الدعوة إلى التوحيد أولا وقبل كل شيء، فرغم أن الآفات منتشرة ومتعددة ، فهم يقطعون السبيل ، ويبخسون الناس أشياءهم ، وينقصون المكيال والميزان . . و. . و. . ، وكثير غير ذلك ، إلا أن الأصل هو التوحيد ، ولو صح توحيد الناس أولا لصحت معاملاتهم ، ولذلك كان التركيز كله في الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى ، ثم يأتي بعد ذلك الدعوة إلى جميع الفروع، ومعالجة جميع الأمراض.

ثم شرح لهم أن الله أرسله لهدايتهم ، وأنه لن يطلب أجرًا منهم نظير دعوته ، وأنه يدعوهم ؛ ليعرفوا طريق الحق إلى الله ، قال سيدنا شعيب :

﴿ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾

بعد قضية التوحيد مباشرة ، ينتقل النبي إلى قضية المعاملات اليومية ، قضية الأمانة والعدالة ، كان أهل مدين ينقصون المكيال والميزان ، ولا يعطون الناس حقهم ، وهي رذيلة تمس نظافة القلب واليد ، كما تمس كمال المروءة والشرف ، وكان أهل مدين يعتبرون بخس الناس أشياءهم ، نوعًا من أنواع المهارة في البيع والشراء ، ودهاء في الأخذ والعطاء، ثم جاء نبيهم وأفهمهم أن هذه دناءة وسرقة ، أفهمهم أنه يخاف عليهم بسببها من عذاب يوم محيط ، انظر إلى تدخل الإسلام الذي بعث به شعيب عليه السلام في حياة الناس ، إلى الحد الذي يراقب فيه عملية البيع والشراء .

استنكر أهل مدين دعوة شعيب عليه السلام إلى الله سبحانه وتعالى وقالوا :

﴿ يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾

هي نفس العلة التي يتعلل بها أصحاب الأهواء دائمًا ، ما كان عليه آباؤهم ، إنك تراهم يخالفون آباءهم في كل شيء ، ولكن يأتون عندما تخالف الدعوة إلى الله أهواءهم يتمسكون بما كان عليه آباؤهم ، لا لكونه حقًا ، ولكن لأنه موافق للهوى .



ثم انظر إلى تعليلهم السرقة تعليلا لطيفًا ، كاللص الظريف ، يقولون : ﴿ نَفْعَل فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ ، كأنهم يقولون : لا شأن لك ، هي فلوسنا ، إن أردنا أن نحرقها حرقناها ، فاخرج منها !!

أدرك شعيب عليه السلام أن قومه يسخرون منه لاستبعادهم تدخل الدين في الحياة اليومية ، ولذلك تلطف معهم تلطف صاحب الدعوة الواثق من الحق الذي معه ، وتجاوز سخريتهم لا يباليها ، ولا يتوقف عندها ، ولا يناقشها ، تجاوز السخرية إلى الجد ، أفهمهم أنه على بينة من ربه ، إنه نبي يعرف الحق ويدعو إليه ، وهو لا يريد أن يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه ، إنه لا ينهاهم عن شيء ليحقق لنفسه نفعًا منه ، إنه لا ينصحهم بالأمانة ليخلو له السوق فيستفيد من التلاعب ، إنه لا يفعل شيئًا من ذلك ؛ إنما هو نبي ، وها هو ذا يلخص لهم كل دعوات الأنبياء هذا التلخيص المعجز :

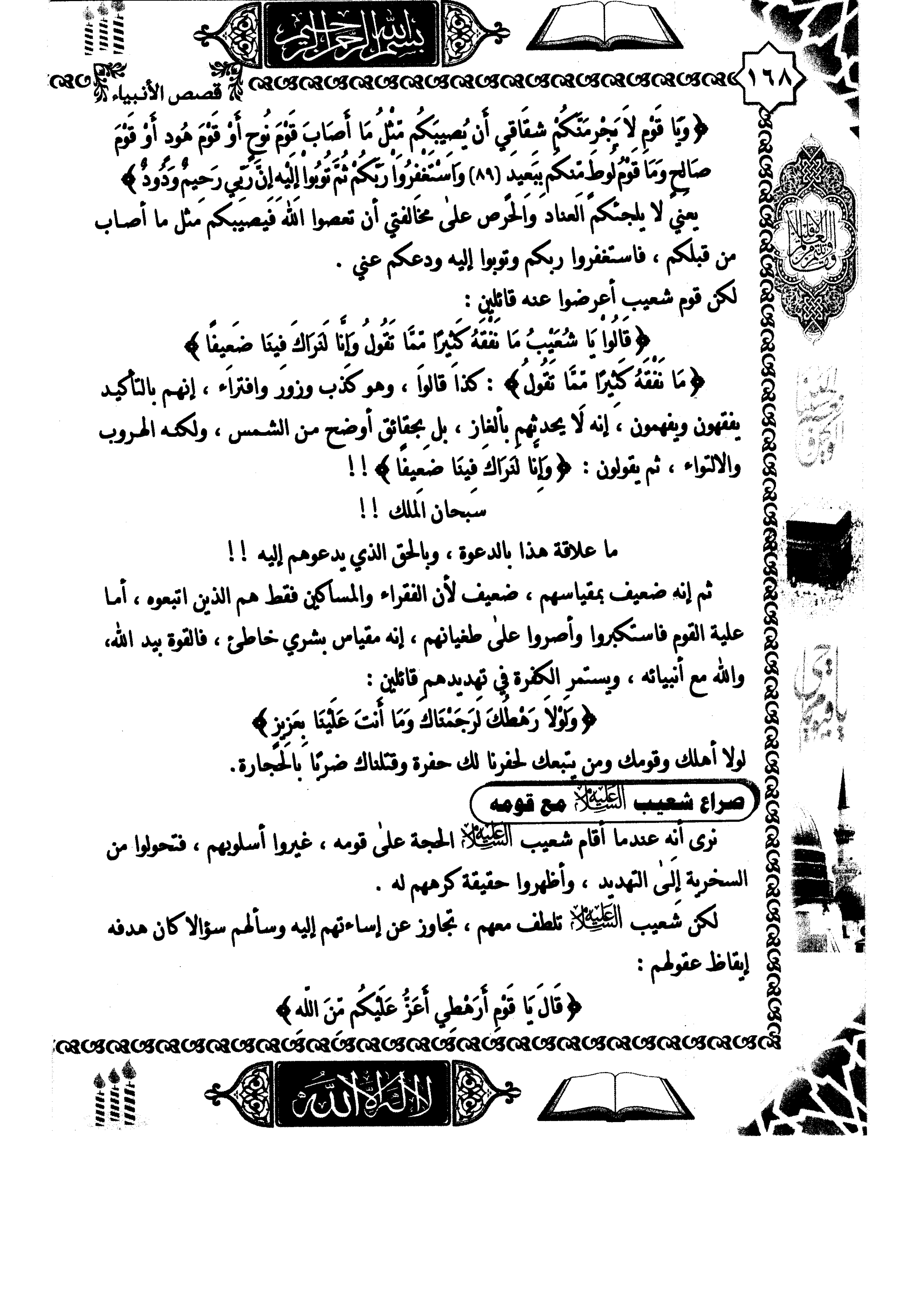
﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

كأنه يقول : أنا غني ، وعندي مال ، ورزقني الله منه رزقًا حسنًا ..

إن ما أريده هو الإصلاح ، هذه هي دعوات الأنبياء في مضمونها الحقيقي وعمقها البعيد ، إنهم مصلحون أساسًا ، مصلحون للعقول ، والقلوب ، والحياة العامة ، والحياة الخاصة .

تذكيره لهم بمصائر من قبلهم

بعد أن بين شعيب عليه السلام لقومه أساس دعوته ، وما يجب عليهم الالتزام به ، ورأى منهم الاستكبار ، حاول إيقاظ مشاعرهم بتذكيرهم بمصير من قبلهم من الأمم ، وكيف دمرهم الله بأمر منه ، فذكرهم قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وأراهم أن سبيل النجاة هو العودة لله عز وجل تائبين مستغفرين ، فالمولى غفور رحيم .



﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾

يعني لا يلجئكم العناد والحرص على مخالفتي أن تعصوا الله فيصيبكم مثل ما أصاب من قبلكم ، فاستغفروا ربكم وتوبوا إليه ودعكم عني .

لكن قوم شعيب أعرضوا عنه قائلين :

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾

﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ : كذا قالوا ، وهو كذب وزور وافتراء ، إنهم بالتأكيد يفقهون ويفهمون ، إنه لا يحدثهم بألغاز ، بل بحقائق أوضح من الشمس ، ولكنه الهروب والالتواء ، ثم يقولون : ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ ! !

سبحان الملك ! !

ما علاقة هذا بالدعوة ، وبالحق الذي يدعوهم إليه ! !

ثم إنه ضعيف بمقياسهم ، ضعيف لأن الفقراء والمساكين فقط هم الذين اتبعوه ، أما علية القوم فاستكبروا وأصروا على طغيانهم ، إنه مقياس بشري خاطئ ، فالقوة بيد الله، والله مع أنبيائه ، ويستمر الكفرة في تهديدهم قائلين :

﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾

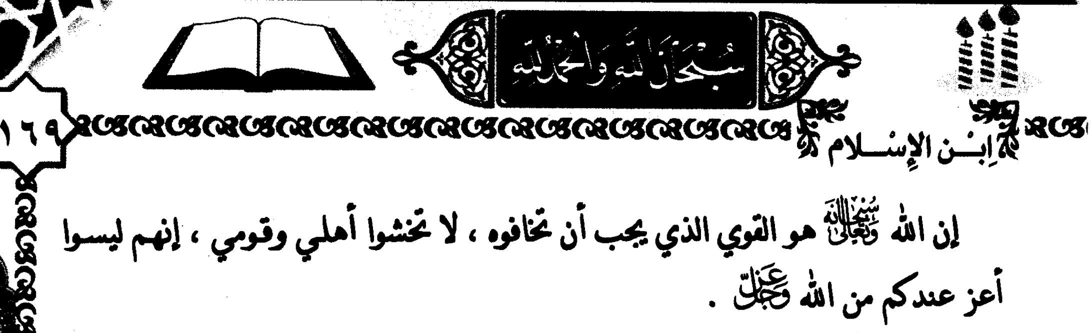
لولا أهلك وقومك ومن يتبعك لحفرنا لك حفرة وقتلناك ضربًا بالحجارة.

صراع شعيب عليه السلام مع قومه

نرى أنه عندما أقام شعيب عليه السلام الحجة على قومه ، غيروا أسلوبهم ، فتحولوا من السخرية إلى التهديد ، وأظهروا حقيقة كرههم له .

لكن شعيب عليه السلام تلطف معهم ، تجاوز عن إساءتهم إليه وسألهم سؤالا كان هدفه إيقاظ عقولهم :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾



إن الله سبحانه وتعالى هو القوي الذي يجب أن تخافوه ، لا تخشوا أهلي وقومي ، إنهم ليسوا أعز عندكم من الله عز وجل .

وهنا ، تملك أهل مدين الضيق والغضب ، وصاحوا في استكبار وعناد :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾

قالوا : سنطردك من بلادنا شر طردة ، ولا نسمح لك بالعيش معنا ، طالما فارقت ديننا ، فارجع إليه أنت ومن معك . .

قال شعيب عليه السلام : إن من اتبعني لن يعود أبدًا إلىٰ ملتكم بعد أن هداه الله ونجاه منها ، إلا إذا عاد مضطرًا مكرهًا ، ولن تستطيعوا أنتم أن تنتزعوا الإيمان من قلبه ، وحاولوا إرهاب من اتبعوه فقالوا لهم :

﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾

استمر الصراع بين سيدنا شعيب عليه السلام وقومه ، واستمروا في عنادهم وإصرارهم علىٰ الفساد ، وانقسم قوم شعيب إلىٰ فئتين : فئة قليلة اتبعت النبي وآمنت بالله ، وفئة كافرة أصرت علىٰ العناد والضلال ، وقد حاولت الفئة الكافرة تخويف المؤمنين وإرجاعهم إلىٰ الكفر ، وعندما فشلوا بدأوا يضايقون شعيبًا ومن اتبعه ، فقال لهم شعيب عليه السلام :

﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [سورة هود : ٩٢-٩٣].

وانتقل الصراع إلىٰ تحد من لون جديد ، راحوا يطالبونه بأن يسقط عليهم كسفًا من السماء إن كان من الصادقين ، راحوا يسألونه عن عذاب الله : أين هو ؟ وكيف هو ؟ ولماذا تأخر ؟ سخروا منه ، وانتظر شعيب عليه السلام أمر الله سبحانه وتعالى .



الصيحة تدمر الظالمين

أوحى الله سبحانه وتعالى إليه أن يُخرج المؤمنين ويخرج معهم من القرية، وخرج شعيب عليه السلام، وجاء أمره سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾

في البداية صار الجو شديد الحرارة وسكنت الرياح ، فأصبح أهل مدين لا يطيقون الحر الهائل ، ثم أظلت المدينة سحابة كبيرة ، فاستبشر أهل المدينة بهبوط المطر وزوال الحر ، واجتمعوا تحت السحابة ، وفجأة بدأت السحابة تمطر شهبًا وشرارًا أصابهم جميعًا ، ورجفت الأرض بهم رجفة شديدة، وانطلقت من السماء صيحة مدوية، حصدت كل الأرواح.

هي صيحة واحدة ، صوت جاءهم من غمامة أظلتهم ، ولعلهم فرحوا بما تصوروا أنها تحمله من المطر ، ثم فوجئوا أنهم أمام عذاب عظيم ليوم عظيم ، انتهى الأمر ، أدركتهم صيحة جبارة جعلت كل واحد فيهم يجثم على وجهه في مكانه الذي كان فيه في داره ، صعقت الصيحة كل مخلوق حي ، لم يستطع أن يتحرك أو يجري أو يختبئ أو ينقذ نفسه ، جثم في مكانه مصروعًا بصيحة.

نجاة شعيب عليه السلام والمؤمنين

ومات كل أهل مدين ، وصارت المدينة خاوية ، والتفت سيدنا شعيب عليه السلام إلى أهل مدين ، إنه لم يحزن على ما أصابهم ، لقد بذل كل جهده لإنقاذهم ، نصحهم ودعاهم، وأبت قلوبهم المريضة أن تستجيب لدعوته ، لقد نالوا العقاب الذي يستحقونه . قال سيدنا شعيب عليه السلام وهو يبتعد : ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف : ٩٣] ، لن أحزن عليكم ، فكيف أحزن على قوم كفروا بالله ، وابتعد سيدنا شعيب عليه السلام والمؤمنون عن المدينة الخاوية ، وهم سعداء بنصر الله لهم على أعدائهم ، واستكمل شعيب رحلة الحياة مع من اتبعه من المؤمنين ، يعلمهم ويدعوهم ، وهم يعملون بطاعة الله حتى مات شعيب ، ألا صلاةً وسلامًا على شعيب في العالمين إلى يوم الدين .







من فوائد القصة









١- الدين يهيمن على كل جوانب الحياة ، فليس الدين طقوسًا في المسجد فحسب ، بل الدين معاملة وعقيدة وعمل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [سورة البقرة : ٢٠٨] .

٢- من حسن مخاطبتك للناس ثناؤك على جوانب الخير التي تعلمها فيهم .

٣- لا يحل لمسلم يعلم حرمة أمر يقع الناس فيه إلا أن يبَيِّنه وحذر الناس منه .

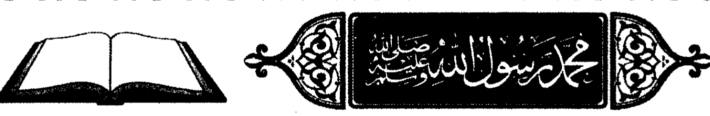
٤- ينبغي للمسلم الصادق ألا يبالي بسخرية الناس واستهزائهم ، بل لابد أن يستمر على الحق ، يبينه للناس بحكمة ، ولا يصغي أبدًا لما يعطله أو يعرقله .

٥- بغية الأنبياء وأتباعهم إصلاح الناس وترغيبهم في الدين الحق ، فهم مصلحون للقلوب والعقول ، وكل مناحي الحياة .

٦- من ذكاء الداعية وفقهه تنويع أسلوب الكلام على حسب حال المخاطَب .

٧- من أساليب الصد عن سبيل الله تخويف الدعاة وأتباعهم ، وتهديدهم بأنواع التهديدات المختلفة .

٨- الجزاء من جنس العمل ، من خادع الله خادعه ، ومن غش في الكيل والميزان استحق النكال والعذاب من الله عز وجل ، فهؤلاء لما خادعوا الخلق خادعهم الله عز وجل : ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [سورة النساء : ١٤٢] .





موسى عليه السلام

﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ۞ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾

نشأة موسى عليه السلام

كان أهل مصر أيام الفراعنة يعبدون الأصنام ، ولما جاء يوسف إلى مصر وملك زمام الأمور بها سنين طويلة دعا الناس إلى التوحيد فآمنوا ، ثم جاء آل يعقوب وعاشوا في مصر ، واختلطوا بالمصريين ، فعرف المصريون منهم التوحيد ، وعاش الجميع على توحيد الله مدة طويلة أثناء حياة يوسف عليه السلام ، لكن بعد وفاته عليه السلام ، عاد أهل مصر إلى ضلالهم وشركهم ، أما أبناء يعقوب عليه السلام ، أو أبناء إسرائيل ، فكما علمنا من قصة يوسف عليه السلام أنهم أتوا جميعًا لأمر يوسف عليه السلام : ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، فعاشوا في مصر ، واختلطوا بالمجتمع المصري ، فضل منهم من ضَل ، وبَقي على التوحيد من بقي ، وتكاثر أبناء إسرائيل وتزايد عددهم ، واشتغلوا في العديد من الحرف ، وصارت إليهم المهارة في تلك الحرف ، واعتمد المصريون عليهم فيها .

ثم حكم مصر ملك جبار كان المصريون يعبدونه ، ورأى هذا الملك بني إسرائيل يتكاثرون ويزيدون ويملكون ، وكان بنو إسرائيل في ظل حكم هذا الملك الظالم يعيشون مضطهدين مستضعفين ، فقد كان يقتل الرجال ، ويستعبد النساء ، فكانوا في بلاء عظيم، ومما زاد عليهم البلاء أنه سمعهم مرة يتحدثون عن نبوءة تقول : إن واحدًا من أبناء إسرائيل سيُسقط فرعون مصر عن عرشه ، فأصدر فرعون أمره ألا يلد أحد من بني إسرائيل ، أي أن يقتل أي وليد ذكر ، وبدأ تطبيق النظام ، ثم قال مستشارو فرعون له : إن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم ، والصغار يذبحون ، وهذا سينتهي إلى إفناء بني إسرائيل، فستضعف مصر لقلة الأيدي العاملة بها ، والأفضل أن تنظم العملية بأن يذبحوا الذكور في عام ويتركوهم في العام الذي يليه .



ووجد فرعون أن هذا الحل أسلم . .

وحملت أم موسى بهارون في العام الذي لا يقتل فيه الغلمان ، فولدته علانية آمنة ، فلما جاء العام الذي يقتل فيه الغلمان ولد موسى ، وحمل ميلاده خوفًا عظيمًا لأمه ، خافت عليه من القتل ، راحت ترضعه في السر ، ثم جاءت عليها ليلة مباركة أوحى الله إليها فيها :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

فأمرت الأم بصنع صندوق صغير لموسى ، أرضعته ووضعته في الصندوق ، وذهبت إلىٰ شاطئ النيل وألقته في المياه ، كان قلب الأم ، وهو أرحم القلوب في الدنيا ، يمتلئ بالألم وهي ترمي ابنها في النيل ، لكنها كانت تعلم أن الله أرحم بموسى منها ، والله هو ربه ورب النيل ، لم يكد الصندوق يلمس مياه النيل حتى أمر الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأمواج أن تكون هادئة حانية وهي تحمل هذا الرضيع الذي سيكون نبيًّا فيما بعد، ومثلما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ النار أن تكون بردًا وسلامًا علىٰ إبراهيم ، كذلك أمر النيل أن يحمل موسى بهدوء ورفق حتى يسلمه إلىٰ قصر فرعون ، وحملت مياه النيل هذا الصندوق العزيز إلىٰ قصر فرعون، وهناك أسلمه الموج للشاطئ .

وفي ذلك الصباح خرجت زوجة فرعون تتمشى في حديقة القصر ، وكانت زوجة فرعون تختلف كثيرًا عنه ، فقد كان هو كافرًا وكانت هي مؤمنة ، كان هو قاسيًا وكانت هي رحيمة ، كان جبارًا وكانت رقيقة وطيبة ، وأيضًا كانت حزينة ، فلم تكن تلد ، وكانت تتمنى أن يكون عندها ولد .



موسى يدخل قصر فرعون

وعندما ذهبت الجواري ليملأن الجرار من النهر ، وجدن الصندوق . . .

فحملنه كما هو إلىٰ زوجة فرعون ، فأمرتهن أن يفتحنه ففتحنه ، فرأت موسى بداخله فأحست بحبه في قلبها ، فلقد ألقى الله في قلبها محبته فحملته من الصندوق ، فاستيقظ موسى وبدأ يبكي، كان جائعًا يحتاج إلىٰ رضعة الصباح ؛ فبكى .

فجاءت زوجة فرعون إليه ، وهي تحمل بين يديها طفلا رضيعًا ، فسأل : من أين جاء هذا الرضيع ؟ فحدثوه بأمر الصندوق ، فقال بقلب لا يعرف الرحمة : لابد أنه أحد أطفال بني إسرائيل ، أليس المفروض أن يقتل أطفال هذه السنة ؟

صرخت زوجته وهي تضم موسى إلىٰ صدرها أكثر :

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾

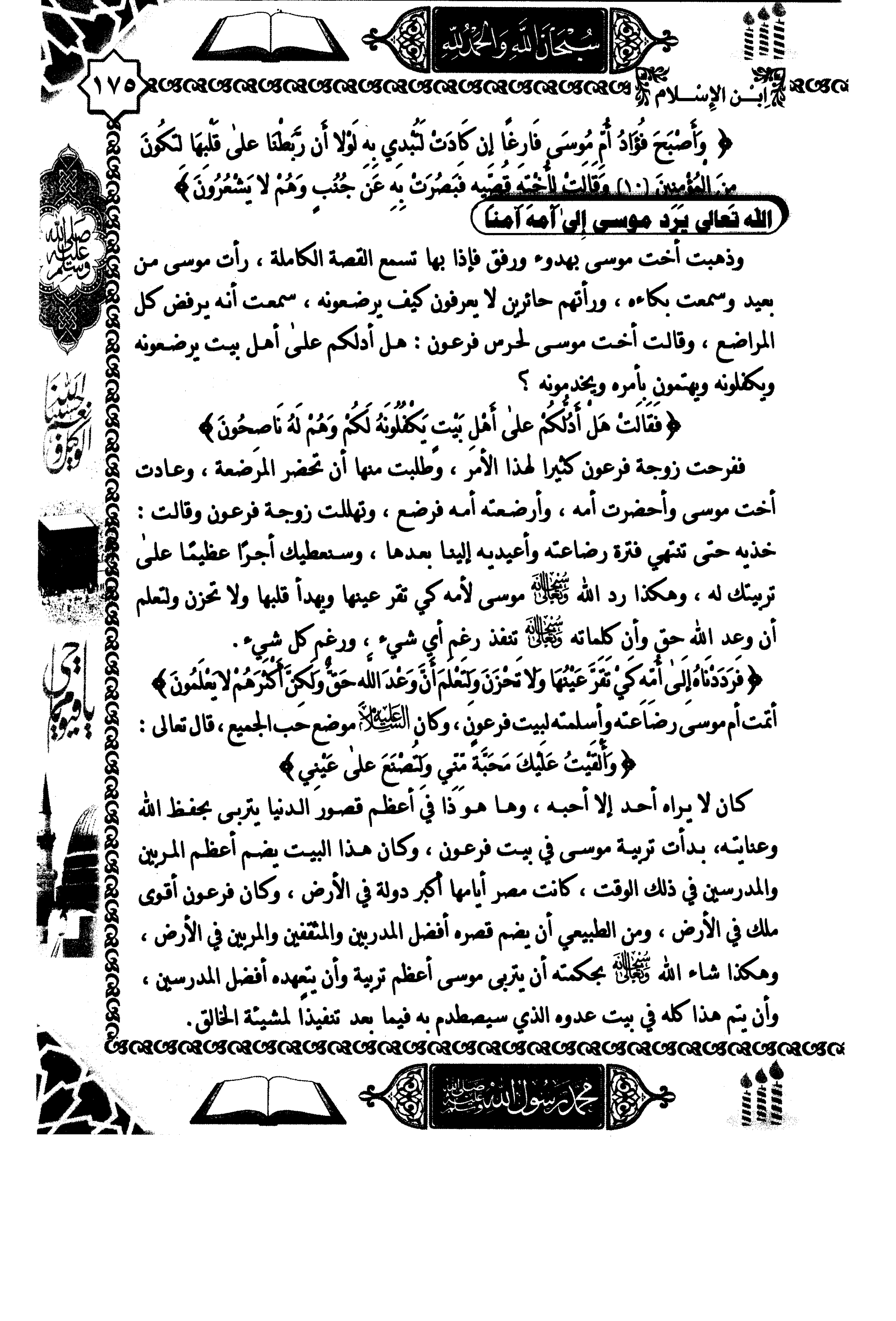
تذكر فرعون عدم قدرة زوجته علىٰ الإنجاب ، فاستجاب لرغبتها وسمح لها أن تربي هذا الطفل في قصره .

عاد موسى للبكاء من الجوع ، فأمرت بإحضار المراضع ، فحضرت مرضعة من القصر وأخذت موسى لترضعه فرفض أن يرضع منها ، فحضرت مرضعة ثانية وثالثة وعاشرة وموسى يبكي ولا يريد أن يرضع ، فاحتارت زوجة فرعون ولم تكن تعرف ماذا تفعل .



﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾

لم تكن زوجة فرعون هي وحدها الحزينة الباكية بسبب رفض موسى لجميع المراضع ، فلقد كانت أم موسى هي الأخرى حزينة باكية ، لم تكد ترمي موسى في النيل حتى أحست أنها ترمي قلبها في النيل ، غاب الصندوق في مياه النيل واختفت أخباره ، وجاء الصباح علىٰ أم موسى فإذا قلبها فارغ يذوب حزنًا علىٰ ابنها ، وكادت تذهب إلىٰ قصر فرعون ؛ لتبلغهم نبأ ابنها وليكن ما يكون ، لولا أن الله سبحانه وتعالى ربط علىٰ قلبها وملأ بالسلام نفسها فهدأت واستكانت وتركت أمر ابنها لله ، كل ما في الأمر أنها قالت لأخته : اذهبي بهدوء إلىٰ جوار قصر فرعون وحاولي أن تعرفي ماذا حدث لموسى ، وإياك أن يشعروا بك .



﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

الله تعالى يرد موسى إلى أمه آمنا

وذهبت أخت موسى بهدوء ورفق فإذا بها تسمع القصة الكاملة ، رأت موسى من بعيد وسمعت بكاءه ، ورأتهم حائرين لا يعرفون كيف يرضعونه ، سمعت أنه يرفض كل المراضع ، وقالت أخت موسى لحرس فرعون : هل أدلكم علىٰ أهل بيت يرضعونه ويكفلونه ويهتمون بأمره ويخدمونه ؟

﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾

ففرحت زوجة فرعون كثيرا لهذا الأمر ، وطلبت منها أن تحضر المرضعة ، وعادت أخت موسى وأحضرت أمه ، وأرضعته أمه فرضع ، وتهللت زوجة فرعون وقالت : خذيه حتى تنتهي فترة رضاعته وأعيديه إلينا بعدها ، وسنعطيك أجرًا عظيمًا علىٰ تربيتك له ، وهكذا رد الله ﷻ موسى لأمه كي تقر عينها ويهدأ قلبها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق وأن كلماته ﷻ تنفذ رغم أي شيء ، ورغم كل شيء .

﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

أتمت أم موسى رضاعته وأسلمته لبيت فرعون ، وكان عليه السلام موضع حب الجميع ، قال تعالى :

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾

كان لا يراه أحد إلا أحبه ، وها هو ذا في أعظم قصور الدنيا يتربى بحفظ الله وعنايته، بدأت تربية موسى في بيت فرعون ، وكان هذا البيت يضم أعظم المربين والمدرسين في ذلك الوقت ، كانت مصر أيامها أكبر دولة في الأرض ، وكان فرعون أقوى ملك في الأرض ، ومن الطبيعي أن يضم قصره أفضل المدربين والمثقفين والمربين في الأرض ، وهكذا شاء الله ﷻ بحكمته أن يتربى موسى أعظم تربية وأن يتعهده أفضل المدرسين ، وأن يتم هذا كله في بيت عدوه الذي سيصطدم به فيما بعد تنفيذًا لمشيئة الخالق.



من فوائد القصة

(١) إنما يستحق الثناء من بذل لله ودينه ، ونجد ذكر أم موسى وأخته ولم يرد ذكر والده ؛ لأن الدور الإيماني كان منوطًا بهذه الأم المباركة ، وفيه إشارة أيضًا إلىٰ أهمية الأم وعظم دورها .

(٢) من أحبه الله أجرى في قلوب الخلق محبته ، ووضع له القبول في الأرض .

(٣) عجز الآلهة الباطلة عن النفع أو الضر ، ففرعون الذي يدعي الألوهية يعجز عن أن تحمل زوجته بولد .

(٤) قد يجمع الله بين زوج كافر وزوجة مؤمنة – قدريًا كونيًا – كما قد يجمع بين زوج مؤمن وامرأة كافرة كما في قصة لوط ونوح ، وكل يجازى بعمله .

(٥) تربى موسى كليم الله في بيت فرعون عدو الله ليهلكه الله بيده .

(٦) لما أطاعت أم موسى أمر الله إليها بإلقائه في النهر ثبتها وربط علىٰ قلبها ، ثم أعاده إليها بالعزة والكرامة ، فكذلك كل من يطيع الله يعينه ويرزقه من حيث لا يحتسب.

موسى يبلغ أشده

وكبر موسى في بيت فرعون ، كان موسى يعلم أنه ليس ابنًا لفرعون ؛ إنما هو واحد من بني إسرائيل ، ونشأ موسى علىٰ هذه الحقيقة ، أنه يعيش في وطن ينقسم إلىٰ قسمين : أبناء يعقوب عليه السلام ، وهم بنو إسرائيل العبريون ، الذين جاءوا من فلسطين أيام يوسف عليه السلام ، والأقباط الفراعنة أهل مصر الأصليون ، وكان يرى كيف يضطهد رجال فرعون وأتباعه بني إسرائيل ، وكبر موسى وبلغ أشده . .





﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ وراح يمشي فيها ، فوجد رجلا من الفراعنة وهو يقتتل مع رجل من بني إسرائيل ، واستغاث به الرجل الضعيف فتدخل موسى وأزاح بيده الرجل الظالم فقتله ، كان موسى قويًا جدًا ، ولم يكن يقصد قتل الظالم ؛ إنما أراد إزاحته فقط ، لكن ضربته هذه قتلته ، ففوجئ موسى به وقد مات وقال لنفسه:

﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾

ودعا موسى ربه :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾

وغفر الله سبحانه وتعالى له ، ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

فشكر نعمة الله على هذه المغفرة ، وندم على إيذاء الناس وقتل الظالم حتى قال :

﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾

خروج موسى من المدينة خائفا

أصبح موسى ﴿ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ كان هذا حال موسى، حال إنسان مطارد ، فهو خائف ، يتوقع الشر في كل خطوة ، وهو مترقب ، يلتفت لأوهى الحركات وأخفاها ؛ لأنه قتل إنسانا ، ومطاردة الفراعنة لبني إسرائيل كانت واضحة ، فأصاب القلق موسى .

وعد موسى عليه السلام ربه سبحانه وتعالى بأن لا يكون ظهيرًا للمجرمين ، لن يتدخل في المشاجرات بين المجرمين والمشاغبين ليدافع عن أحد من قومه ، ولكن فوجئ موسى أثناء سيره بنفس الرجل الذي أنقذه بالأمس وهو يناديه ويستصرخه اليوم ، كان الرجل مشتبكًا في عراك مع أحد الفراعنة مرة أخرى ، وأدرك موسى بأن هذا العبري مشاغب ، أدرك أنه من هواة المشاجرات .

وصرخ موسى في صاحبه يعنفه قائلا : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ، قال موسى كلمته واندفع نحوهما يريد البطش بالمصري ، واعتقد العبري أن موسى سيبطش به هو ، دفعه الخوف من موسى إلى استرحامه صارخًا ، وذكره بالفرعوني الذي قتله بالأمس ، فتوقف موسى ، سكت عنه الغضب وتذكر ما فعله بالأمس ، وكيف استغفر وتاب ووعد ألا

يكون ظهيرًا للمجرمين ، استدار موسى عائدًا ومضى وهو يستغفر ربه ، وهكذا فضح هذا الغويّ الأمر ، وأظهر السر ، وأعلن التهمة علىٰ موسى .

وأدرك الفرعوني الذي كان يتشاجر مع العبري أن موسى هو قاتل الفرعوني الذي عثروا علىٰ جثته أمس ، ولم يكن أحد من الفراعنة يعلم من القاتل ، فنشر هذا الفرعوني الخبر في أرجاء المدينة ، وانكشف سر موسى وظهر أمره ، وجاء رجل مؤمن من أقصى المدينة مسرعًا ، ونصح موسى بالخروج من مصر ؛ لأن فرعون وملأه ينوون قتله.

﴿ وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

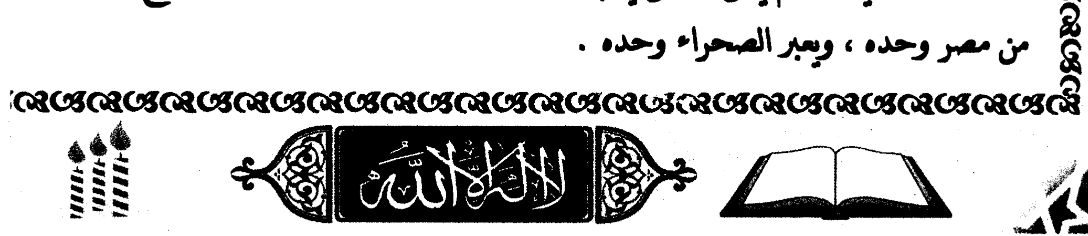
نصحه الرجل أن يغادر مصر فورًا حتى لا يعثر عليه رجال فرعون ، خرج علىٰ الفور، خائفًا يتلفت ويتسمع ويترقب ، في قلبه دعاء لله ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ، وكان القوم ظالمين حقًا ، ألا يريدون تطبيق عقوبة القتل العمد عليه ، وهو لم يفعل شيئًا أكثر من أنه مد يده وأزاح رجلا فقتله خطأ ؟!

وصدق موسى في اللجوء إلى الله ، وخرج من مصر مرددًا هذا الدعاء :

﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

نجاة موسى من القتل

خرج موسى من مصر علىٰ عجل ، لم يذهب إلىٰ قصر فرعون ولم يغير ملابسه ولم يأخذ طعامًا للطريق ولم يُعِدّ للسفر عُدَّته ، لم يكن معه دابة تحمله علىٰ ظهرها وتوصله ، ولم يكن في قافلة ؛ إنما خرج بمجرد أن جاءه الرجل المؤمن وحذره من فرعون ونصحه أن يخرج ، اختار طريقًا غير مطروق وسلكه ، دخل في الصحراء مباشرة واتجه إلىٰ حيث قدَّر له الله أن يتجه ، لم يكن موسى يسير قاصدًا مكانًا معينًا ، هذه أول مرة يخرج فيها من مصر وحده ، ويعبر الصحراء وحده .



موسى مع صاحب مدين

ظل موسى عليه السلام يسير بنفسية المطارد حتى وصل إلىٰ مكان ، كان هذا المكان هو مدين ، دخل مباشرة يبحث عن ماء يشرب ، ووجد بئرًا كبيرة ، جلس يستريح عند هذه البئر وكان الناس يسقون منها دوابهم ، وكان خائفًا طوال الوقت ، يخشى أن يرسل فرعون وراءه من يقبض عليه .

لم يكد موسى يصل إلىٰ مدين حتى ألقى بنفسه قريبًا من البئر ، تحت شجرة واستراح، نال منه الجوع والتعب ، وسقطت نعله بعد أن ذابت من مشقة السير علىٰ الرمال والصخور والتراب ، لم تكن معه نقود لشراء نعل جديدة ، ولم تكن معه نقود لشراء طعام أو شراب ، لاحظ موسى جماعة من الرعاة يسقون غنمهم ، ووجد امرأتين تكفان غنمهما أن يختلطا بغنم القوم .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾

أحس موسى أن الفتاتين في حاجة إلىٰ المساعدة ، تقدم منهما بأدب خافضًا بصره وسأل : هل يستطيع أن يساعدهما في شيء ؟!

قالت إحداهما : نحن ننتظر أن ينتهي الرعاة من سقي غنمهم لنسقي أغنامنا .

سأل موسى : ولماذا لا تسقيان ؟

قالت الأخرى : لا نستطيع أن نزاحم الرجال : ﴿ لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ .

اندهش موسى لأنهما ترعيان الغنم ، المفروض أن يرعى الرجال الأغنام ، هذه مهمة شاقة ومتعبة وتحتاج إلىٰ اليقظة .

سأل موسى : لماذا ترعيان الغنم؟

فقالت إحداهما : أبونا شيخ كبير لا تساعده صحته علىٰ الخروج كل يوم للرعي.

فقال موسى : سأسقي لكما .

سار موسى نحو الماء ، اكتشف أن الرعاة قد وضعوا علىٰ فم البئر صخرة ضخمة لا يستطيع أن يحركها غير عشرة رجال ، احتضن موسى الصخرة ورفعها من فم البئر ، وكان موسى قويًا ؛ لذا تمكن من رفعها وحده ، سقى لهما الغنم وأعاد الصخرة إلىٰ مكانها، وتركهما وعاد يجلس تحت ظل الشجرة ، وقد غلبه الجوع والفاقة والحاجة :

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ﴾

وتذكر لحظتها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وناداه في قلبه :

﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾

عادت الفتاتان إلىٰ أبيهما الشيخ .

سأل الأب : عدتما اليوم سريعًا علىٰ غير العادة؟ !

قالت إحداهما : وجدنا رجلا كريمًا سقى لنا الغنم قبل أن يسقي الرعاة .

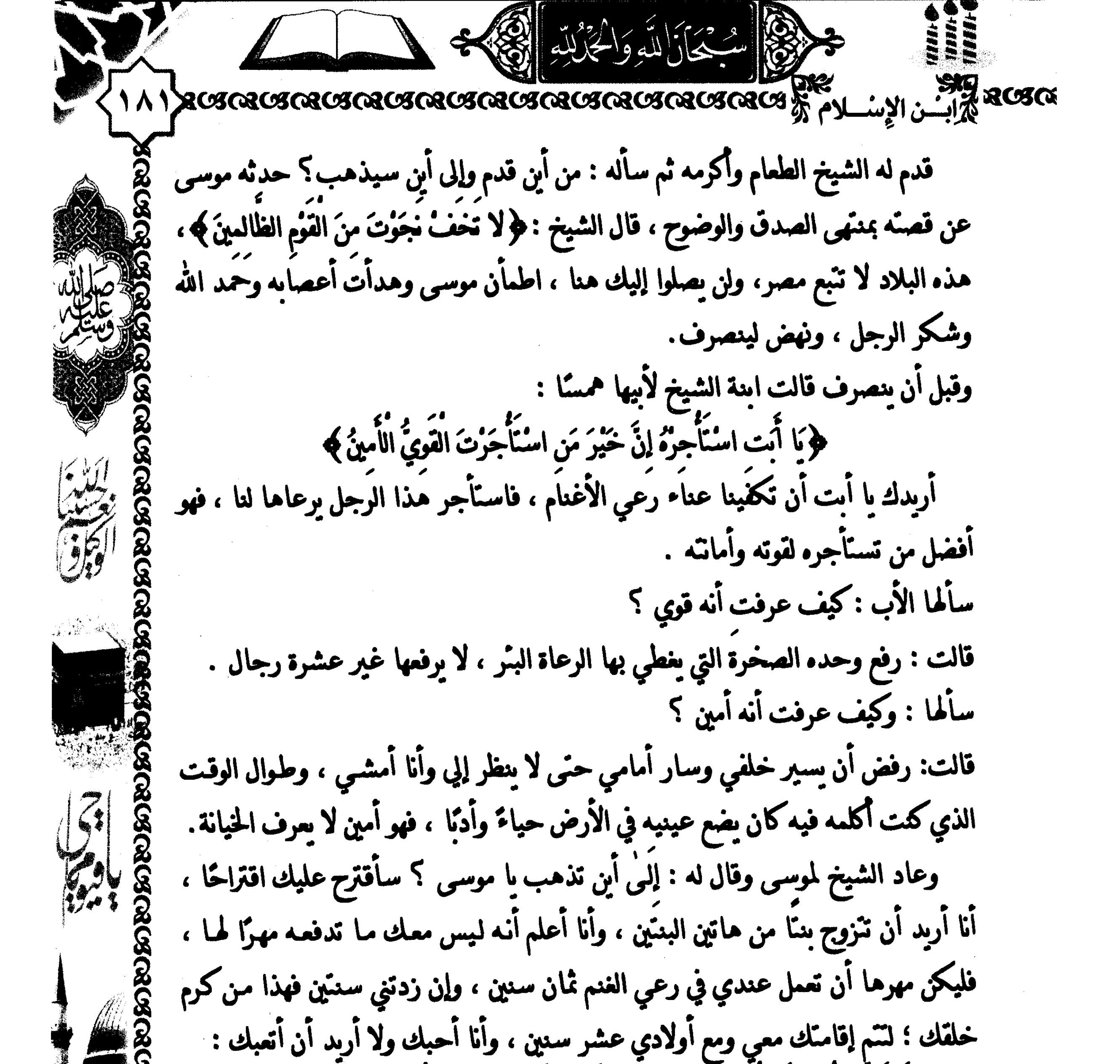
فقال الأب لابنته : اذهبي إليه وقولي له : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ ﴾ ليعطيك ﴿ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ ، وهكذا دأب الصالحين ، يكافئون من أسدى إليهم خدمة.

ذهبت إحدى الفتاتين إلىٰ موسى ، وسارت علىٰ استحياء وخجل ووقفت أمامه وأبلغته رسالة أبيها ، فنهض موسى وبصره في الأرض ، إنه لم يسق لهما الغنم ليأخذ من أحد أجرًا ؛ وإنما ساعدهما لوجه الله ، غير أنه أحس في داخله أن الله هو الذي يسوق الخير إليه فنهض :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾

وصلا إلىٰ الشيخ ، قال بعض المفسرين : إن هذا الشيخ هو النبي شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ ، عمر طويلا بعد موت قومه ، وقيل : إنه ابن أخي شعيب ، وقيل : ابن عمه ، وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب الذين آمنوا به ، لا نعرف أكثر من كونه شيخًا صالحًا .





قدم له الشيخ الطعام وأكرمه ثم سأله : من أين قدم وإلى أين سيذهب؟ حدثه موسى عن قصته بمنتهى الصدق والوضوح ، قال الشيخ : ﴿ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ ، هذه البلاد لا تتبع مصر، ولن يصلوا إليك هنا ، اطمأن موسى وهدأت أعصابه وحمد الله وشكر الرجل ، ونهض لينصرف.

وقبل أن ينصرف قالت ابنة الشيخ لأبيها همسًا :

﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾

أريدك يا أبت أن تكفينا عناء رعي الأغنام ، فاستأجر هذا الرجل يرعاها لنا ، فهو أفضل من تستأجره لقوته وأمانته .

سألها الأب : كيف عرفت أنه قوي ؟

قالت : رفع وحده الصخرة التي يغطي بها الرعاة البئر ، لا يرفعها غير عشرة رجال .

سألها : وكيف عرفت أنه أمين ؟

قالت: رفض أن يسير خلفي وسار أمامي حتى لا ينظر إلي وأنا أمشي ، وطوال الوقت الذي كنت أكلمه فيه كان يضع عينيه في الأرض حياءً وأدبًا ، فهو أمين لا يعرف الخيانة.

وعاد الشيخ لموسى وقال له : إلى أين تذهب يا موسى ؟ سأقترح عليك اقتراحًا ، أنا أريد أن تتزوج بنتًا من هاتين البنتين ، وأنا أعلم أنه ليس معك ما تدفعه مهرًا لها ، فليكن مهرها أن تعمل عندي في رعي الغنم ثمان سنين ، وإن زدتني سنتين فهذا من كرم خلقك ؛ لتتم إقامتك معي ومع أولادي عشر سنين ، وأنا أحبك ولا أريد أن أتعبك :

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

قال موسى عليه السلام : هذا اتفاق بيني وبينك، والله شاهد على اتفاقنا ، سواء قضيت الثماني سنوات ، أو العشر سنوات فأنا حرٌ بعدها في الذهاب .

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

الثابت أن موسى تزوج إحدى ابنتي الشيخ ، لا نعرف من كانت ، ولا ماذا كان اسمها، ولا ندري ما هي المدة التي قضاها في خدمة الشيخ مهرًا لابنته ، إلا أنه استنادًا إلىٰ طبيعة موسى وكرمه ونبوته وكونه من أولي العزم، نرى أنه قضى الأجل الأكبر، وهذا ما يؤكده حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهكذا عاش موسى يخدم الشيخ عشر سنوات كاملة مهرًا لزوجته .

رعاية الله وعنايته بموسى

وكان عمل موسى ينحصر في الخروج مع الفجر كل يوم لرعي الأغنام والسقاية لها .

ولنقف هنا وقفة تدبر ، إن الله سبحانه وتعالى بقدرته نقل خطى موسى عليه السلام خطوة بخطوة ، منذ أن كان رضيعًا في المهد حتى هذه اللحظة ، ألقي به في اليم ؛ ليلتقطه آل فرعون ، وألقى الله عليه محبة زوجة فرعون ؛ لينشأ في كنف عدوه ، ودخل المدينة علىٰ حين غفلة من أهلها ليقتل نفسًا ، وأرسل إليه بالرجل المؤمن من آل فرعون ؛ ليحذره وينصحه بالخروج من مصر ، وصاحبه حفظ الله في الطريق الصحراوي من مصر إلىٰ مدين وهو وحيد مطارد من غير زاد ولا استعداد ، وجمعه بالشيخ الكبير ليأجره هذه السنوات العشر ، ثم ليعود بعدها فيتلقى التكليف .

هذا خط طويل من الرعاية والتوجيه ، قبل النداء والتكليف ، تجربة الرعاية والحب والعناية الإلهية ، تجربة الخطأ ، وتجربة الندم والاستغفار ، والتوبة والقبول ، وتجربة الخوف والمطاردة ، وتجربة الغربة والوحدة والجوع ، وتجربة الخدمة ورعي الغنم بعد حياة القصور، وما يتخلل هذه التجارب الضخمة من تجارب صغيرة ، ومشاعر وخواطر، وإدراك ومعرفة ، إلىٰ جانب ما آتاه الله حين بلغ أشده من العلم والحكمة.

إن الرسالة تكليف ضخم شاق ، يحتاج صاحبه إلىٰ زاد ضخم من التجارب والإدراك والمعرفة، إلىٰ جانب وحي الله وتوجيهه ، ولهذا يربي الله أنبياءه ويصنعهم علىٰ



عينه ، ويواليهم بالتأديب والعناية والرعاية والكلاءة والحفظ ، ورسالة موسى تكليف عظيم، فهو مرسل إلىٰ فرعون الطاغية المتجبر، أعتى ملوك الأرض في زمانه، وأشدهم استعلاء في الأرض ، وهو مرسل لاستنقاذ قوم قد شربوا من كؤوس الذل حتى استمرأوا مذاقه ، فاستنقاذ قوم كهؤلاء عمل شاق عسير.

فتجربة السنوات العشر جاءت لتفصل بين حياة القصور التي نشأ فيها موسى عليه السلام وحياة الجهد الشاق في الدعوة وتكاليفها العسيرة ، فلحياة القصور جو وتقاليد خاصة ، أما الرسالة فهي معاناة لجماهير من الناس فيهم الغني والفقير ، المهذب والخشن، القوي والضعيف، وفيهم وفيهم ، وللرسالة تكاليفها من المشقة ومن التجرد أحيانًا، وقلوب أهل القصور في الغالب لا تصبر طويلا علىٰ الخشونة والحرمان والمشقة.

فكانت هذه السنون العشر تجربة هامة ، ومعاناة مطلوبة في تحمل المشقة والتخلص من رعونات النفس ، ومواجهة تصرفات البشر ؛ لتأهيل موسى لحمل الأمانة ، وكانت فرصة أيضًا للخلوة والتأمل والنظر في الملك والملكوت أثناء رعي الأغنام ، وأيضًا في الليالي الطوال، إنها سنين عشر قضاها هناك موسى وحده بعيدًا عن فرعون وملئه ، عن داره ووطنه وأهله . . كتبها الله عليه ؛ لإعداده لتحمل المهمة الشاقة . . وهكذا يكون إعداد الرجال .

فلما استكملت نفس موسى عليه السلام تجاربها ، وأكملت مرانها ، بهذه التجربة الأخيرة في دار الغربة ، قاد الله خطاه مرة أخرى إلىٰ مهبط رأسه ، ومقر أهله وقومه ، ومجال دراسته وعمله ، وهكذا نرى كيف صُنِعَ موسى علىٰ عين الله ، وكيف تم إعداده لتلقي التكليف .

ترى أي خاطر راود موسى عليه السلام ، فعاد به إلىٰ مصر ، بعد انقضاء الأجل ، وقد خرج منها خائفًا يترقب ؟ ! كيف نسي الخطر الذي ينتظره بها ، وقد قتل فيها نفسًا ؟ وهناك فرعون الذي كان يتآمر مع الملأ من قومه ليقتلوه ؟ لماذا تغافل موسى عليه السلام عن كل ذلك وأصرَّ علىٰ العودة إلىٰ مصر ؟ !

إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي ينقل خطاه كلها بقدرته ، فقاده هذه المرة بالميل الفطري إِلَىٰ الأهل والعشيرة والوطن ، وأنساه الخطر الذي خرج هاربًا منه وحيدًا طريدًا ؛ ليؤدي المهمة التي خلق لها .

استأذن موسى الشيخ في الرحيل بأهله إِلَىٰ عشيرته ، وأذن له الشيخ فانطلق مسرعًا .

من فوائد القصة

١- لا تسلم الدعوة من أعداء يخططون لسحقها وإبادتها ، ولكن الله غالبٌ علىٰ أمره .

٢- لابد لكل مسافر من زاد ، ومن علم بطريق السفر ووجهته ، وإلا احتوشته الآفات ، وأهلكه العطب والتعب .

٣- لا يجوز للمرأة أن تخالط الرجال بحال ، بل يكون قرارها في بيتها ؛ هو حجابها الأكبر، ولا يجوز لها الخروج إِلَىٰ العمل إلا إذا احتاجت إِلَىٰ العمل واضطرت إليه .

٤- تعاهد الأب لأبنائه بالتربية الدائمة في كل موقف .

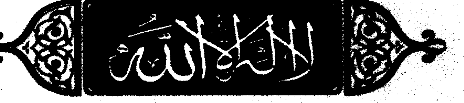
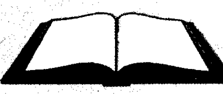
٥- من معاني الرجولة نجدة الضعيف ومساعدة المحتاج ونصرة المظلوم ، فهذه من أكرم أخلاق الرجال .

٦- من هدي الصالحين مكافأة من أسدى إليهم معروفًا ، أو تقدم إليهم بخدمة .

٧- في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق وتفريج الكربات وحصول مودة الناس .

٨- زينة المرأة وإيمانها في حيائها ، والحياء خلق الإسلام الذي افتقدناه كثيرًا في هذه الأيام .

٩- من إكرام الضيف إيناسه وإزالة وحشة الغربة عنه ، وتبشير المسلم بالخير الذي يعلمه له .

موسى كليم الله

خرج موسى مع أهله وسار ، اختفى القمر وراء أسراب من السحاب الكثيف وساد الظلام ، اشتد البرق والرعد وأمطرت السماء وزادت حدة البرد والظلام ، وتاه موسى أثناء سيره ، ووقف موسى حائرًا يرتعش من البرد وسط أهله ، ثم رفع رأسه فشاهدها عن بعد ، شاهد نارًا عظيمة تشتعل عن بعد ، امتلأ قلبه بالفرح فجأة ، قال لأهله : إني رأيت نارًا هناك ، فانتظروني هنا حتى أرجع إليكم .

أمرهم أن يجلسوا مكانهم حتى يذهب إلى النار لعله يأتيهم منها بخبر، أو يجد أحدًا يسأله عن الطريق فيهتدي إليه ، أو يحضر إليهم بعض أخشابها المشتعلة لتدفئتهم.

وتحرك موسى نحو النار ، سار موسى مسرعًا ليدفئ نفسه ، يده اليمنى تمسك عصاه، جسده مبلل من المطر ، ظل يسير حتى وصل إلى واد يسمى طوى ، لاحظ شيئًا غريبًا في هذا الوادي ، لم يكن هناك برد ولا رياح ، ثمة صمت عظيم ساكن ، واقترب موسى من النار ، لم يكد يقترب منها حتى نودي :

﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

توقف موسى فجأة ، وارتعش ، كان الصوت عظيمًا رهيبًا مجلجلا ، له رهبة وخشوع ، ووقع الصوت في قلب موسى مباشرة ، تلفت موسى في كل اتجاه ، ولما لم ير شيئًا نظر موسى في النار وعاد يرتعش ، وجد شجرة خضراء داخل هذا النور وكلما زاد تأجج النار زادت خضرة الشجرة ، المفروض أن تتحول الشجرة إلى اللون الأسود وهي تحترق ، لكن النار تزيد واللون الأخضر يزيد ، راح موسى يرتجف رغم الدفء ، كانت الشجرة في جبل غربي عن يمينه، وكان الوادي الذي يقف فيه هو وادي طوى.

ثم ارتجت الأرض بالخشوع والرهبة والله عز وجل ينادي: ﴿يَا مُوسَى﴾ .

رفع موسى رأسه وقال : نعم .

قال الله عز وجل : ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ .



ازداد ارتعاش موسى وقال : نعم يا رب .

قال الله عز وجل : ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ .

انحنى موسى راكعًا وجسده كله ينتفض وخلع نعليه .

عاد الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ .

عصا موسى أول معجزاته

زاد انتفاض جسد موسى وهو يتلقى الوحي الإلهي ويستمع إِلَىٰ ربه وهو يخاطبه ، قال الرحمن الرحيم : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ ؟ !

ازدادت دهشة موسى، إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يخاطبه، والله يعرف أكثر منه أنه يمسك عصاه، لماذا يسأله الله إذن إذا كان يعرف أكثر منه ؟ ! لا شك أن هناك حكمة عليا لذلك.

أجاب بتلقائية ودون تفكير وصوته يرتعش :

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾

انظر إِلَىٰ ائتناس موسى عليه السلام بربه سبحانه وتعالى ، إن الله عز وجل قد سأله : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ ، فكان من الطبيعي أن يرد : هِيَ عَصَايَ ، ولكنه أطال الحوار ائتناسًا ، إنه شعر أنه يكلم الله سبحانه ، فهو لا يريد أن ينهي الحوار ، فهو قد أحب أن يسمع وأن يتكلم أيضًا مع الله سبحانه وتعالى .

قال الله عز وجل :

﴿ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴾

رمى موسى العصا من يده بسرعة وخوف وقد زادت دهشته ، وفوجئ بأن العصا تتحول فجأة إِلَىٰ ثعبان عظيم الحجم هائل الجسم ، وراح الثعبان يتحرك بسرعة ، ولم يستطع موسى أن يقاوم خوفه ، أحس أن بدنه يتزلزل من الخوف ، فاستدار موسى فزعًا وانطلق يجري بسرعة ولم يلتفت خلفه ، لم يكد يجري خطوات حتى ناداه الله :





﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾

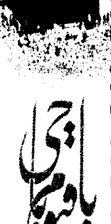
﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾

عاد موسى يستدير ويقف ، لم تزل العصا تتحرك ، لم تزل الحية تتحرك .

قال الله سبحانه وتعالى لموسى :

﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾

مد موسى يده للحية وهو يرتعش ، لم يكد يلمسها حتى تحولت في يده إلىٰ عصا . .



معجزة اليد :

ثم عادت المناجاة ، ربنا العظيم يكلم موسى قائلا له :

﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾

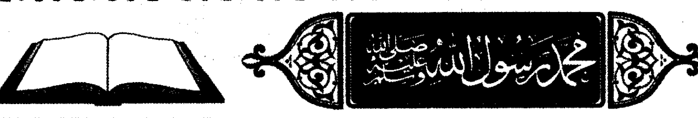
وضع موسى يده في جيبه وأخرجها فإذا هي تتلألأ كالقمر ، زاد انفعال موسى بما يحدث، وضع يده علىٰ قلبه كما أمره الله فذهب خوفه تمامًا .

اطمأن موسى وسكن . . وعرف أن وراء ذلك أمرًا عظيمًا ينبغي أن يستسلم له، وهو نُعدّ له ، فاطمأنت نفسه .



تكليف الله له بدعوة فرعون

وأمره الله سبحانه وتعالى بعد هاتين المعجزتين - معجزة العصا ومعجزة اليد- أن يذهب إلىٰ فرعون ؛ ليدعوه إلىٰ الله برفق ولين ، ويأمره أن يتركه يخرج مع بني إسرائيل من مصر ؛ ليدخلوا الأرض المقدسة فرارًا من أذى فرعون واضطهاده ، وأبدى موسى خوفه من فرعون ، ووضح لربه كل ما في نفسه ، قال : إنه قتل منهم نفسًا ويخاف أن يقتلوه ، توسل إلىٰ الله أن يرسل معه أخاه هارون ؛ ليساعده ويتكلم معه ، ويتقوّى به ، طمأن الله موسى أنه سبحانه سيكون معهما يسمع كل شيء ويرى كل شيء ، وهو قادر على كل شيء ، وطمأنه سبحانه وتعالى أن فرعون رغم قسوته وتجبره لن يمسّهما بسوء ، أفهم الله موسى



أنه هو الغالب ، ودعا موسى وابتهل إلىٰ الله أن يشرح له صدره وييسر أمره ويمنحه القدرة علىٰ الدعوة إليه .

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ .

﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾

اختار الله سبحانه وتعالى موسى لرسالته واصطنعه لنفسه ، وتلك قمة من قمم التشريف لا نعرف أحدًا بلغها في ذلك الزمان البعيد غير موسى عليه السلام ، قفل موسى راجعًا لأهله بعد اصطفاء الله واختياره رسولا إلىٰ فرعون ، انحدر موسى بأهله قاصدًا مصر .

الله وحده يعلم أيّ أفكار عبرت ذهن موسى وهو يحث خطاه قاصدًا مصر ، انتهى زمان التأمل ، وانطوت أيام الراحة ، وجاءت الأوقات الصعبة أخيرًا ، وها هو ذا موسى يحمل أمانة الحق ويمضي ؛ ليواجه بها بطش أخطر جبابرة عصره وأعتاهم ، يعلم موسى أن فرعون مصر طاغية ، يعلم أنه لن يُسلمه بني إسرائيل بغير صراع ، يعلم أنه سيقف من دعوته موقف الإنكار والكبرياء والتجاهل ، لقد أمره الله تعالى أن يذهب إلىٰ فرعون ، أن يدعوه بلين ورفق إلىٰ الله ، وأوحى الله سبحانه وتعالى لموسى أن فرعون لن يؤمن ، ليدعه موسى وشأنه ، وليركز علىٰ إطلاق سراح بني إسرائيل والكف عن تعذيبهم ، قال سبحانه وتعالى لموسى وهارون:

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾



هذه هي المهمة المحددة ، وهي مهمة سوف تصطدم بآلاف العقبات ، إن فرعون يعذب بني إسرائيل ويستعبدهم ويكلفهم من الأعمال ما لا طاقة لهم به ، ويستحيي نساءهم، ويذبح أبناءهم، ويتصرف فيهم كما لو كانوا ملكًا خاصًا ورثه مع ملك مصر .

ووصل موسى إلىٰ مصر ، ودخل إلىٰ فرعون مباشرة هو وأخوه هارون ، بعد أن أرسل الله هارون مع موسى ، وحصلت المواجهة . . .

﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

لقاء موسى وفرعون

وواجه موسى فرعون بلين ورفق كما أمره الله .

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [سورة النازعات : ١٨-١٩]

حدثه موسى النبي عليه السلام عن الله عز وجل ، عن رحمته وجنته ، عن وجوب توحيده وعبادته، حاول إيقاظ جوانبه الإنسانية في الحديث ، ألمح إليه أنه يملك مصر ، ويستطيع لو أراد أن يملك الجنة ، وما عليه لذلك إلا أن يتقي الله ، استمع فرعون إلىٰ حديث موسى ضجرًا شبه هازئ وقد تصوره مجنونًا تجرأ علىٰ مقامه السامي ، ثم سأل فرعون موسى : ماذا يريد ؟ ! فأجاب موسى عليه السلام : إنه يريد أن يرسل معه بني إسرائيل .

ويعجب فرعون وهو يرى موسى يواجهه بهذه الدعوى العظيمة ، ويطلب إليه ذلك الطلب الكبير ، فآخر عهد فرعون بموسى أنهم ربوه في قصره بعد أن التقطوا تابوته ، وأنه هرب بعد قتله للقبطي الذي وجده يتعارك مع العبري ، فما أبعد المسافة بين آخر عهد فرعون بموسى إذن وهذه الدعوى العظيمة التي يواجهه بها بعد عشر سنين! ومن ثَمَّ بدأ فرعون يذكره بماضيه ، يذكره بتربيته له فهل هذا جزاء التربية والكرامة التي لقيها عندنا وأنت وليد ؟ ! لتأتي الآن لتخالف ديانتنا، وتخرج علىٰ الملك الذي تربيت في قصره، وتدعو إلىٰ إله غيره؟ !

﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾



ويذكره بحادث مقتل القبطي في تهويل وتجسيم ، فلا يتحدث عنها بصريح العبارة وإنما يقول ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ فعلتك البشعة الشنيعة ﴿ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ برب العالمين الذي تقول به اليوم ، فأنت لم تكن وقتها تتحدث عن رب العالمين ! لم تتحدث بشيء عن هذه الدعوى التي تدعيها اليوم ؛ ولم تخطرنا بمقدمات هذا الأمر العظيم ؟ !

وظن فرعون أنه رد على موسى ردًّا لن يملك معه جوابًا ، إلا أن الله استجاب لدعاء موسى من قبل ، فانطلق لسانه : ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ فعلت تلك الفعلة وأنا بعدُ جاهل ، أندفع اندفاع العصبية لقومي ، لا اندفاع العقيدة التي عرفتها اليوم بما أعطاني ربي من الحكمة ، ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ﴾ على نفسي ، فقسم الله لي الخير فوهب لي الحكمة ﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

ويكمل موسى خطابه لفرعون بنفس القوة : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ فما كانت تربيتي في بيتك وليدًا إلا من جراء استعبادك لبني إسرائيل ، وقتل أبنائهم ، مما دفع أمي لوضعي في التابوت وإلقائه في اليم ، فتلتقطه فأتربى في بيتك ، لا في بيت أبويّ ، فهل هذا هو ما تمنه عليّ ، وهل هذا هو فضلك العظيم ؟ !

مناظرة بين الإسلام والكفر

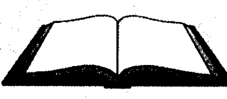
عند هذا الحد تدخل فرعون في الحديث : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

قال موسى : ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ .

التفت فرعون لمن حوله وقال هازئًا : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ ، وكأنه يسخر منه ويقول : هل سمعتم بأعجب من هذا ؟ ! اسمعوا .. اسمعوا ..

قال موسى متجاوزًا سخرية فرعون : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

قال فرعون مخاطبًا من جاءوا مع موسى من بني إسرائيل : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ ، كأنه يقول : لا .. لا ، إنك مجنون فعلا ! !








عاد موسى يتجاوز اتهام فرعون وسخريته ويكمل :

﴿ رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

وكأنها كانت حوارات كثيرة بين فرعون وموسى . . قال فرعون :

﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾

نلاحظ أن فرعون لم يكن يسأل موسى عن رب العالمين أو رب موسى وهارون بقصد السؤال البريء والمعرفة الحقة ؛ إنما كان يهزأ ، ولقد أجابه موسى إجابة جامعة مانعة محكمة :

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾

هو الخالق ، خالق الأجناس جميعًا والذوات جميعًا ، وهو هاديها بما ركب في فطرتها وجبلتها من خواص تهديها لأسباب عيشها ، وهو الموجه لها على أي حال ، وهو القابض على ناصيتها في كل حال ، وهو العليم بها والشاهد عليها في جميع الأحوال .

انزلقت العبارة على ذهن فرعون السميك مثلما تنزلق قطرة من الزئبق على سطح من الزجاج ، لم تترك أثرًا أو علامة ، وها هو ذا فرعون يسأل :

﴿ فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى ﴾

لم يزل فرعون ماضيًا في استكباره واستهزائه ، ويرد موسى ردًا يستلفته إلى أن القرون الأولى التي لم تعبد الله ، والتي عبدته هو ، لن تترك بغير مساءلة وجزاء ، كل شيء معلوم عند الله تعالى ، هذه القرون الأولى ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ﴾ ، أحصى الله ما عملوه في كتاب ، ﴿ لا يَضِلُّ رَبِّي ﴾ ، أي لا يغيب عنه شيء ، ﴿ وَلا يَنسَى ﴾ ، أي لا يغيب عن شيء ، ليطمئن فرعون بالا من ناحية القرون الأولى والأخيرة وما بينهما ، إن الله يعرف كل شيء ويسجل عليها ما عملته ولا يضيع شيئًا من أجورهم.

عاد موسى يكمل حديثه عن ربه :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾

لفت موسى نظر فرعون إِلَىٰ آيات الله في الكون ، ودار به مع حركة الرياح والمطر والنبات وأوصله مرة ثانية إِلَىٰ الأرض ، وهناك أفهمه أن الله خلق الإنسان من الأرض ، وسيعيده إليها بالموت ، ويخرجه منها بالبعث ، إن هناك بعثًا إذًا ، وسيقف كل إنسان يوم القيامة أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، لا استثناء لأحد ، سيقف كل عباد الله وخلقه أمامه يوم القيامة، بما في ذلك فرعون ؛ ليسألهم عما قدموه ، ويحاسبهم عما عملوه ، بهذا جاء موسى مبشرًا ومنذرًا ، وأخبره أن فيما ذكره آيات لأصحاب العقول الراجحة الناصحة .

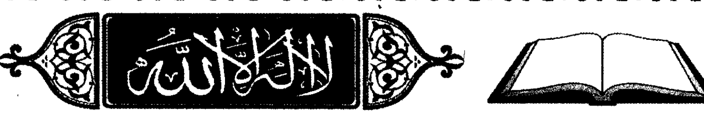
لم يُعجب فرعون هذا النذير، وتصاعد الحوار بينه وبين موسى ، فالطغيان لا يخشى شيئًا كخشيته يقظة الشعوب ، وصحوة القلوب ؛ ولا يكره أحدًا كما يكره الداعين إِلَىٰ الوعي واليقظة ؛ ولا ينقم علىٰ أحد كما ينقم علىٰ من يهزُّون الضمائر الغافية ، لذلك هاج فرعون علىٰ موسى وثار، وأنهى الحوار معه بالتهديد الصريح ، وهذا هو سلاح الظالمين عندما يفتقرون للحجج والبراهين والمنطق :

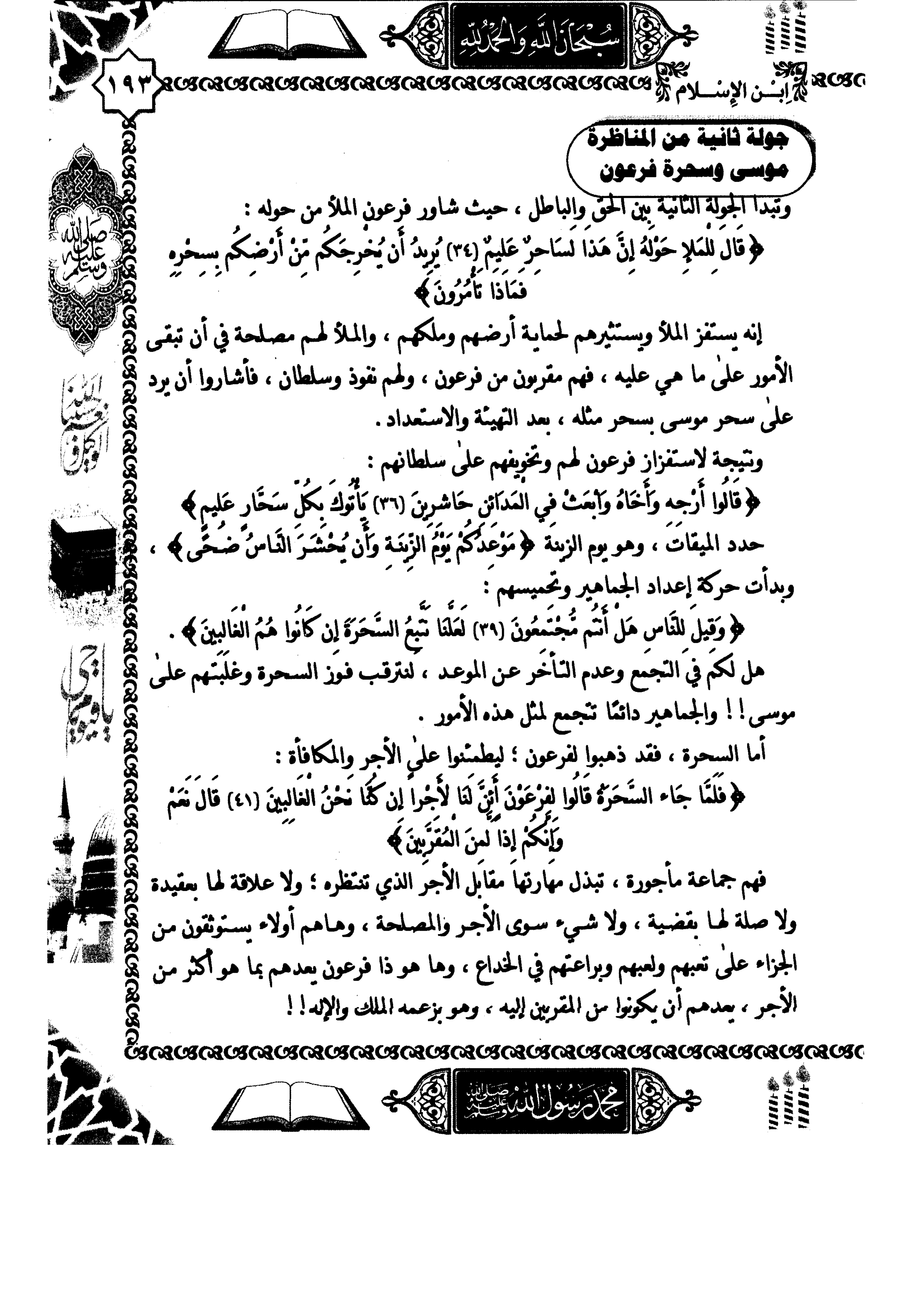
﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾

إلا أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يفقد رباطة جأشه ، كيف يفقدها وهو رسول الله ، والله معه ومع أخيه ؟! وبدأ الإقناع بأسلوب جديد ، وهو إظهار المعجزة : ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ فهو يتحدى فرعون ، ويحرجه أمام ملئه ، إنه يملك دليلا واضحًا علىٰ صدقه ، فلو رفض فرعون الإصغاء ، سيظهر واضحًا أنه خائف من حجة موسى :

﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

ألقى موسى عصاه في ردهة القصر العظيمة ، لم تكد العصا تلمس الأرض حتى تحولت إِلَىٰ ثعبان هائل يتحرك بسرعة ، ثم أدخل يده في جيبه وأخرجها فإذا هي بيضاء كالقمر ، وهنا .. قفز فرعون ضاحكًا قائلا : هذا سحر .. وهذه سهلة ، عندنا سحرة كثيرون أمهر منك في السحر ، نستطيع أن نغلبك فيه ! !





جولة ثانية من المناظرة موسى وسحرة فرعون

وتبدأ الجولة الثانية بين الحق والباطل ، حيث شاور فرعون الملأ من حوله :

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾

إنه يستفز الملأ ويستثيرهم لحماية أرضهم وملكهم ، والملأ لهم مصلحة في أن تبقى الأمور علىٰ ما هي عليه ، فهم مقربون من فرعون ، ولهم نفوذ وسلطان ، فأشاروا أن يرد علىٰ سحر موسى بسحر مثله ، بعد التهيئة والاستعداد .

ونتيجة لاستفزاز فرعون لهم وتخويفهم علىٰ سلطانهم :

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾

حدد الميقات ، وهو يوم الزينة ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ ، وبدأت حركة إعداد الجماهير وتحميسهم :

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ .

هل لكم في التجمع وعدم التأخر عن الموعد ، لنترقب فوز السحرة وغلبتهم علىٰ موسى ! ! والجماهير دائمًا تتجمع لمثل هذه الأمور .

أما السحرة ، فقد ذهبوا لفرعون ؛ ليطمئنوا علىٰ الأجر والمكافأة :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾

فهم جماعة مأجورة ، تبذل مهارتها مقابل الأجر الذي تنتظره ؛ ولا علاقة لها بعقيدة ولا صلة لها بقضية ، ولا شيء سوى الأجر والمصلحة ، وهاهم أولاء يستوثقون من الجزاء علىٰ تعبهم ولعبهم وبراعتهم في الخداع ، وها هو ذا فرعون يعدهم بما هو أكثر من الأجر ، يعدهم أن يكونوا من المقربين إليه ، وهو بزعمه الملك والإله ! !

وفي ساحة المواجهة ، والناس مجتمعون ، وفرعون ينظر ، حضر موسى وأخاه هارون عليهما السلام ، وحضر السحرة وفي أيديهم كل ما أتقنوه من ألعاب وحيل ، وكلهم ثقة بفوزهم في هذا التحدي ؛ لذا بدأوا بتخيير موسى : ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ وتتجلى ثقة موسى عليه السلام واستهانته بالتحدي ﴿ بَلْ أَلْقُوا ﴾ فرمى السحرة عصيهم وحبالهم وأقسموا بعزة فرعون :

﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾

رمى السحرة بعصيهم وحبالهم فإذا المكان يمتلئ بالثعابين فجأة .

﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾

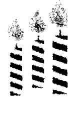
وحسبنا أن نعلم أنه سحر عظيم ؛ لندرك أي سحر كان ، وحسبنا أن نعلم أنهم ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ وأثاروا الرهبة في قلوبهم ﴿ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ لنتصور أي سحر كان ، فنظر موسى عليه السلام إلى حبال السحرة وعصيهم وشعر بالخوف.

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴾

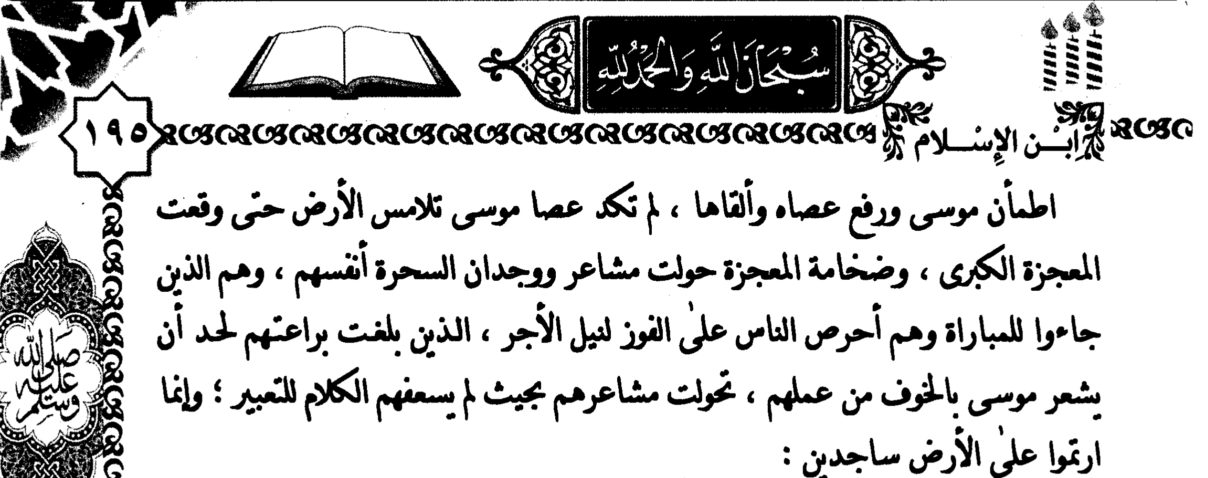
في هذه اللحظة ، يذكره ربه بأن معه القوة الكبرى :

﴿ لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾

لا تخف إنك أنت الأعلى ، فمعك الحق ومعهم الباطل ، معك العقيدة ومعهم الخرافة ، معك الإيمان بصدق الذي دفعك لما أنت فيه ومعهم الأجر على المباراة ومغانم الحياة ، أنت رسول الله تدعو إليه ، وهم يخدمون مخلوقًا بشريًا فانيًا مهما يكن طاغية جبارًا ، لا تخف ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾ وستهزمهم ، فهو سحر من تدبير ساحر وعمله ، والساحر لا يفلح أنى ذهب وفي أي طريق سار ؛ لأنه يعتمد على الخيال والإيهام والخداع ، ولا يعتمد على حقيقة ثابتة باقية .












اطمأن موسى ورفع عصاه وألقاها ، لم تكد عصا موسى تلامس الأرض حتى وقعت المعجزة الكبرى ، وضخامة المعجزة حولت مشاعر ووجدان السحرة أنفسهم ، وهم الذين جاءوا للمباراة وهم أحرص الناس على الفوز لنيل الأجر ، الذين بلغت براعتهم لحد أن يشعر موسى بالخوف من عملهم ، تحولت مشاعرهم بحيث لم يسعفهم الكلام للتعبير ؛ وإنما ارتموا على الأرض ساجدين :

﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾

إنها صولة الحق في الضمائر ، ونور الحق في المشاعر، ولمسة الحق للقلوب المهيأة لتلقي الحق والنور واليقين ، إن السحرة هم أعلم الناس بحقيقة فنهم ، ومدى ما يمكن أن يبلغ إليه، وهم أعرف الناس بالذي جاء به موسى ، وعلموا يقينًا أن ما رأوه ليس بسحر ، فهم أعلم إن كان هذا من عمل بشر أو ساحر ، أو أنه من القدرة التي تفوق قدرة البشر والسحر ، والعالم في فنه هو أكثر الناس استعدادًا للتسليم بالحقيقة حين تتكشف له ؛ لأنه أقرب إدراكًا لهذه الحقيقة، ممن لا يعرفون في هذا الفن إلا القشور ، ومن هنا تحول السحرة من التحدي السافر إلى التسليم المطلق، الذي يجدون برهانه في أنفسهم عن يقين .

هزت هذه المفاجأة العرش من تحت فرعون ، مفاجأة استسلام السحرة -وهم من كهنة المعابد- لرب العالمين ، رب موسى وهارون ، بعد أن تم جمعهم من جميع المدن ، فهم الصفوة المختارة ، جاءوا لإبطال دعوة موسى وهارون لرب العالمين! انظر إلى كبر فرعون وطغيانه ، وتأمل تأثير مفاجأة إسلام السحرة لله رب العالمين :



تهديد فرعون للسحرة

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

تساءل فرعون مستغربًا : ﴿ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ كأنما كان عليهم أن يستأذنوه في أن يعودوا للحق ، لكنه طاغية متكبر متجبر أعمى السلطان عينيه عن الحق .



ويزيد في طغيانه فيقول :

﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾

إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك ، ويظل الطاغية يهدد ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ويتوعد :

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

لكن النفس البشرية حين تستيقن حقيقة الإيمان ، تستعلي على قوة الأرض ، وتستهين ببأس الطغاة ، وتنتصر فيها العقيدة على الحياة ، وتختار الخلود الدائم على الحياة الفانية :

﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾

إنه الإيمان الذي لا يتزعزع ولا يخضع ، بل إن الإيمان الذي خالط القلوب بشاشته يجعل النفوس أكثر استعدادًا للموت ، بل ويجعله أحب إليها ، كأنهم يقولون له : على أي الأحوال إننا راجعون إلى الله ، سواء قتلتنا الآن ، أو تركتنا نموت بعد قليل أو كثير .

ويعلن السحرة المؤمنون حقيقة المعركة :

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ﴾

فلا يطلبون الصفح والعفو من عدوهم ؛ إنما يطلبون الثبات والصبر من ربهم :

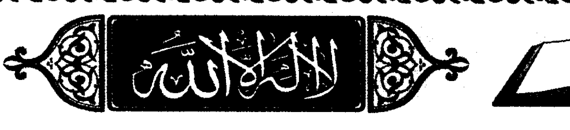
﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾

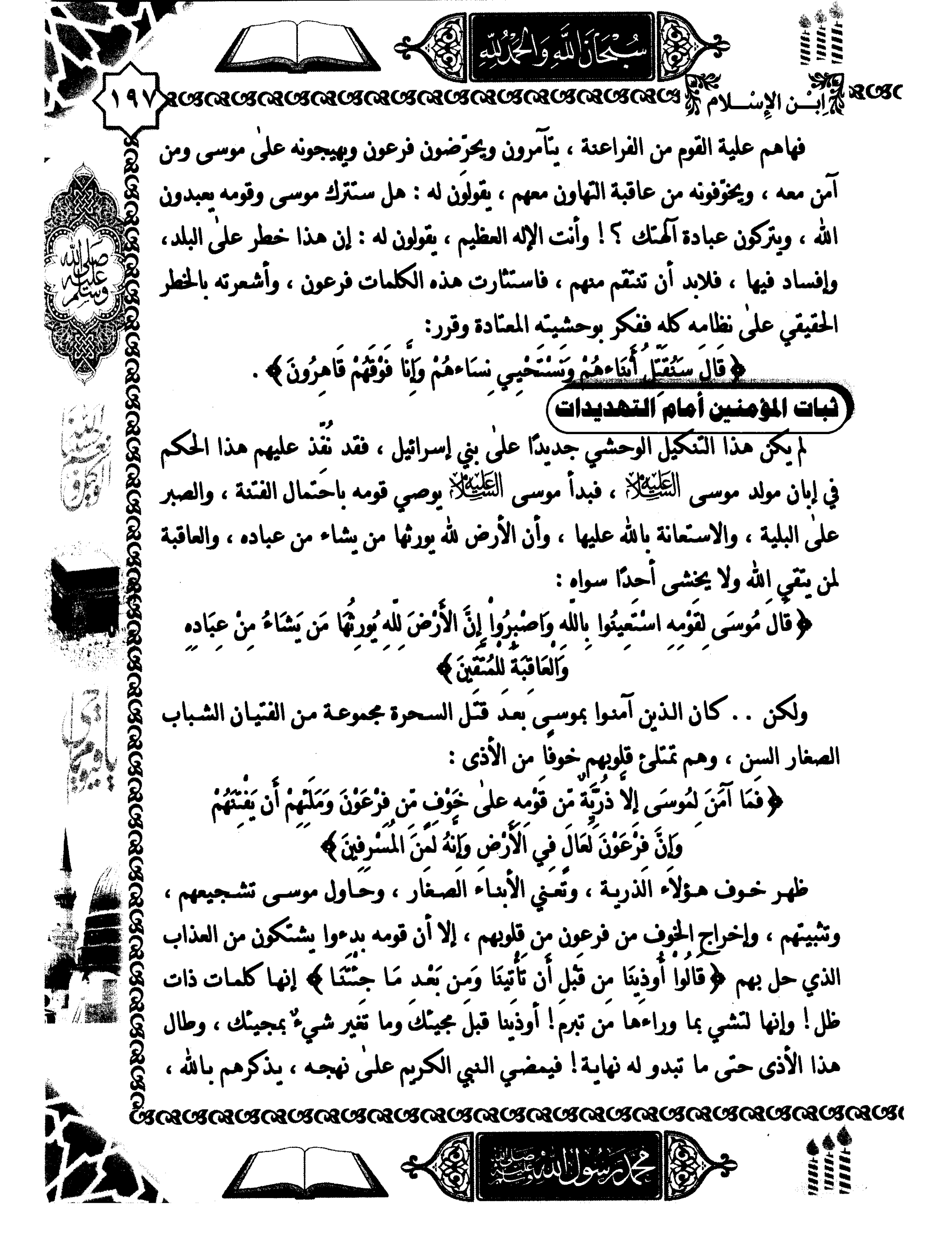
فيقف الطغيان عاجزًا أمام هذا الوعي وهذا الاطمئنان ، عاجزًا عن رد هؤلاء المؤمنين لطريق الباطل من جديد ، فينفذ تهديده، ويصلبهم على جذوع النخل .

مؤامرة جديدة

وتبدأ جولة جديدة بين الحق والباطل،فيروي لنا الله سبحانه وتعالى تآمر الملأ على موسى وقومه :

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾





فهاهم علية القوم من الفراعنة ، يتآمرون ويحرّضون فرعون ويهيجونه على موسى ومن آمن معه ، ويخوّفونه من عاقبة التهاون معهم ، يقولون له : هل ستترك موسى وقومه يعبدون الله ، ويتركون عبادة آلهتك ؟! وأنت الإله العظيم ، يقولون له : إن هذا خطر على البلد، وإفساد فيها ، فلابد أن تنتقم منهم ، فاستثارت هذه الكلمات فرعون ، وأشعرته بالخطر الحقيقي على نظامه كله ففكر بوحشيته المعتادة وقرر:

﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ .

ثبات المؤمنين أمام التهديدات

لم يكن هذا التنكيل الوحشي جديدًا على بني إسرائيل ، فقد نُفّذ عليهم هذا الحكم في إبان مولد موسى عليه السلام ، فبدأ موسى عليه السلام يوصي قومه باحتمال الفتنة ، والصبر على البلية ، والاستعانة بالله عليها ، وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة لمن يتقي الله ولا يخشى أحدًا سواه :

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

ولكن . . كان الذين آمنوا بموسى بعد قتل السحرة مجموعة من الفتيان الشباب الصغار السن ، وهم تمتلئ قلوبهم خوفًا من الأذى :

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾

ظهر خوف هؤلاء الذرية ، وتعني الأبناء الصغار ، وحاول موسى تشجيعهم ، وتثبيتهم ، وإخراج الخوف من فرعون من قلوبهم ، إلا أن قومه بدءوا يشكون من العذاب الذي حل بهم ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ إنها كلمات ذات ظل! وإنها لتشي بما وراءها من تبرم! أوذينا قبل مجيئك وما تغير شيءٌ بمجيئك ، وطال هذا الأذى حتى ما تبدو له نهاية! فيمضي النبي الكريم على نهجه ، يذكرهم بالله ،

ويعلق رجاءهم به ، ويلوح لهم بالأمل في هلاك عدوهم ، واستخلافهم في الأرض ، مع التحذير من فتنة الاستخلاف ، فاستخلاف الله لهم إنما هو ابتلاء لهم ، فهو استخلاف للامتحان :

﴿ قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

مؤتمر فرعوني لقتل موسى

وينقلنا القرآن الكريم إلى فصل آخر من قصة موسى عليه السلام ، ومشهد آخر من مشاهد المواجهة بين الحق والباطل ، حيث يحكي لنا قصة تشاور فرعون مع الملأ في قتل موسى ، فيقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾

انظر إلى هذا التهرج والإسفاف ! ! إن فرعون أكبر المفسدين في الأرض يقول : أخشى أن يظهر موسى في الأرض الفساد ، إنه الكذب دون مواربة ، إنه يزعم أن موسى يفسد في الأرض بتوجيه الناس إلى التوحيد ! ! ويستثير الملأ بقوله : ﴿ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ ، نسب الدين إليهم ؛ ليستفزهم لحمايته ، ويسمحون له بقتل موسى .

أما موسى عليه السلام فالتجأ إلى الركن الركين ، والحصن الحصين ، ولاذ بحامي اللائذين، ومجير المستجيرين :

﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ .

كادت فكرة فرعون أن تحصل على التصديق لولا رجل من آل فرعون ، لا يذكر القرآن اسمه ؛ لأن اسمه لا يهم ، لم يذكر صفته أيضًا ؛ لأن صفته لا تعني شيئًا ، إنما ذكر القرآن أنه رجل مؤمن ، ذكره بالصفة التي لا قيمة لأي صفة بعدها .



تحدث هذا الرجل المؤمن ، وكان ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ ، تحدث في الاجتماع الذي طرحت فيه فكرة قتل موسى وأثبت عقم الفكرة وسطحيتها ، قال : إن موسى لم يقل أكثر من أن الله ربه، وجاء بعد ذلك بالأدلة الواضحة على كونه رسولا، وهناك احتمالان لا ثالث لهما: أن يكون موسى كاذبًا، أو يكون صادقًا، فإذا كان كاذبًا ﴿فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾، وهو لم يقل ولم يفعل ما يستوجب قتله ، وإذا كان صادقًا وقتلناه ، فما هو الضمان لنجاتنا من العذاب الذي يعدنا به ؟

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾

تحدث المؤمن الذي يكتم إيمانه فقال لقومه : إننا اليوم في مراكز الحكم والقوة ، من ينصرنا من بأس الله إذا جاء ؟! ومن ينقذنا من عقوبته إذا حلت ؟! إن إسرافنا وكذبنا قد يضيعاننا :

﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾

وبدت كلماته مقنعة ، إنه رجل ليس متهمًا في ولائه لفرعون ، وهو ليس من أتباع موسى ، والمفروض أنه يتكلم بدافع الحرص على عرش فرعون ، ولا شيء يسقط العروش كالكذب والإسراف وقتل الأبرياء .

ومن هذا الموضع استمدت كلمات الرجل المؤمن قوتها ، بالنسبة إلى فرعون ووزرائه ورجاله ، ورغم أن فرعون وجد فكرته في قتل موسى ، صريعة على المائدة ، رغم تخويف الرجل المؤمن لفرعون ، رغم ذلك كله :

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾

قال فرعون بجرأة وصلف وكبر: هذا رأينا الخاص ، وهو رأي يهديكم سبيل الرشاد ، وكل رأي غيره خاطئ ، وينبغي الوقوف ضده واستئصاله ، وأنا أحذركم من مخالفة رأيي الصائب .



لم تتوقف المناقشة عند هذا الحد ، قال فرعون كلمته ولكنه لم يقنع بها الرجل المؤمن . .

وعاد الرجل المؤمن يتحدث :

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾

إنني معجب جداً بوصف الله تعالى لهذا الرجل بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ ، إن الوصف بالرجولة يثير الإعجاب،فإذا أضيف إليها الإيمان فذلك غاية الكمال البشري.

وهاهو ذا الرجل المؤمن يغوص في حديثه الأخير في أعماق التاريخ وهو يقدم لفرعون وقومه أدلة كافية على صدق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وهو يحذرهم من المساس به ، لقد سبقتهم أمم كفرت برسلها، فأهلكها الله : قوم نوح ، قوم عاد ، قوم ثمود .

لماذا نذهب بعيدًا ؟! إن تاريخ مصر فيه الدليل على صحة قوله ، لقد جاء يوسف بالبينات فشك فيه الناس ثم آمنوا به بعد أن كادت النجاة تفلت منهم، ما الغرابة في إرسال الله للرسل؟ إن التاريخ القديم ينبغي أن يكون موضع نظر ، لقد انتصرت القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة ، وسحق الله تعالى الكافرين ، أغرقهم بالطوفان ، وصعقهم بالصرخة ، أو خسف بهم الأرض ، ماذا ننتظر إذن ؟ ومن أين نعلم أن وقوفنا وراء فرعون لن يضيعنا ويهلكنا جميعًا ؟

كان حديث الرجل المؤمن ينطوي على عديد من التحذيرات المخيفة ، ويبدو أنه أقنع الحاضرين بأن فكرة قتل موسى فكرة غير مأمونة العواقب ، وبالتالي فلا داعي لها .



ويذكر لنا الله تعالى في محكم آياته رد فرعون المتكبر الظالم :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾

مرة أخرى يحاول هذا الطاغية أن يموّه ويحاور، كي لا يواجه الحق جهرة ، ولا يعترف بدعوة الوحدانية التي تهز عرشه ، ومن أعجب الأشياء حقاً أن يكون هذا فهم فرعون وإدراكه ، إنه بعيد جداً أن يكون فرعون جاداً في البحث عن إله موسى على هذا النحو المادي الساذج ، وقد بلغ فراعنة مصر من الثقافة حداً يبعد معه هذا التصور ؛ وإنما هو الاستهتار والسخرية من جهة ، والتظاهر بالإنصاف والتثبت من جهة أخرى ، إنه يريد سلّماً يصعد عليه ليبحث عن إله موسى !! تصور . . !!

بعد هذا الاستهتار، وهذا الإصرار، ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مدوية صريحة :

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

إن هذه الآيات العظيمة تحتاج حقاً أن يتوقف معها كل مسلم وقفة تأمل وتدبر ونظر بجدية تامة ، فهي تبين في جلاء موقف الرجال المؤمنين من الأحداث ، ونظرتهم للدنيا والآخرة ، ومفاصلتهم التامة مع مخالفيهم ، مع تفويض أمورهم إلى الله ، يقيناً بالآخرة التي ستظهر فيها الحقائق ، وتبلى فيها السرائر والضمائر .

أنهى الرجل المؤمن حديثه بهذه الكلمات الشجاعة ، بعدها انصرف ، وهنا تحول الجالسون من موسى إليه ، بدءوا يمكرون له ، بدءوا يتحدثون عما صدر منه ، بدءوا يكيدون له ، فتدخلت عناية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ، وهو دائمًا سبحانه يحمي عباده المؤمنين :

﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾

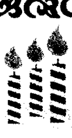
وأنجاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ برحمته من فرعون وجنوده .

من شؤم معصية فرعون لموسى

أما حال مصر في تلك الفترة ، فلقد مضى فرعون في تهديده ، فقتل الرجال واستحيا النساء ، وظل موسى وقومه يحتملون العذاب ، ويرجون فرج الله ، ويصبرون على الابتلاء، وظل فرعون في ضلاله وتحديه ، فابتلاهم الله بأنواع البلاء الشديدة والمتنوعة لعلهم يتذكرون أو يفيقون أو يخافون أو يرتدعون ، ولكن إذا غلبت الشقوة على الإنسان لم ينفع فيه موعظة ، قال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

وشاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يشدد على آل فرعون ، ابتلاءً لهم وتخويفًا ، ولكي يصرفهم عن الكيد لموسى ومن آمن معه ، وإثباتا لنبوة موسى وصدقه في الوقت نفسه ، وهكذا سلط على هؤلاء الفراعنة أعوام الجدب ، أجدبت الأرض وشح النيل ونقصت الثمار وجاع الناس ، واشتد القحط ، لكن آل فرعون لم يدركوا العلاقة بين كفرهم وفسقهم وبين بغيهم وظلمهم لعباد الله ، فأخذوا يعللون الأسباب ، فعندما تصيبهم حسنة ، يقولون : إنها من حسن حظهم وأنهم يستحقونها ، وإن أصابتهم سيئة قالوا : هي من شؤم موسى ومن معه عليهم ، وأنها من تحت رأسهم !







وأخذتهم العزة بالإثم فاعتقدوا أن سحر موسى هو المسئول عما أصابهم من قحط ، وصور لهم حمقهم أن هذا الجدب الذي أصاب أرضهم ، آية جاء بها موسى ليسحرهم بها، وهي آية لن يؤمنوا بها مهما حدث ، هكذا العقول المريضة ، والقلوب القاسية تفسر الأحداث بما يحلو لها .

فشدد الله عليهم لعلهم يرجعون إلَىٰ الله ، ويطلقون بني إسرائيل ويرسلونهم معه ، فأرسل عليهم الطوفان ، والجراد ، والقمل -وهو السوس- والضفادع ، والدم ، وطلب آل فرعون من موسى أن يدعو لهم ربه لينقذهم من هذا البلاء ، ويعدونه في كل مرة أن يرسلوا بني إسرائيل إذا أنجاهم ورفع عنهم هذا البلاء :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

فكان موسى عليه السلام يدعو الله سبحانه وتعالى بأن يكشف عنهم العذاب ، وما إن ينكشف البلاء حتى ينقضوا عهدهم ، ويعودوا إلَىٰ ما كانوا فيه :

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾

لم يهتد المصريون ، ولم يوفوا بعهودهم ، بل علَىٰ العكس من ذلك ، خرج فرعون لقومه، وأعلن أنه إله ، أليس له ملك مصر ، وهذه الأنهار تجري من تحته ، قال :

﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾

أعلن أن موسى ساحر كذاب ، ورجل فقير لا يرتدي أسورة واحدة من الذهب :

﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾

وصدق الله تعالى :

﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾

انظر إلى كلام الله ﷻ : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ ، استخف بعقولهم ، واستخف بحريتهم ، واستخف بمستقبلهم ، واستخف بآدميتهم ؛ فأطاعوه ، أليست هذه طاعة غريبة ، تنمحي الغرابة حين نعلم أنهم كانوا قومًا فاسقين ، إن الفسق يصرف الإنسان عن الالتفات لمستقبله ومصالحه وأموره ، ويورده الهلاك ، وذلك ما وقع لقوم فرعون .

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴾

دعاء موسى وهارون على فرعون وقومه

بدا واضحًا أن فرعون لن يؤمن لموسى ، ولن يكف عن تعذيبه لبني إسرائيل، ولن يكف عن استخفافه بقومه ، هنالك دعا موسى وهارون على فرعون :

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

هكذا دعا موسى عليه السلام ، ومازال ربنا جل وعلا يربي موسى نبيه وكليمه فكأنه قال له : لا تنشغل بفرعون : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ ، واهتم بنفسك وأخيك : ﴿ فَاسْتَقِيمَا ﴾ ، وتحذير شديد : ﴿ وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

لم يكن قد آمن مع موسى حتى هذا الوقت إلا فريق من قومه ، وقد بين الله تعالى من هم هؤلاء فقال ﷻ :

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾

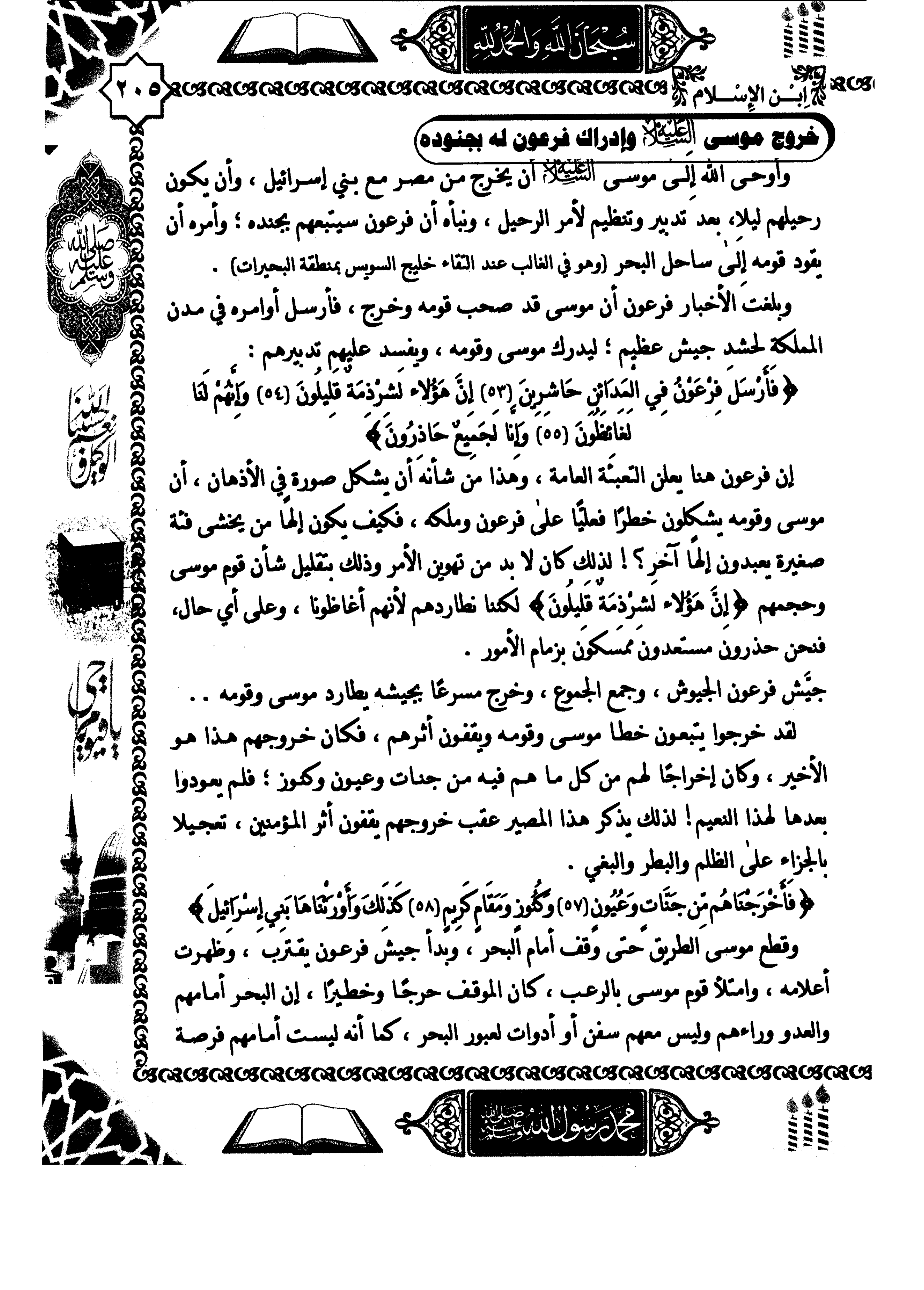
وهؤلاء الذرية الذين أسلموا أمر الله موسى بتربيتهم وإعدادهم إيمانيًا : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة يونس : ٨٧] ، ولما تم تأهيلهم للمواجهة انتهى الأمر .











خروج موسى عليه السلام وإدراك فرعون له بجنوده

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن يخرج من مصر مع بني إسرائيل ، وأن يكون رحيلهم ليلا، بعد تدبير وتنظيم لأمر الرحيل ، ونبأه أن فرعون سيتّبعهم بجنده ؛ وأمره أن يقود قومه إلى ساحل البحر (وهو في الغالب عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات) .

وبلغت الأخبار فرعون أن موسى قد صحب قومه وخرج ، فأرسل أوامره في مدن المملكة لحشد جيش عظيم ؛ ليدرك موسى وقومه ، ويفسد عليهم تدبيرهم :

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾

إن فرعون هنا يعلن التعبئة العامة ، وهذا من شأنه أن يشكل صورة في الأذهان ، أن موسى وقومه يشكلون خطرًا فعليًا على فرعون وملكه ، فكيف يكون إلهًا من يخشى فئة صغيرة يعبدون إلهًا آخر ؟ ! لذلك كان لا بد من تهوين الأمر وذلك بتقليل شأن قوم موسى وحجمهم ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ لكننا نطاردهم لأنهم أغاظونا ، وعلى أي حال، فنحن حذرون مستعدون ممسكون بزمام الأمور .

جيّش فرعون الجيوش ، وجمع الجموع ، وخرج مسرعًا بجيشه يطارد موسى وقومه . .

لقد خرجوا يتبعون خطا موسى وقومه ويقفون أثرهم ، فكان خروجهم هذا هو الأخير ، وكان إخراجًا لهم من كل ما هم فيه من جنات وعيون وكنوز ؛ فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم ! لذلك يذكر هذا المصير عقب خروجهم يقفون أثر المؤمنين ، تعجيلا بالجزاء على الظلم والبطر والبغي .

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

وقطع موسى الطريق حتى وقف أمام البحر ، وبدأ جيش فرعون يقترب ، وظهرت أعلامه ، وامتلأ قوم موسى بالرعب ، كان الموقف حرجًا وخطيرًا ، إن البحر أمامهم والعدو وراءهم وليس معهم سفن أو أدوات لعبور البحر ، كما أنه ليست أمامهم فرصة

واحدة للقتال ، إنهم مجموعة من النساء والأطفال والرجال غير المسلحين ، سيذبحهم فرعون عن آخرهم.

صرخت بعض الأصوات من قوم موسى : سيدركنا فرعون ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ .

ثبات موسى وثقته بربه

قال موسى : ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ .

لم يكن موسى يدري كيف ستكون النجاة ، لكن قلبه كان ممتلئًا بالثقة بربه ، واليقين بعونه ، والتأكد من النجاة ، فالله هو الذي يوجهه ويرعاه ، وفي اللحظة الأخيرة ، يجيء الوحي من الله ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه ، فوقعت المعجزة ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ وتحقق المستحيل في منطق الناس ، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إن أراد شيئًا قال له : كن ؛ فيكون .

ظهر طريق يابس وسط البحر ، الأمواج كالسورين على جنبتي الطريق ، وهرع موسى وقومه يسيرون في هذا الطريق الممهد داخل البحر والأمواج من حولهم، سبحان الملك ! !

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾

غرق فرعون .. هل من معتبر ؟

ووصل فرعون إلى البحر ، شاهد هذه المعجزة ، شاهد في البحر طريقًا يابسًا يشقه نصفين ، وموسى وقومه يسيرون في هذا الطريق اليابس في وسط البحر في أمان تام ، ووقف فرعون يتأمل موسى وقومه والأمواج من حولهم ، والأرض يابسة تحت أقدامهم ، ولم يفكر لحظة ، أسرع خلفهم يطاردهم ، وطمع فرعون في إدراكهم ، فأمر جيشه بالتقدم، وحين انتهى موسى من عبور البحر ، وأوحى الله إلى موسى أن يترك البحر على حاله ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ ، وكان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد قدّر إغراق فرعون وإنهاء أمره ، فما أن صار فرعون وجنوده في منتصف البحر، حتى أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ البحر، فانطبقت الأمواج على فرعون وجيشه ، وغرق فرعون وجيشه ، غرق العناد ونجا الإيمان بالله .





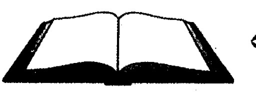
ولما عاين فرعون الغرق ، ولم يعد يملك النجاة ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ سقطت عنه كل الأقنعة الزائفة ، فلم يكتف بأن يعلن إيمانه، بل والاستسلام أيضًا ﴿وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لكن بلا فائدة ، فليس الآن وقت اختيار، بعد أن سبق العصيان والاستكبار

﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ؟!

انتهى وقت التوبة المحدد لك وهلكت ، انتهى الأمر ولا نجاة لك ، سينجو جسدك وحده ، لن تأكله الأسماك ، ولن يحمله التيار بعيدًا عن الناس ، بل سينجو جسدك ؛ لتكون آية لمن خلفك ، وكان جبريل عليه السلام يضع في فم فرعون الطين وهو يحاول النجاة من الغرق حتى لا ينجو ، فعن النبي ﷺ قال : « لَمَّا أَغْرَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ قَالَ : آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ، فَقَالَ جِبْرِيلُ : يَا مُحَمَّدُ فَلَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا آخُذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ، فَأَدُسُّهُ فِي فِيهِ مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ » (صحيح الترمذي : ٣٠٣٢) .

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾

أسدل الستار على طغيان فرعون ، ولفظت الأمواج جثته إلى الشاطئ ، بعد ذلك ، نزل الستار تمامًا على الفراعنة ، لا يحدثنا القرآن الكريم عما فعلوه بعد سقوط نظام فرعون وغرقه مع جيشه ، لا يحدثنا عن ردود فعلهم بعد أن دمر الله ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يشيدون ، لا نعلم عنهم شيئًا أبدًا ، وكأنهم سقطوا تمامًا من التاريخ والأحداث، ويتحدث فقط عن المؤمنين الذين صاحبوا موسى خطوة بخطوة .








من فوائد القصة

١. الله يحفظ أولياءه ويهيئ لهم الأسباب ، وكلما كنت من الله أقرب ؛ كان حفظ الله لك أعظم ، (احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك) .

٢. ربنا سبحانه وتعالى يتصف بكل جلال وكمال ، فهو يتكلم متى شاء كيف شاء ، وعلينا أن نؤمن بذلك ، دون محاولة تشبيه أو تمثيل ، ومن إكرام الله لموسى عليه السلام اصطفاؤه بالكلام صلى الله عليه وسلم .

٣. المهام الضخمة لا يقوم بها إلا ذوي الإيمان العظيم ، الذين تأهلوا لتحمل المشاق بجدارة واقتدار واستعانة بالله .

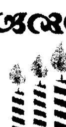
٤. الأنبياء والعلماء العاملون هم أشجع الناس قلوبًا ؛ لأنهم يعلمون حقيقة الدنيا وزيف الباطل ، فلا التخويف يرهبهم ، ولا التهديد يزعجهم .

٥. من تحقق بمعاني الإيمان واستشعر حلاوته هانت عليه التضحيات ، واستعذب العذاب في سبيل الله .

٦. قضية كل نبي وكل داعية إلى الله إرساء دعائم التوحيد ، وزلزلة بنيان الكفر ، ونسف أصوله ودمدمته ، فأصل الأصول التوحيد .

٧. أخشى ما يخشاه الطغاة يقظة الشعوب وصحوة القلوب وانقياد الناس لحكم الله وحده .

٨. الرفيق والمعين على الطريق من وسائل قوة السائر ، فاطلب الصاحب الذي يقوي قلبك على اتباع الحق ولزوم الهدى .







أثر فرعون على المصريين

لقد مات فرعون ، وغرق أمام عيون الفراعنة من جنوده وأتباعه ، وأمام بني إسرائيل، ورغم موته ، فقد ظل أثره باقيًا في نفوس الجميع ، من الصعب على سنوات القهر الطويلة والذل المكثف أن تمر على نفوس الناس هكذا دون تأثير ، لقد صنع فرعون في نفوس بني إسرائيل شيئًا سندركه من الآيات بعد قليل ، لقد عودهم على الذل لغير الله ، هزم أرواحهم ، فانطووا على الإعجاب بمن هزمهم وهكذا دومًا شأن المهزومين ، أفسد فطرتهم فعذبوا موسى عليه السلام عذابًا شديدًا بالعناد والجهل ، وبدأت معاناة موسى مع هؤلاء المؤمنين الصغار عند المعايشة الحقيقية في الحياة ، وكان أولها :

ميل بني إسرائيل للانحراف

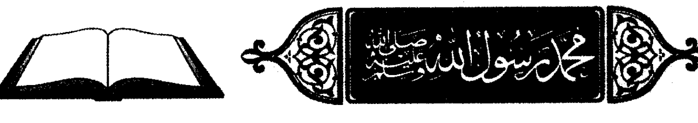
﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾

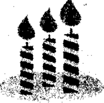
كما علمنا من هذه القصة أن بني إسرائيل كانوا يعيشون في ذل وهوان وإيذاء من فرعون وقومه ، فأهلك الله فرعون أمام أعينهم وأخرجهم إلى أرض طاهرة ؛ ليعيشوا في عزة الإيمان ، وفي ظل حكم نبي الله موسى ، فهي نعم كثيرة جدَّت عليهم فجأة ، ولكنك تفاجأ وكل أمورهم عجب أنهم بمجرد ما رأوا صنمًا ، اشتاقوا لعبادة الأصنام .

كانت معجزة شق البحر لم تزل طرية في أذهانهم ، حين مروا على قوم يعبدون الأصنام، وبدلا من أن يظهروا استياءهم لهذا الظلم ، ويحمدوا الله أن هداهم للإيمان، بدلا من ذلك التفتوا إلى موسى وطلبوا منه أن يجعل لهم إلها يعبدونه مثل هؤلاء الناس ، وليس هناك أحد أحسن من أحد ، أدركتهم الغيرة لمرأى الأصنام ، ورغبوا في مثلها ، وعاودهم الحنين لأيام الشرك القديمة التي عاشوها في ظل فرعون ، واستلفتهم موسى إلى جهلهم هذا .

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾





انتهت المرحلة الأولى من مهمة موسى عليه السلام ، وهي تخليص بني إسرائيل من حياة الذل والتعذيب علىٰ يد فرعون وجنده ، والسير بهم إلىٰ الديار المقدسة ، لكن القوم لم يكونوا علىٰ استعداد للمهمة الكبرى، مهمة الخلافة في الأرض بدين الله ، وكان الاختبار الأول أكبر دليل علىٰ ذلك ، فما أن رأوا قومًا يعبدون صنمًا ، حتى اهتزت عقيدة التوحيد في نفوسهم ، وطلبوا من موسى أن يجعل لهم وثنا يعبدونه ، فكان لا بد من رسالة مفصلة لتربية هذه الأمة وإعدادها لما هم مقبلون عليه ، من أجل هذه الرسالة كانت مواعدة الله لعبده موسى ليلقاه ، وكانت هذه المواعدة إعدادًا لنفس موسى ليتهيأ للموقف الهائل العظيم :

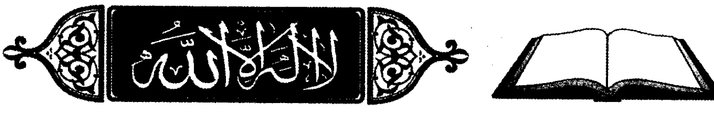
﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

ذهاب موسى لميقات ربه

كانت فترة الإعداد ثلاثين ليلة ، أضيف إليها عشر ، فبلغت عدتها أربعين ليلة ، يروّض موسى فيها نفسه علىٰ اللقاء الموعود ؛ وينعزل فيها عن شواغل الأرض ؛ فتصفو روحه وتتقوى عزيمته ، ويذكر ابن كثير في تفسيره عن أمر هذه الليالي : فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة ؛ قال المفسرون : فصامها موسى عليه السلام وطواها ، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة ، فأمره الله سبحانه وتعالى أن يكمل بالعشرة أربعين .

واستخلف في قومه أخاه هارون عليه السلام ، لابد من قيادة ، وسمع وطاعة ، فجعل موسى عليه السلام أخاه هارون أميرًا عليهم ، وكان هارون نبيًا رسولا، أرسله الله مع موسى.

يقص الله سبحانه وتعالى علينا ماذا كان من أمر موسى عليه السلام حين ذهب لميقات ربه ، كان موسى بصومه -أربعين ليلة- يقترب من ربه أكثر ، وكان موسى بتكليم الله له يزداد حبًا لله ، ويزداد حبه أكثر وأكثر ، ونحن لا نعرف أي مشاعر كانت تجيش في قلب



موسى عليه السلام حين سأل ربه الرؤية ، أحيانًا كثيرة يدفع الحب البشري الناس إِلَىٰ طلب المستحيل، فما بالك بالحب الإلهي ، وهو أصل الحب؟ إن عمق إحساس موسى بإكرام ربه له وعنايته به ، مع تزايد حبه لخالقه ، ورغبته في المزيد من القرب والتفضيل والطمع أيضًا في فضل الله وكرمه ، وقد عوده الله أن يعطيه ويحبوه ويزيده ، دفعه هذا كله إِلَىٰ أن سأل الله الرؤية .

طلب موسى رؤية ربه

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾

هكذا سأل موسى عليه السلام ربه سبحانه وتعالى سأله بتلقائية وعفوية وبساطة وحب ، ولكن جاءه رد الحق عز وجل حاسمًا :

﴿ قَالَ لَن تَرَانِي ﴾

كلمة واحدة .... انتهت القضية .... لن تراني ...

ولو أن الله سبحانه وتعالى قالها ولم يزد عليها شيئًا، لكان هذا عدلا منه سبحانه ، غير أن الموقف هنا موقف حب الله من جانب موسى ، موقف جليل وعظيم ولكن يبرره الحب ولهذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يفهم موسى السببَ رحمة به ، أفهمه أنه لن يراه ؛ لأن أحدًا من الخلق لا يستطيع أن يرى الله ، أمره الله سبحانه وتعالى أن ينظر إِلَىٰ الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف يراه .

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾

لا يستطيع أحد ولا شيء أن يثبت إذا تجلى الله سبحانه العظيم بنوره ، فدك الجبل ، وصار في مستوى الأرض ، وسقط موسى مغشيًا عليه غائبًا عن وعيه ، ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فلما أفاق قال : سبحانك تنزهت وتعاليت عن أن ترى بالأبصار أو أن يراك أحد أبدًا في هذه الدنيا ، وتبت إليك عن تجاوزي للمدى في سؤالك ! وأنا أول المؤمنين بك وبعظمتك.






بشرى الله له بالاصطفاء

لما تاب وأذعن وخضع وتواضع وآمن وصدق وعرف ، فلابد أن تأتيه الزيادة ؛ فالله كريم ، فتلقى موسى عليه السلام البشرى ، بشرى الاصطفاء ، مع التوجيه له بالرسالة إلى قومه بعد الخلاص ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

أي ارض بما قسمت لك ولا تطلب أكثر ، ثم بيّن الله سبحانه وتعالى مضمون الرسالة :

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾

ففي الألواح كل شيء يختص بموضوع الرسالة وغايتها من بيان الله وشريعته والتوجيهات المطلوبة لإصلاح حال هذه الأمة وطبيعتها التي أفسدها الذل وطول الأمد !

انتهى ميقات موسى مع ربه سبحانه وتعالى ، لم يكن في الوجود كله إنسان في مثل رضاه ، لكنه علم من ربه أنباء عن حال قومه من بعده تسوؤه فانقلب إلى قومه غضبان أسفًا .

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾

فتنة السامري

انحدر موسى من قمة الجبل وهو يحمل ألواح التوراة ، فرحان جذلًا سعيدًا بتكليم ربه، وتكريمه له ، وبحمله التوراة التي كتبها الله بيده ، وقد ثبت ذلك في الصحيح ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قَالَ آدَمُ لِمُوسَى : يَا مُوسَى اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ ، وَخَطَّ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ» (صحيح أبي داود : ٤٧٠١) ، وفي نفس الوقت قلبه يغلي بالغضب والأسف من



حال قومه وفتنتهم من بعده ، ولك أن تتخيل انفعال موسى وثورته وهو يحث خطاه نحو قومه ، هو يظن أنه رباهم وتعب في تعليمهم ، وعانى في تثبيتهم ، ومطمئن أنهم علىٰ أثره سائرون صابرون .

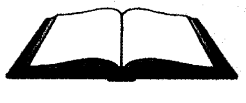
ولكن لم يكد موسى يغادر قومه إلىٰ ميقات ربه ، حتى وقعت فتنة السامري ، وتفصيل هذه الفتنة أن بني إسرائيل حين خرجوا من مصر ، صحبوا معهم كثيرًا من حُليّ الفراعنة وذهبهم ، حيث كانت نساء بني إسرائيل قد استعرنه للتزين به ، وعندما أمروا بالخروج حملوه معهم ، فلما أنجاهم الله من فرعون وأكرمهم بما رأوه من الكرامات ، سألوا علماءهم عن حكم هذا الذهب الذي أخذوه من الفراعنة بغير حق ، فأمروهم بالتخلص منه فورًا ، فاستجابت النساء وألقوا بهذه الحلي ، وقذفوا بها ؛ لأنها حرام ، فأخذها السامري ، وكان أحد علمائهم ، وصنع منها تمثالا لعجل ، وكان السامري فيما يبدو نحاتًا محترفًا أو صائغًا سابقًا ، فصنع العجل مجوفًا من الداخل ، ووضعه في اتجاه الريح ، بحيث يدخل الهواء من فتحته الخلفية ويخرج من أنفه فيحدث صوتًا يشبه خوار العجول الحقيقية .

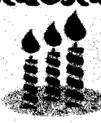
ويقال : إن سر هذا الخوار ، أن السامري كان قد أخذ قبضة من تراب سار عليه جبريل عليه السلام حين نزل إلىٰ الأرض في معجزة شق البحر ، أي أن السامري أبصر بما لم يبصروا به ، فقبض قبضة من أثر الرسول – جبريل عليه السلام – فوضعها مع الذهب وهو يصنع منه العجل ، وزعم أن جبريل عليه السلام لا يسير علىٰ شيء إلا دبت فيه الحياة ، فلما أضاف السامري التراب إلىٰ الذهب ، ثم صنع منه العجل ، خار العجل كالعجول الحقيقية ، وهذه هي قصة السامري التي ألقاها لموسى ، وكل هذا من أوهامه ، وليس له نصيب من الحقيقة ، فقد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ .

بعد ذلك ، خرج السامري علىٰ بني إسرائيل بما صنعه . .

سألوه : ما هذا يا سامري؟

قال: هذا إلهكم وإله موسى !





قالوا : كيف يكون هذا إلهه وقد ذهب موسى لميقات إلهه .

قال السامري : لقد نسي موسى ، ذهب للقاء ربه هناك ، بينما ربه هنا .

وهبت موجة من الرياح فدخلت من دبر العجل الذهبي وخرجت من فمه فخار العجل ، وصاح بنو إسرائيل مهللين كالأطفال ، وعبد بنو إسرائيل هذا العجل ، ولعل أعظم دهشة تثور لهذه الفتنة ، كيف يمكن الاستخفاف بعقول القوم لهذه الدرجة؟ ! لقد وقعت لهم معجزات هائلة ، فكيف ينقلبون إلىٰ عبادة الأصنام في لحظة ؟ ! سبحان الملك مقلب القلوب بالحق والعدل . .

وفوجئ هارون عليه السلام يومًا بأن بني إسرائيل يعبدون عجلا من الذهب ، فغضب غضبًا شديدًا ، ونهاهم عن ذلك ، وحذرهم وهددهم ، ولكن القوم انقسموا إلىٰ قسمين: الأقلية المؤمنة أدركت أن هذا هراء ، والأغلبية الكافرة طاوعت حنينها لعبادة الأوثان ، ووقف هارون وسط قومه وراح يعظهم ، قال لهم : إنكم فتنتم به ، هذه فتنة ، استغل السامري جهلكم وفتنكم بعجله ، ليس هذا ربكم ولا رب موسى ، إن ربكم الرحمن العظيم سبحانه وتعالى ، أنا خليفة موسى فاسمعوا لي وأطيعوا .

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾

ورفض عبدة العجل موعظة هارون ، لكن هارون عليه السلام عاد يعظهم ويذكرهم بمعجزات الله التي أنقذهم بها، وتكريمه ورعايته لهم ، فأصموا آذانهم ورفضوا كلماته ، واستضعفوه وكادوا يقتلونه ، وأنهوا مناقشة الموضوع بتأجيله حتى عودة موسى :

﴿ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾

كان واضحًا أن هارون أكثر لينًا من موسى ، لم يكن يهابه القوم للينه وشفقته ، وخشي هارون أن يلجأ إلىٰ القوة ويحطم لهم صنمهم الذي يعبدونه فتثور فتنة بين القوم ، فآثر هارون تأجيل الموضوع إلىٰ أن يحضر موسى ، كان يعرف أن موسى بشخصيته القوية، يستطيع أن يضع حدًا لهذه الفتنة دون إراقة الدماء .

واستمر القوم يرقصون حول العجل ! !





انحدر موسى عائدًا إلى قومه فسمع صياح القوم وجلبتهم وهم يرقصون حول العجل ، توقف القوم حين ظهر موسى وساد صمت ، صرخ موسى يقول :

﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ﴾

بئس ما فعلتم . . بئس ما صنعتم بعدي . . بئست الخيانة أن تغيروا عهدي . .

ثم اتجه موسى نحو هارون وألقى ألواح التوراة من يده على الأرض ، كان إعصار الغضب داخل موسى شديدًا ، الغضب لله سبحانه وحده ، أن هؤلاء بعد كل هذه النعم والإكرام يعودون لعبادة عجل ويتركون عبادة الله ، إنها مصيبة بكل المقاييس ، أن ترتكس فطرة هؤلاء القوم لهذه الدرجة .

إن أشد ما كان يؤلم موسى عليه السلام أنه كان يظن أنه قطع شوطًا في التربية والتعليم مع هؤلاء القوم ، فإذا به يكتشف أنه يحتاج أن يعود معهم إلى القضية من البداية : تفنيد الشرك ، وتأكيد التوحيد ، وهذا ما يجعل الدم يغلي في عروق أي إنسان ، ونتيجة هذا الغضب مدّ موسى يديه وأمسك هارون من شعر رأسه وشعر لحيته وشده نحوه وهو يرتعش ، قال موسى :

﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾

إن موسى يتساءل : حتى أنت يا هارون ؟! هل عصى هارون أمره ؟ كيف سكت على هذه الفتنة ؟ كيف طاوعهم على البقاء معهم ولم يخرج ويتركهم ويتبرأ منهم؟ كيف سكت عن مقاومتهم أصلا ؟ إن الساكت عن الخطأ مشترك فيه بشكل ما ، زاد الصمت عمقًا بعد جملة موسى الغاضبة ، وتحدث هارون إلى موسى ، رجا منه أن يترك رأسه ولحيته ، بحق انتمائهما لأم واحدة ، وهو يذكره بالأم ولا يذكره بالأب ؛ ليكون ذلك أدعى لاستثارة مشاعر الحنو في نفسه :

﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾



أفهمه أن الأمر ليس فيه عصيان له ، وليس فيه رضا بموقف عبدة العجل ؛ إنما خشي أن يتركهم ويمضي ، فيسأله موسى : كيف لم يبق فيهم وقد تركه موسى مسؤولا عنهم، وخشي لو قاومهم بعنف أن يثير بينهم قتالا فيسأله موسى كيف فرق بينهم ولم ينتظر عودته.

﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾

أفهم هارون أخاه موسى برفق ولين أن القوم استضعفوه ، وكادوا يقتلونه حين قاومهم ، رجا منه أن يترك رأسه ولحيته حتى لا يشمت به الأعداء ، ويستخف به القوم زيادة على استخفافهم به ، أفهمه أنه ليس ظالمًا مثلهم عندما سكت عن ظلمهم ولكنه الخوف والتردد .

﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

أدرك موسى أنه ظلم هارون في غضبه الذي أشعلته غيرته لله سبحانه وتعالى وحرصه على الحق ، أدرك أن هارون تصرف أفضل تصرف ممكن في هذه الظروف ، ترك رأسه ولحيته واستغفر الله لنفسه ولأخيه :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

ثم التفت موسى لقومه وتساءل بصوت لم يزل يضطرب غضبًا :

﴿ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾

يا قوم : هكذا بالنداء . . قد أنعم الله عليكم ووعدكم وعدًا حسنًا بنعيم أبد في الجنة إن أطعتموه وعبدتموه ، وأن يزيدكم إن شكرتموه . . هل نسيتم ؟ . . هل تطيقون غضب الله ؟ . . لماذا فعلتم ذلك ؟ . . هل هو العناد معي لتخلفوا وعدكم لي ؟!

إنه يعنفهم ويوبخهم ويلفتهم بإشارة سريعة إلى غباء ما عملوه ، ثم عاد موسى يقول غاضبًا أشد الغضب :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾



لم تكد الجبال تبتلع أصداء الصوت الغاضب حتى نكس القوم رءوسهم وأدركوا خطأهم ، كان افتراؤهم واضحًا على الحق الذي جاء به موسى ، أبعد كل ما فعله الله سبحانه وتعالى لهم، ينكفئون على عبادة الأصنام ؟ ! أيغيب موسى أربعين يومًا ثم يعود ليجدهم يعبدون عجلًا من الذهب ، أهذا تصرف قوم عهد الله إليهم بأمانة التوحيد في الأرض ؟ !

التفت موسى إلى السامري بعد حديثه القصير مع هارون ، بعد أن أثبت له هارون براءته كمسئول عن قومه في غيبته ، كما سكت القوم ونكسوا رءوسهم أمام ثورة موسى ، لم يبق إلا المسئول الأول عن الفتنة ، لم يبق إلا السامري . .

جزاء السامري رأس الفتنة

تحدث موسى إلى السامري وغضبه لم يهدأ بعد:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ ؟!

إنه يسأله عن قصته ، ويريد أن يعرف منه ما الذي حمله على ما صنع ، ما الموضوع؟ وما الحكاية ؟ قال السامري:

﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾

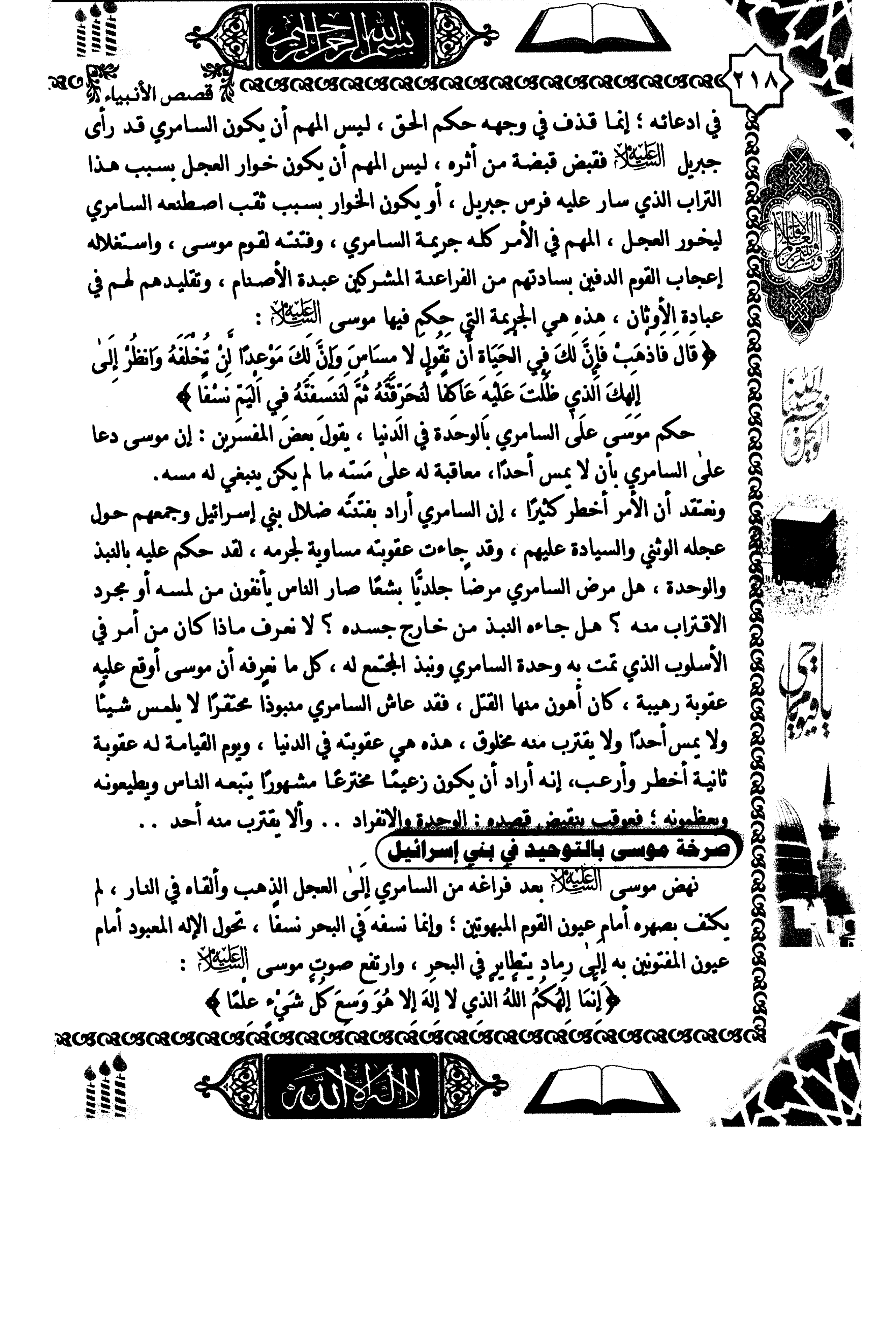
هكذا الغرور يصنع بأصحابه ، بصرت ولم يبصروا ، وعرفت مالم يعرفوا ، وأدركت مالم يدركوا ، الغرور والعُجب والتعالي ، زعم أنه رأى جبريل عليه السلام وهو يركب فرسه فلا تضع قدمها على شيء إلا دبت فيه الحياة :

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾

أخذت حفنة من التراب الذي سار عليه جبريل عليه السلام وألقيتها على الذهب :

﴿فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾

هذا ما ساقتني نفسي إليه ، إنها النفس المغرورة الأمارة ، إنها النفس التي تحب التعالي والشهرة ، وتطلب المجد الأجوف ، إنها النفس التي لازالت تحمل الشرك بين طياتها، ولما كان الكلام متهافتًا لا يستحق المناقشة ، لم يناقش موسى عليه السلام السامري



في ادعائه ؛ إنما قذف في وجهه حكم الحق ، ليس المهم أن يكون السامري قد رأى جبريل عليه السلام فقبض قبضة من أثره ، ليس المهم أن يكون خوار العجل بسبب هذا التراب الذي سار عليه فرس جبريل ، أو يكون الخوار بسبب ثقب اصطنعه السامري ليخور العجل ، المهم في الأمر كله جريمة السامري ، وفتنته لقوم موسى ، واستغلاله إعجاب القوم الدفين بسادتهم من الفراعنة المشركين عبدة الأصنام ، وتقليدهم لهم في عبادة الأوثان ، هذه هي الجريمة التي حكم فيها موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾

حكم موسى على السامري بالوحدة في الدنيا ، يقول بعض المفسرين : إن موسى دعا على السامري بأن لا يمس أحدًا، معاقبة له على مَسّه ما لم يكن ينبغي له مسه.

ونعتقد أن الأمر أخطر كثيرًا ، إن السامري أراد بفتنته ضلال بني إسرائيل وجمعهم حول عجله الوثني والسيادة عليهم ، وقد جاءت عقوبته مساوية لجرمه ، لقد حكم عليه بالنبذ والوحدة ، هل مرض السامري مرضا جلديًا بشعًا صار الناس يأنفون من لمسه أو مجرد الاقتراب منه ؟ هل جاءه النبذ من خارج جسده ؟ لا نعرف ماذا كان من أمر في الأسلوب الذي تمت به وحدة السامري ونبذ المجتمع له ، كل ما نعرفه أن موسى أوقع عليه عقوبة رهيبة ، كان أهون منها القتل ، فقد عاش السامري منبوذا محتقرًا لا يلمس شيئًا ولا يمس أحدًا ولا يقترب منه مخلوق ، هذه هي عقوبته في الدنيا ، ويوم القيامة له عقوبة ثانية أخطر وأرعب، إنه أراد أن يكون زعيمًا مخترعًا مشهورًا يتبعه الناس ويطيعونه ويعظمونه ؛ فعوقب بنقيض قصده : الوحدة والانفراد .. وألا يقترب منه أحد ..

صرخة موسى بالتوحيد في بني إسرائيل

نهض موسى عليه السلام بعد فراغه من السامري إلى العجل الذهب وألقاه في النار ، لم يكتف بصهره أمام عيون القوم المبهوتين ؛ وإنما نسفه في البحر نسفًا ، تحول الإله المعبود أمام عيون المفتونين به إلى رماد يتطاير في البحر ، وارتفع صوت موسى عليه السلام :

﴿ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

الله العظيم الكبير المتعال المحكم ، وليس ذلك الصنم الذي لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا .

بعد أن نسف موسى الصنم، وفرغ من الجاني الأصلي، التفت إلى قومه ، وحكم في القضية كلها فأفهمهم أنهم ظلموا أنفسهم وترك لعبدة العجل مجالا واحدًا للتوبة ، وكان هذا المجال أن يقتل المطيع من بني إسرائيل من عصى.

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

كانت العقوبة التي قررها موسى على عبدة العجل مهولة ، وتتفق مع الجرم الأصلي ، إن عبادة الأوثان إهدار لحياة العقل وصحوته، وهي الصحوة التي تميز الإنسان عن غيره من البهائم والجمادات ، وإزاء هذا الإزهاق لصحوة العقل ، تجيء العقوبة إزهاقا لحياة الجسد نفسه، فليس بعد العقل للإنسان حياة يتميز بها ، ومن نوع الجرم جاءت العقوبة ، جاءت شديدة ثم رحمهم الله سبحانه وتعالى وتاب عليهم ، ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .

أخيرًا ، ﴿ سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ ﴾ ، تأمل كيف يصور الغضب في صورة كائن، يثور داخل الإنسان ، أخيرًا سكت عن موسى الغضب ، زايله غضبه في الله ، وذلك أرفع أنواع الغضب وأجدرها بالاحترام والتوقير ، التفت موسى إلى مهمته الأصلية حين زايله غضبه فتذكر أنه ألقى ألواح التوراة ، وعاد موسى يأخذ الألواح ويعاود دعوته إلى الله .

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

رفع الجبل فوق بني إسرائيل

عاد موسى إلى هدوئه ، واستأنف جهاده في سبيل الله ، وقرأ ألواح التوراة على قومه، أمرهم في البداية أن يأخذوا بأحكامها بقوة وعزم ، ومن المدهش أن قومه ساوموه

علىٰ الحق ، قالوا : انشر علينا الألواح فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها ، فقال موسى: بل اقبلوها بما فيها ، فراجعوا مرارًا، فأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ملائكته فرفعت الجبل علىٰ رءوسهم حتى صار كأنه غمامة فوقهم ، وقيل لهم : إن لم تقبلوها بما فيها سقط ذلك الجبل عليكم ، فقبلوا بذلك ، وأمروا بالسجود فسجدوا ، وضعوا خدودهم علىٰ الأرض وراحوا ينظرون إلىٰ الجبل فوقهم هلعًا ورعبًا .

﴿ وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

وهكذا أثبت قوم موسى أنهم لا يسلمون وجوههم لله إلا إذا لويت أعناقهم بمعجزة حسية باهرة تلقي الرعب في القلوب وتثني الأقدام نحو سجود قاهر يدفع الخوف إليه دفعًا، يقع هذا في ظل غياب الوعي والنضج الكافيين لقيام الاقتناع العقلي ، ولعلنا هنا نشير مرة أخرى إلىٰ نفسية قوم موسى ، فهي المسئول الأول عن عدم اقتناعهم إلا بالقوة الحسية والمعجزات الباهرة ، ولكن لم تمر جريمة عبادة العجل دون آثار .

خروج السبعين لميقات الله

أمر موسى بني إسرائيل أن يستغفروا الله ويتوبوا إليه ، ثم اختار منهم سبعين رجلا، الخير فالخير، وقال : انطلقوا إلىٰ الله فتوبوا إليه مما صنعتم ، وسلوه التوبة علىٰ من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم ، خرج موسى بهؤلاء السبعين المختارين لميقات حدده له الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، دنا موسى من الجبل ، وكلم الله عَزَّ وَجَلَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وسمع السبعون موسى وهو يكلم ربه :

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا ﴾

ولعل معجزة كهذه المعجزة تكون الأخيرة ، وتكون كافية لحمل الإيمان إلىٰ القلوب مدى الحياة، غير أن السبعين المختارين لم يكتفوا بما استمعوا إليه من المعجزة؛ إنما طلبوا رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .



قالوا : سمعنا ونريد أن نرى ، قالوا لموسى ببساطة :

﴿يَا مُوسَى لن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾

هي مأساة تثير أشد الدهشة ، وهي مأساة تشير إلىٰ صلابة القلوب واستمساكها بالحسيات والماديات ، هكذا قالوا : لن نؤمن لك .. كأن الأمر لعبة !!.. لن نؤمن لك !!. إنهم قوم يلعبون ، بعد كل ما رأيتم من الآيات ، وما منحكم الله من النعم ، وبعد كل ما عافاكم الله منه من عنت وقهر ، بعد كل ذلك : لن نؤمن لك !!.. وهنا غضب الله الملك العظيم ، وكوفئ الطلب المتعنت بعقوبة صاعقة ، أخذتهم رجفة مدمرة صعقت أرواحهم وأجسادهم علىٰ الفور ، فماتوا .

أدرك موسى ما أحدثه السبعون المختارون ، وهم نقاوة القوم وأفضلهم وأخيرهم ، فملأه الأسى وقام يدعو ربه ويناشده أن يعفو عنهم ويرحمهم ، وألا يؤاخذهم بما فعل السفهاء منهم ، وليس طلبهم رؤية الله عَزَّ وَجَلَّ وهم علىٰ ما هم فيه من البشرية الناقصة وقسوة القلب غير سفاهة كبرى ، سفاهة لا يكفر عنها إلا الموت ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون .

وهكذا صعق من طلب الرؤية ، ووقف موسى يدعو ربه ويستعطفه ويترضاه :

﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾

بشرى بنبوة محمد ﷺ

هذه كانت كلمات موسى لربه وهو يدعوه ويترضاه ، إنا هدنا إليك ، يعني تبنا ورجعنا وندمنا علىٰ ما فعلنا وأنبنا إليك ، ورضي الله سبحانه وتعالى عنه وغفر لقومه فأحياهم بعد موتهم :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

واستمع المختارون بعد أن أخذتهم الصاعقة ثم أحياهم الله سبحانه وتعالى في هذه اللحظات الباهرة من تاريخ الحياة إلىٰ النبوءة بمجيء محمد بن عبد الله ﷺ ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

هكذا جاءت البشرى بالنبي محمد ﷺ لهؤلاء القوم بعد حياتهم الجديدة .. وكأن فيها إشارة أن من يتبع النبي محمد ﷺ عند بعثته ، تكون بذلك حياة جديدة له .

من فوائد القصة

١. حقيقة الرجولة : الإيجابية والصدق وإظهار الحق وعدم الالتواء .

٢. المعصية تجر على صاحبها الويلات والعنف والمشقة والضيق وتنزل به غضب الله .

٣. الثقة واليقين في الله أهم وأخطر زاد للمسلم ، به يَثْبت ويُثَبت من حوله ؛ فإنهم يستمدون ثباتهم من ثقتهم في الله ويقينهم في نصره .

٤. النفوس المائلة إلى الانحراف تحتاج إلى حزم وصرامة ، ومن الحكمة استعمال الشدة في مواطن تليق بها ، ومن وضع الرفق مكان الشدة ، أو الشدة مكان الرفق فسد وأفسد ، وضاع وأضاع .

٥. الصوم مدرسة إعداد الروح ؛ لترتفع إلى السمو الإيماني ، والقرب من الله جل جلاله ، وبالصيام يتم إعداد النفس على قهر شهواتها وتذليلها لله .

٦. عامة الناس وغوغاؤهم ليس لهم مذهب ولا مبدأ ، بل من السهل أن يستخفهم مفتون ، ويقودهم إلى الفجور والكفر ، لذلك كان العلم سياجًا قويًا أمام الفتن ، وعاصمًا أمينًا من التردي في الإمعية البغيضة .

٧ الأنبياء يغضبون كما يغضب البشر ، ولكنهم لا يغضبون إلا لله ، ولا يحملهم الغضب علىٰ ما يغضب الله ؛ لأن غضبهم يكون أصلا لله عز وجل .

٨ من الغضب ما لا يؤاخذ به صاحبه ، وهو استحكام الغضب ، وعدم شعور المرء ماذا يجري منه .

٩ يلقى المجرم جزاء جرمه في الدنيا قبل الآخرة ، ويكون جزاؤه فيه من جنس عمله .

١٠ البشارة بنبوة رسولنا محمد جاءت بها الكتب السابقة ؛ لتكون حجة علىٰ أصحابها إذا أدركوا بعثته .

قصة البقرة

مكث موسى عليه السلام في قومه يدعوهم إلىٰ الله ، يعلمهم ويربيهم ، ويريد أن يمكن لهم في الأرض ، ولكن يبدو أن نفوسهم كانت ملتوية بشكل لا تخطئه عين الملاحظة ، وتبدو لجاجتهم وعنادهم فيما يعرف بقصة البقرة ، فإن الموضوع لم يكن يقتضي كل هذه المفاوضات بينهم وبين موسى عليه السلام ، كما أنه لم يكن يستوجب كل هذا التعنت .

وأصل قصة البقرة أن قتيلا ثريًا وجد يومًا في بني إسرائيل ، واختصم أهله ولم يعرفوا قاتله ، وحين أعياهم الأمر لجئوا لموسى عليه السلام ليلجأ لربه عز وجل ، ولجأ موسى لربه فأمره أن يأمر قومه أن يذبحوا بقرة :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾

وكان المفروض هنا أن يذبح القوم أول بقرة تصادفهم ، غير أنهم بدأوا مفاوضتهم بالجدال ، اتهموا موسى عليه السلام بأنه يسخر منهم ويتخذهم هزوًا، واستعاذ موسى بالله أن يكون من الجاهلين ويسخر منهم ، أفهمهم أن حل القضية يكمن في ذبح بقرة :

﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

إن الأمر هنا أمر معجزة ، لا علاقة لها بالمألوف في الحياة ، أو المعتاد بين الناس ، ليست هناك علاقة بين ذبح البقرة ومعرفة القاتل في الجريمة الغامضة التي وقعت ، إنه الأمر من الله ، والمطلوب من بني إسرائيل أن يسمعوا ويطيعوا . .

لكن متى كانت الأسباب المنطقية هي التي تحكم حياة بني إسرائيل ؟!

إن المعجزات الخارقة هي القانون السائد في حياتهم ، وليس استمرارها في حادث البقرة أمرًا يوحي بالعجب أو يثير الدهشة .

لكن بني إسرائيل هم بنو إسرائيل ، بمجرد التعامل معهم عنت ، تستوي في ذلك الأمور الدنيوية المعتادة ، وشؤون العقيدة المهمة ، لا بد أن يعاني من يتصدى لأمر من أمور بني إسرائيل ، وهكذا يعاني موسى من إيذائهم له واتهامه بالسخرية منهم ، ثم ينبئهم أنه جاد فيما يحدثهم به ، ويعاود أمره أن يذبحوا بقرة .

وتعود الطبيعة المراوغة لبني إسرائيل إلى الظهور، يعود الجدال والالتواء ، فيتساءلون : أهي بقرة عادية كما عهدنا من هذا الجنس من الحيوان ؟! أم أنها خلق تفرد بمزية ، فليدع موسى ربه ليبين ما هي :

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾

ويدعو موسى ربه فيزداد التشديد عليهم ، وتحدد البقرة أكثر من ذي قبل ، بأنها بقرة وسط ، ليست بقرة مسنة ، وليست بقرة فتية ، بقرة متوسطة :

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾

إلى هنا كان ينبغي أن ينتهي الأمر ، غير أن المفاوضات لم تزل مستمرة ، ومراوغة بني إسرائيل لم تزل هي التي تحكم مائدة المفاوضات ، ما لون البقرة ؟ لماذا لا يدعو موسى ربه ليسأله عن لون هذا البقرة ؟ لا يراعون مقتضيات الأدب والوقار اللازمين في حق الله سبحانه وتعالى وحق نبيه الكريم ، وكيف أنهم ينبغي أن يخجلوا من تكليف موسى بهذا الاتصال المتكرر حول موضوع بسيط لا يستحق كل هذا الجدال والمراوغة :

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾

ويسأل موسى عليه السلام ربه عز وجل ثم يحدثهم عن لون البقرة المطلوبة ، فيقول :

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾

وهكذا حددت البقرة بأنها صفراء ، ورغم وضوح الأمر ، فقد عادوا إلىٰ اللجاجة والمراوغة ، فشدد الله ﷻ عليهم كما شددوا علىٰ نبيه وآذوه ، عادوا يسألون موسى أن يدعو الله ليبين ما هي ، فإن البقر تشابه عليهم :

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾

وحدثهم موسى عن بقرة ليست معدة لحرث ولا لسقي ، سلمت من العيوب ، صفراء لا شية فيها ، بمعنى خالصة الصفرة :

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾

انتهت بهم اللجاجة إلىٰ التشديد ، وبدءوا بحثهم عن بقرة بهذه الصفات الخاصة ، أخيرًا وجدوها عند يتيم فاشتروها وذبحوها :

﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾

وأمسك موسى عليه السلام جزءًا من البقرة وضرب به القتيل فنهض من موته ، سأله موسى عليه السلام عن قاتله فحدثهم عنه (وقيل : أشار إلىٰ القاتل فقط من غير أن يتحدث) ثم عاد إلىٰ الموت ، وشاهد بنو إسرائيل معجزة إحياء الموتى أمام أعينهم ، استمعوا بآذانهم إلىٰ اسم القاتل ، انكشف غموض القضية التي حيرتهم زمنًا طال بسبب جدالهم وتعنتهم :

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

وانظر إلىٰ غاية سوء الأدب حين قالوا :

﴿ الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾

بعد أن أرهقوا نبيهم بسؤاله عن صفة البقرة ولونها وسنها وعلاماتها المميزة ، بعد تعنتهم وتشديد الله عليهم ، يقولون لنبيهم حين جاءهم بما يندر وجوده ويندر العثور عليه في البقر عادة : ﴿ الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ ، كأنه كان يلعب قبلها معهم ، ولم يكن ما جاء هو الحق من أول كلمة لآخر كلمة :

﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾

ما كادوا يفعلون ، وما كانوا يستطيعون ، ولولا أن الله رحمهم وأعانهم لما وجدوها ، ولعل التوفيق جاءهم من قولهم : ﴿ وَإِنَّآ إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ .

وهكذا أرسل الله موسى لأمة عنيدة عاتية ، فقد كانت بنو إسرائيل في طباعهم أطفالا ، وأطفالا معاندين ، وكلما أُمروا بأمر يخالفونه إِلَىٰ ضده ، ويستهزئون به ، كأنهم يرون من الواجب أن يبدلوا ما يقال لهم ، كطفل عنيد يقال له : قم فيجلس ، ويقال له : اجلس فيقوم ، ويقال له : اسكت فيتكلم ، ويقال له : تكلم فيسكت .

وكان فيهم عناد الأطفال في خبث الأشرار ، في هُزْء الأعداء ، في سفاهة الجانين ، كانوا يريدون أن يسكنوا ويأكلوا طعامهم الشهي من البصل والعدس والفول ! !

ولكنهم لما قيل لهم : ﴿ ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، غضبوا ورفضوا ، حتى دخلوا القرية كرهًا وهزوًا ، يزحفون علىٰ آساتهم ، وغيروا الكلمة التي أمرهم الله بقولها :

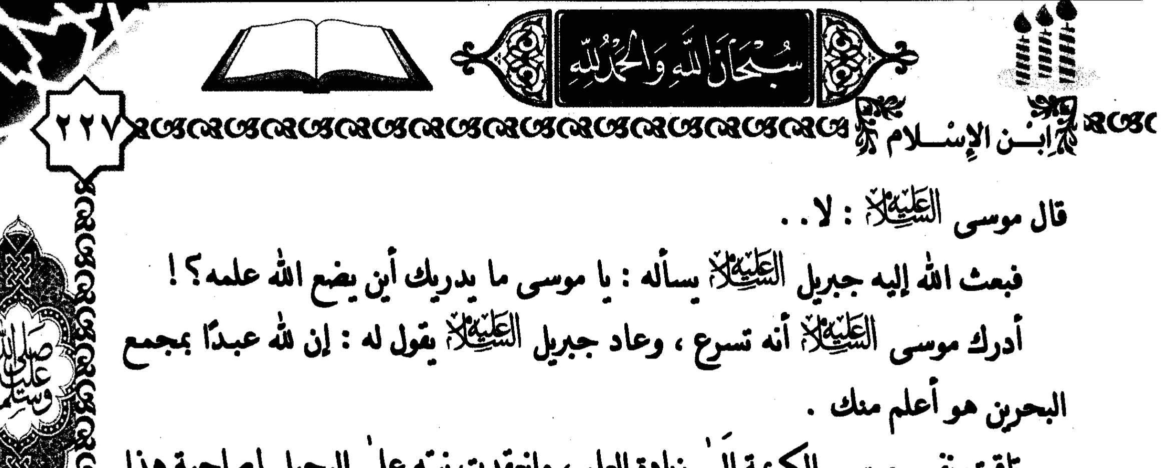
﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

هكذا هم دائمًا ، انظر إِلَىٰ تعنتهم وتسويفهم ومماراتهم وجدالهم في الحق؟ هذه الآيات العظيمة الجليلة تعرفك بموقف بني إسرائيل علىٰ موائد المفاوضات ، هي صورتهم علىٰ مائدة المفاوضات مع نبيهم الكريم موسى عليه السلام وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا موسى ، حقًا كما قال ابن الجوزي : " وكم أنَّ موسى من لن ! ! " .

قصة موسى والخضر

وفي يوم من الأيام قام موسى عليه السلام خطيبًا في بني إسرائيل ، يدعوهم إِلَىٰ الله ويحدثهم عن الحق ، ويبدو أن حديثه جاء جامعًا ماتعًا رائعًا ، فبعد أن انتهى من خطابه سأله أحد المستمعين من بني إسرائيل:هل علىٰ وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله؟ !





قال موسى عليه السلام : لا . .

فبعث الله إليه جبريل عليه السلام يسأله : يا موسى ما يدريك أين يضع الله علمه ؟ !

أدرك موسى عليه السلام أنه تسرع ، وعاد جبريل عليه السلام يقول له : إن لله عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك .

تاقت نفس موسى الكريمة إلىٰ زيادة العلم ، وانعقدت نيته علىٰ الرحيل لمصاحبة هذا العبد العالم ، وسأل : كيف السبيل إليه ، فأمر أن يرحل ، وأن يحمل معه حوتًا في مكتل ، أي سمكة في سلة ، وفي المكان الذي ترتد فيه الحياة لهذا الحوت ويتسرب في البحر، سيجد العبد العالم ، انطلق موسى -طالب العلم- ومعه فتاه يوشع بن نون الذي صار نبيًا بعد موسى عليه السلام ، وقد حمل الفتى حوتًا في سلة ، انطلقا بحثًا عن العبد الصالح العالم ، وليست لديهم أي علامة علىٰ المكان الذي يوجد فيه إلا معجزة ارتداد الحياة للسمكة القابعة في السلة وتسربها إلىٰ البحر.

ويظهر عزم موسى عليه السلام علىٰ العثور علىٰ هذا العبد العالم ولو اضطره الأمر إلىٰ أن يسير أحقابًا وأحقابًا ، قيل : إن الحقب عام ، وقيل : ثمانون عامًا ، علىٰ أية حال فهو تعبير عن التصميم ، لا عن المدة علىٰ وجه التحديد .

قال الله سبحانه وتعالى :



﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾

وصل الاثنان إلىٰ صخرة جوار البحر وقد تعب موسى من السفر والرحلة ، رقد موسى عليه السلام واستسلم للنعاس ، وبقي الفتى ساهرًا ، وألقت الرياح إحدى الأمواج على الشاطئ فأصاب الحوت رذاذ ماء البحر فدبت فيه الحياة وقفز إلىٰ البحر ، ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ ، وكان تسرب الحوت إلىٰ البحر علامة أعلم الله عز وجل بها موسى لتحديد مكان لقائه بالرجل الحكيم الذي جاء موسى عليه السلام يتعلم منه .

نهض موسى من نومه فلم يلاحظ أن الحوت تسرب إلى البحر ، ونسي فتاه الذي يصحبه أن يحدثه عما وقع للحوت ، وسار موسى مع فتاه بقية يومهما وليلتهما وقد نسيا حوتهما ، ثم تذكر موسى غداءه وحل عليه التعب ، ﴿ قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾ ، ولمع في ذهن الفتى ما وقع .

ساعتئذ تذكر الفتى كيف تسرب الحوت إلى البحر هناك ، وأخبر موسى بما وقع ، واعتذر إليه بأن الشيطان أنساه أن يذكر له ما وقع ، رغم غرابة ما وقع ، فقد اتخذ الحوت ﴿ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ ، كان أمرًا عجيبًا ما رآه يوشع بن نون ، لقد رأى الحوت يشق الماء فيترك علامة وكأنه طير يتلوى على الرمال .

سعد موسى من مروق الحوت إلى البحر و﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ ، هذا ما كنا نريده ، إنَّ تسرب الحوت يحدد المكان الذي سنلتقي فيه بالرجل العالم ، ويعود موسى وفتاه يقصان أثرهما عائدين .

أخيرًا وصل موسى إلى المكان الذي تسرب منه الحوت ، وصلا إلى الصخرة التي ناما عندها، وتسرب عندها الحوت من السلة إلى البحر ، وهناك وجدا رجلا.

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾

يقول البخاري : إن موسى وفتاه وجدا الخضر مسجى بثوبه ، وقد جعل طرفه تحت رجليه وطرفه الآخر تحت رأسه ، فسلم عليه موسى ، فكشف عن وجهه وقال : هل بأرضك سلام. . ؟ من أنت ؟

قال موسى : أنا موسى .

قال الخضر : موسى بني إسرائيل ، عليك السلام يا نبي بني إسرائيل.

قال موسى : وما أدراك بي. . ؟

قال الخضر : الذي أدراك بي ودلك علي ، ماذا تريد يا موسى. . ؟

قال موسى ملاطفًا مبالغًا في التوقير: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ .



قال الخضر: أما يكفيك أن التوراة بيديك ، وأن الوحي يأتيك . . ؟ يا موسى :

﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ .

نريد أن نتوقف لحظة لنلاحظ الفرق بين سؤال موسى عليه السلام الملاطف المغالي في الأدب ، ورد الخضر الحاسم ، الذي يُفهم موسى أن علمه لا يستطيع موسى أن يعرفه ، كما أن علم موسى هو علم لا يعرفه الخضر ، إن علمي أنت تجهله ، ولن تطيق عليه صبرًا؛ لأن الظواهر التي ستحكم بها على علمي لن تشفي قلبك ولن تعطيك تفسيرًا ، وربما رأيت في تصرفاتي ما لا تفهم له سببا أو تدري له علة ، وإذا لن تصبر على علمي يا موسى .

احتمل موسى كلمات الخضر الحاسمة وعاد يرجوه أن يسمح له بمصاحبته والتعلم منه، وقال له موسى فيما قال : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ .

تأمل كيف يتواضع كليم الله ويؤكد للعبد المتدثر بالخفاء أنه لن يعصي له أمرًا .

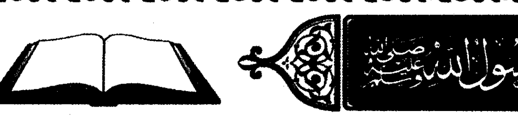
قال الخضر لموسى عليه السلام إن هناك شرطًا يشترطه لقبول أن يصاحبه موسى ويتعلم منه ، وهو ألا يسأله عن شيء حتى يحدثه هو عنه ، فوافق موسى على الشرط .

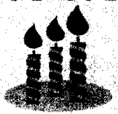
﴿ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانطَلَقَا ﴾

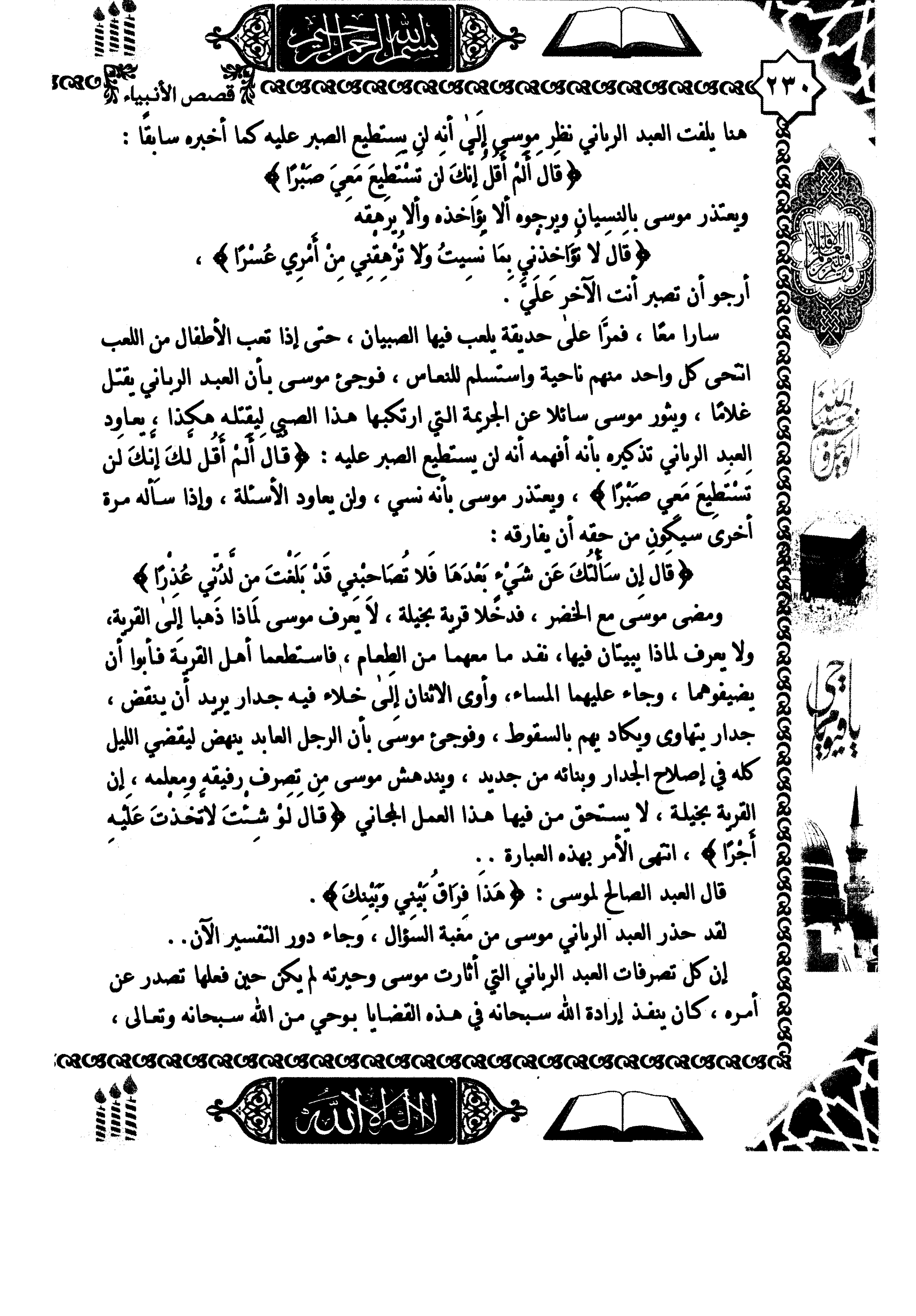
انطلق موسى مع الخضر يمشيان على ساحل البحر ، مرت سفينة فكلماهم أن يحملوهما، وعرف أصحاب السفينة الخضر فحملوه وحملوا موسى بدون أجر، إكرامًا للخضر، وفوجئ موسى حين رست السفينة وغادرها أصحابها وركابها ، فوجئ بأن الخضر يتخلف فيها، لم يكد أصحابها يبتعدون حتى بدأ الخضر يخرق السفينة ، اقتلع لوحًا من ألواحها وألقاه في البحر فحملته الأمواج بعيدًا .

فاستنكر موسى فعلة الخضر ، لقد حملنا أصحاب السفينة بغير أجر ، أكرمونا ، وها هو ذا يخرقها ويفسدها ، كان التصرف من وجهة نظر موسى معيبًا :

﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾







هنا يلفت العبد الرباني نظر موسى إلى أنه لن يستطيع الصبر عليه كما أخبره سابقًا :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾

ويعتذر موسى بالنسيان ويرجوه ألا يؤاخذه وألا يرهقه

﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ ،

أرجو أن تصبر أنت الآخر عليّ .

سارا معًا ، فمرَّا على حديقة يلعب فيها الصبيان ، حتى إذا تعب الأطفال من اللعب انتحى كل واحد منهم ناحية واستسلم للنعاس ، فوجئ موسى بأن العبد الرباني يقتل غلامًا ، ويثور موسى سائلا عن الجريمة التي ارتكبها هذا الصبي ليقتله هكذا ، يعاود العبد الرباني تذكيره بأنه أفهمه أنه لن يستطيع الصبر عليه : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ، ويعتذر موسى بأنه نسي ، ولن يعاود الأسئلة ، وإذا سأله مرة أخرى سيكون من حقه أن يفارقه :

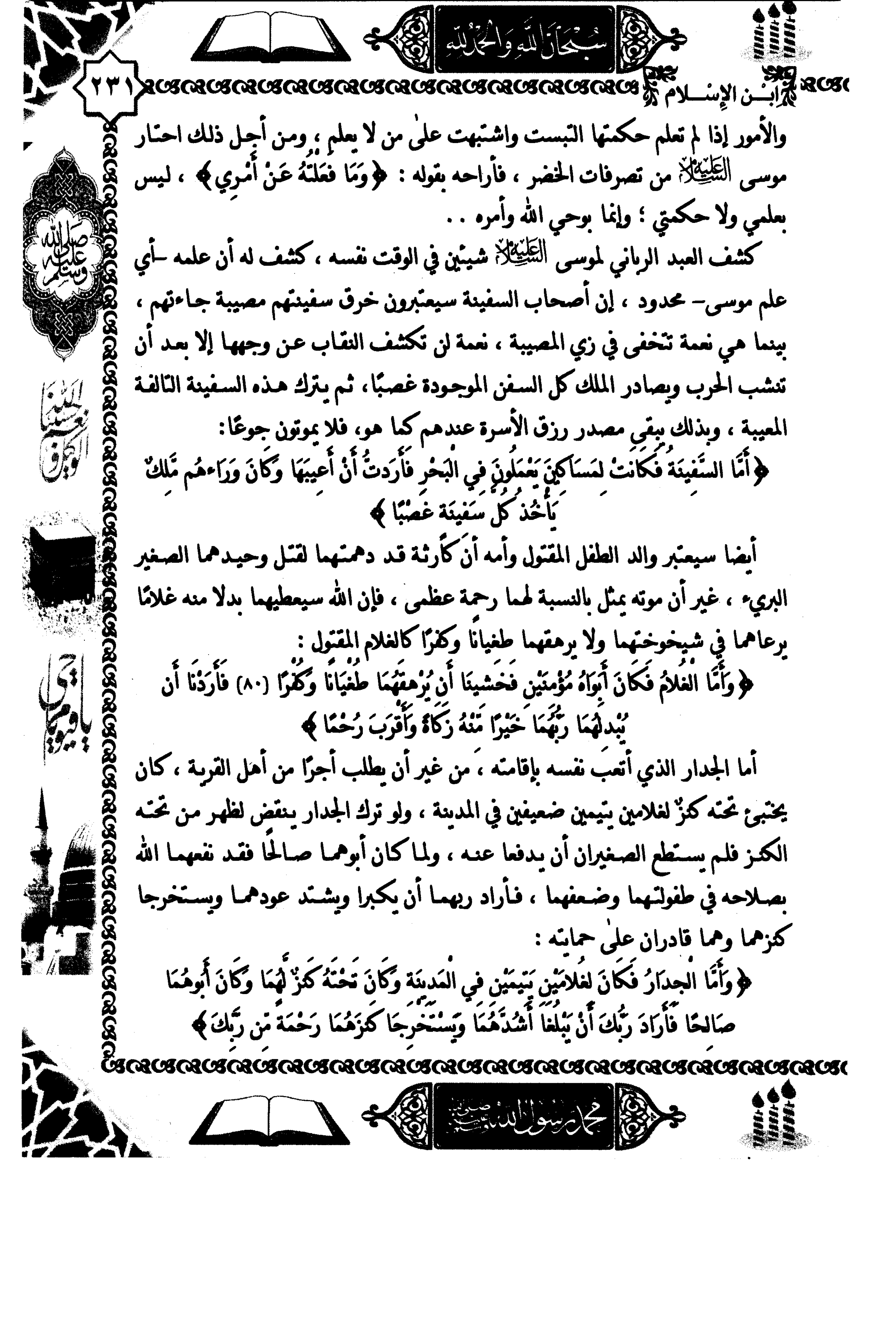
﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾

ومضى موسى مع الخضر ، فدخلا قرية بخيلة ، لا يعرف موسى لماذا ذهبا إلى القرية، ولا يعرف لماذا يبيتان فيها، نفد ما معهما من الطعام ، فاستطعما أهل القرية فأبوا أن يضيفوهما ، وجاء عليهما المساء، وأوى الاثنان إلى خلاء فيه جدار يريد أن ينقض ، جدار يتهاوى ويكاد يهم بالسقوط ، وفوجئ موسى بأن الرجل العابد ينهض ليقضي الليل كله في إصلاح الجدار وبنائه من جديد ، ويندهش موسى من تصرف رفيقه ومعلمه ، إن القرية بخيلة ، لا يستحق من فيها هذا العمل المجاني ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ ، انتهى الأمر بهذه العبارة . .

قال العبد الصالح لموسى : ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ .

لقد حذر العبد الرباني موسى من مغبة السؤال ، وجاء دور التفسير الآن . .

إن كل تصرفات العبد الرباني التي أثارت موسى وحيرته لم يكن حين فعلها تصدر عن أمره ، كان ينفذ إرادة الله سبحانه في هذه القضايا بوحي من الله سبحانه وتعالى ،



والأمور إذا لم تعلم حكمتها التبست واشتبهت على من لا يعلم ، ومن أجل ذلك احتار موسى عليه السلام من تصرفات الخضر ، فأراحه بقوله : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ ، ليس بعلمي ولا حكمتي ؛ وإنما بوحي الله وأمره . .

كشف العبد الرباني لموسى عليه السلام شيئين في الوقت نفسه ، كشف له أن علمه -أي علم موسى- محدود ، إن أصحاب السفينة سيعتبرون خرق سفينتهم مصيبة جاءتهم ، بينما هي نعمة تتخفى في زي المصيبة ، نعمة لن تكشف النقاب عن وجهها إلا بعد أن تنشب الحرب ويصادر الملك كل السفن الموجودة غصبًا، ثم يترك هذه السفينة التالفة المعيبة ، وبذلك يبقى مصدر رزق الأسرة عندهم كما هو، فلا يموتون جوعًا:

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾

أيضا سيعتبر والد الطفل المقتول وأمه أن كارثة قد دهمتهما لقتل وحيدهما الصغير البريء ، غير أن موته يمثل بالنسبة لهما رحمة عظمى ، فإن الله سيعطيهما بدلا منه غلامًا يرعاهما في شيخوختهما ولا يرهقهما طغيانًا وكفرًا كالغلام المقتول :

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾

أما الجدار الذي أتعب نفسه بإقامته ، من غير أن يطلب أجرًا من أهل القرية ، كان يختبئ تحته كنز لغلامين يتيمين ضعيفين في المدينة ، ولو ترك الجدار ينقض لظهر من تحته الكنز فلم يستطع الصغيران أن يدفعا عنه ، ولما كان أبوهما صالحًا فقد نفعهما الله بصلاحه في طفولتهما وضعفهما ، فأراد ربهما أن يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنزهما وهما قادران على حمايته :

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾

ثم ينفض الرجل يده من الأمر ، فهي رحمة الله التي اقتضت هذا التصرف ، وهو أمر الله لا أمره ، فقد أطلعه علىٰ هذه المسألة وما قبلها، ووجهه إلىٰ التصرف فيها وفق ما أطلعه ربه عليه :

﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

واختفى هذا العبد الصالح ، إلَّا أن موسى تعلم من صحبته درسين مهمين :

- تعلم ألا يغتر بعلمه ؛ فإن فوق كل ذي علم عليم .
- تعلم أن يتأدب مع ربه بألا يتسرع ، وألا يتكلم بما لا يعلم .

بنو إسرائيل في صحراء سيناء

سار موسى بقومه في سيناء ، وهي صحراء ليس فيها شجر يقي من الشمس ، وليس فيها طعام ولا ماء ، وأدركتهم رحمة الله فساق إليهم المن والسلوى وظللهم الغمام ، والمن : مادة يميل طعمها إلىٰ الحلاوة وتفرزها بعض أشجار الفاكهة ، وساق الله إليهم السلوى ، وهو نوع من أنواع الطيور يقال : إنه (السمَّان) ، وحين اشتد بهم الظمأ إلىٰ الماء وسيناء مكان يخلو من الماء، ضرب لهم موسى عليه السلام بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا من المياه ، وكان بنو إسرائيل ينقسمون إلىٰ اثنى عشر سبطًا ، فأرسل الله المياه لكل مجموعة ، ورغم هذا الإكرام والحفاوة ، تحركت في النفوس التواءاتها المريضة ، واحتج قوم موسى بأنهم سئموا من هذا الطعام ، واشتاقت نفوسهم إلىٰ البصل والثوم والفول والعدس، وكانت هذه الأطعمة أطعمة مصرية تقليدية ، وهكذا سأل بنو إسرائيل نبيهم موسى أن يدعو الله ليخرج لهم من الأرض هذه الأطعمة .

وعاد موسى يستلفتهم إلى ظلمهم لأنفسهم ، وحنينهم لأيام هوانهم في مصر، وكيف أنهم يتبطرون علىٰ خير الطعام وأكرمه ، ويريدون بدله أدنى الطعام وأسوأه .

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ علىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الذي هُوَ أَدْنَىٰ بِالذي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾





رفضهم دخول الأرض المقدسة

سار موسى عليه السلام بقومه في اتجاه البيت المقدس ، أمر موسى عليه السلام قومه بدخولها وقتال من فيها والاستيلاء عليها ، وها قد جاء امتحانهم الأخير ، بعد كل ما وقع لهم من المعجزات والآيات والخوارق ، جاء دورهم ليحاربوا - بوصفهم مؤمنين - قومًا من عبدة الأصنام .

رفض قوم موسى دخول الأراضي المقدسة ، وحدثهم موسى عن نعمة الله عليهم ، كيف جعل فيهم أنبياء ، وجعلهم ملوكا يرثون ملك فرعون :

﴿ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾

وكان رد قومه عليه أنهم يخافون من القتال ، قالوا : إن فيها قومًا جبارين، ولن يدخلوا الأرض المقدسة حتى يخرج منها هؤلاء :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴾

وانضم لموسى وهارون عليهما السلام اثنان من القوم فقط لا غير ، تقول كتب القدماء : إنهم خرجوا في ستمائة ألف ، لم يجد موسى من بينهم غير رجلين على استعداد للقتال ، وراح هذان الرجلان يحاولان إقناع القوم بدخول الأرض والقتال ، قالا لقومهم : إن مجرد دخولهم من الباب سيجعل لهم النصر :

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

ولكن بني إسرائيل جميعًا كانوا يتدثرون بالجبن ويرتعشون في أعماقهم .

مرة أخرى تعاودهم طبيعتهم التي عاودتهم قبل ذلك حين رأوا قوما يعكفون على أصنامهم ، فسدت فطرتهم، وانهزموا من الداخل، واعتادوا الذل، فلم يعد في استطاعتهم أن يحاربوا ، وإن بقي في استطاعتهم أن يتوقحوا على نبي الله موسى وربه وقال قوم موسى له كلمتهم الشهيرة : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ! !

هكذا بصراحة وبلا التواء !!

أدرك موسى أن قومه ما عادوا يصلحون لشيء ، نعم مات فرعون ولكن آثاره في النفوس باقية يحتاج شفاؤها لفترة طويلة ، عاد موسى إلىٰ ربه يحدثه أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه ، ودعا موسى علىٰ قومه أن يَفرُق الله بينه وبينهم .

وقضى الله ﷻ حكمه علىٰ هذا الجيل الذي فسدت فطرته من بني إسرائيل ، كان الحكم هو التيه أربعين عامًا ، حتى يموت هذا الجيل أو يصل إلىٰ الشيخوخة ، ويولد بدلا منه جيل آخر ، جيل لم يهزمه أحد من الداخل ، ويستطيع ساعتها أن يقاتل وأن ينتصر ، قال الله ﷻ :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

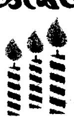
بدأت أيام التيه ، بدأ السير في دائرة مغلقة ، تنتهي من حيث تبدأ ، وتبدأ من حيث تنتهي، بدأ السير إلىٰ غير مقصد ، ليلا ونهارًا وصباحًا ومساءً ، دخلوا البرية وتاهوا كما تاهت عقولهم وقلوبهم فتخبطت بين الحق و الباطل ، وكما تاهت قوتهم فلم يصمدوا لحق أبدًا ، قضى الله عليهم بالتيه .

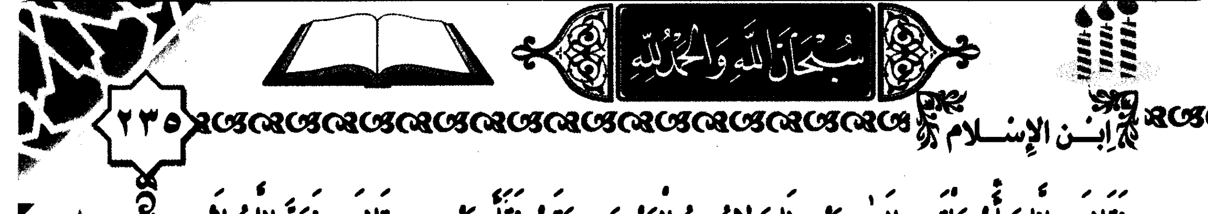
وهنا تنتهي قصة سيدنا موسى عليه السلام مع بني إسرائيل في القرآن ، ولا ندري حقًا هل مات موسى في التيه ، أم انه دخل الأرض المقدسة مع أخيه والرجلين ، الله أعلم بما كان ، إلا أننا نشهد أن سيدنا موسى عليه السلام حقًا من أولي العزم من الرسل ، صبر وجاهد وأدى ما عليه حتى مات ، ألا على موسى صلوات الله وسلامه .

وفاة موسى عليه السلام

قال رَسُول الله ﷺ : « جَاءَ مَلَكُ الْمَوْت إِلىٰ مُوسَى عليه السلام ، فَقَالَ لَهُ أَجِبْ رَبَّكَ ، قَالَ : فَلَطَمَ مُوسَى عليه السلام عَيْنَ مَلَكِ الْمَوْتِ ، فَفَقَأَهَا ، قَالَ : فَرَجَعَ الْمَلَكُ إِلىٰ الله تَعَالى،







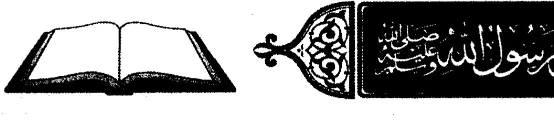
فَقَالَ : إِنَّكَ أَرْسَلْتَنِي إِلَىٰ عَبْدٍ لَكَ لا يُرِيدُ الْمَوْتَ ، وَقَدْ فَقَأَ عَيْنِي ، قَالَ : فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ عَيْنَهُ ، وَقَالَ : ارْجِعْ إِلَىٰ عَبْدِي فَقُلْ : الْحَيَاةَ تُرِيدُ ؟ فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ فَضَعْ يَدَكَ عَلَىٰ مَتْنِ ثَوْرٍ ، فَمَا تَوَارَتْ يَدُكَ مِنْ شَعْرَةٍ فَإِنَّكَ تَعِيشُ بِهَا سَنَةً ، قَالَ : ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ ثُمَّ تَمُوتُ ، قَالَ : فَالآنَ مِنْ قَرِيبٍ ، رَبِّ أَمِتْنِي مِنْ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : وَاللَّهِ لَوْ أَنِّي عِنْدَهُ لأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَىٰ جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْكَثِيبِ الأَحْمَرِ » .

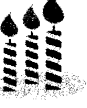
(صحيح البخاري : ١٢٥٣)

وهذا الحديث دليل على أن سيدنا موسى عليه السلام لم يدخل الأرض المقدسة ، لا هو ولا قومه ، بل طلب إكرام الله له أن يموت قريبًا منها فحسب ، فاستجاب الله دعاءه ، وهكذا فرق الله بين نبيه الكليم الطيب موسى عليه السلام وبين قومه الخبثاء المعاندين .

ألا سلام الله على موسى في الأولين والآخرين . .













من فوائد القصة

(١) الرحلة في طلب العلم سمة الصادقين من طلبته ، وهي نوع جهاد في سبيل الله ، وكلما رحل الطالب إلىٰ العلماء أكثر ، كانت استفادته أعظم ، ومن ذل للعلم سهُل له طلبه .

(٢) من أهم سمات طالب العلم التواضع لمعلمه ؛ لينال بركة علمه ، ويحصل علىٰ حبه وقربه .

(٣) قد ينسى الإنسان أشياء ذات أهمية ، والنسيان من الشيطان ، فهو عدوك الذي لا يريد الخير لك .



(٤) حكمة الله في كثير من الأمور قد تخفى علىٰ أعلم الناس وأقربهم إِلَىٰ الله .

(٥) يحفظ الولد بصلاح والده .



(٦) قبول عذر من اعتذر ، والعفو عمن طلب العفو ، لكن لا ينبغي أن يفتح ذلك الباب علىٰ مصراعية ، فكل شيء بقدر .

(٧) لا يعلم أقدار خلق الله إلا الله ، فكم من عبد حبيب إِلَىٰ الله قريب من الله لا يعلمه كثير من الناس ، ولا يضره ذلك .



(٨) ليس لطلب العلم نهاية ينتهي إليها ، بل طلب العلم إِلَىٰ الممات ، كما قال الإمام أحمد : مع المحبرة إِلَىٰ المقبرة .

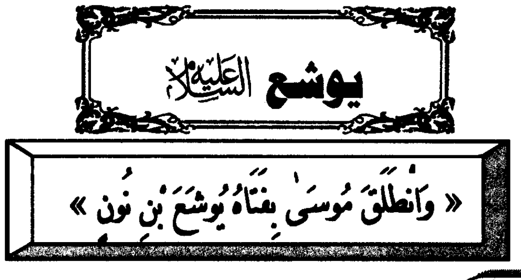




(٩) قد تأتي الرحمة في ثوب مصيبة ، وقد تأتي المنحة في ثوب محنة .







« وَانطَلَقَ مُوسَىٰ بِفَتَاهُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ »

من هو يوشع عليه السلام ؟

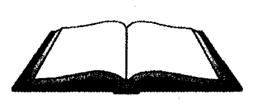
ورد أنه الفتى الذي صاحب موسى للقاء الخضر ، وهو النبي الذي أخرج الله على يديه بني إسرائيل من صحراء سيناء ، وحاربوا أهل قرية الجبارين الذين رفض قوم موسى الدخول عليهم ، فكتب الله سبحانه وتعالى عليهم التيه ، وحرمها عليهم أربعين سنة .

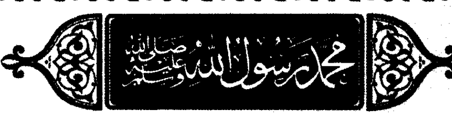
لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى ، سوى اثنين : هما الرجلان اللذان أشارا على ملأ بني إسرائيل بدخول قرية الجبارين ، ويقول المفسرون : إن أحدهما يوشع بن نون ، وهذا هو فتى موسى في قصته مع الخضر ، صار الآن نبيًّا من أنبياء بني إسرائيل ، وقائدًا لجيش يتجه نحو الأرض التي أمرهم الله بدخولها .

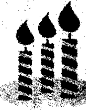
وكان الله قد أمر موسى أن يجند بني إسرائيل وأن يجعل عليهم نقباء ، كما قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

وهكذا نرى العهد مشروطًا بميثاق أخذه الله عليهم ، أن يقاتلوا ولا يفروا ، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويؤمنوا برسله كلهم ، ابتداء من موسى عليه السلام الذي أنزل الله عليه التوراة، وانتهاء بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي بشر الله به في التوراة ، حين كانت هي توراة الله الحقة التي لم تمتد إليها أيدي التبديل والتحريف .





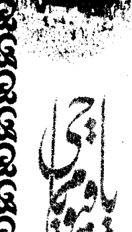


ولكن كعهد اليهود دائمًا . . خونة ، وأصحاب مصالح ، لا يوفون بعهد الله أبدًا ، فقد أنكروا ، وغيروا ، ورفضوا الوفاء بالعهد ، وكذبوا الأنبياء وهم يعلمون ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿الذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة : ١٤٦] .



الخروج من التيه ودخول الأرض المقدسة

خرج يوشع بن نون عليه السلام ببني إسرائيل من التيه ، وقصد بهم الأرض المقدسة ، قطع بهم نهر الأردن إلىٰ أريحا ، وكانت من أحصن المدائن سورًا وأعلاها قصورًا وأكثرها أهلا. فحاصرها ستة أشهر ، ولما خرج عليه السلام إلىٰ الأرض المقدسة اشترط علىٰ من يتبعه شروطًا ، قال رسول الله ﷺ : « غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاء فَقَالَ لِقَوْمِه: لا يَتْبَعْنِي رَجُل قَدْ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَة وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ وَلَا آخَرُ قَدْ بَنَى بُنْيَانًا وَلَمَّا يَرْفَعْ سُقُفَهَا وَلا آخَرُ قَدْ اشْتَرَىٰ غَنَمًا أَوْ خَلِفَات وَهُوَ مُنْتَظِرٌ وِلادَهَا » (صحيح البخاري : ٢٩٥٦) .



وهكذا سنَّ هذا النبي القائد للإخلاص شروطًا ، وللثبات شروطًا ، أهمها ألا يتعلق القلب بشيء خارج نطاق المعركة التي يخوضها الإنسان ، لا زوجة ، ولا بيوت ، ولا أموال، ولا أملاك ، هذا أحرى للإنسان ألا يلتفت أثناء المواجهة .



أما من تعلق قلبه بشيء ، يكون حريصًا بالرجوع إليه ، والعودة مرة أخرى للفرح به ، فإنه يكون مهزوزًا مرتبكًا حريصًا ألا تضيع منه مصلحته .

وهكذا انطلق هذا النبي الصالح بجيشه ، بمجموعة من التابعين المخلصين الحريصين كل الحرص علىٰ دخول القرية ، لا العودة إلىٰ الأزواج والبيوت .

وتأتي المعركة الأخيرة التي بدأت في يوم الجمعة ، أوشك يوشع بن نون عليه السلام وجيشه علىٰ تحقيق الانتصار ، لكن الشمس قاربت علىٰ المغيب - وكان اليهود لا يعملون ولا يحاربون يوم السبت - فخشى يوشع بن نون أن يذهب النصر ، فنظر يوشع إلىٰ الشمس وقال : إنك مأمورة ، وأنا مأمور ، اللهم احبسها علي ، فتوقفت الشمس مكانها ، وظلت







واقفة إلى أن فتح بيت المقدس ودخله ، قال رسول الله ﷺ : « فغزا فأدنى للقرية حين صلاة العصر أو قريبًا من ذلك فقال للشمس : أنت مأمورة وأنا مأمور ؛ اللهم احبسها علي شيئًا فحبست عليه حتى فتح الله عليه » .

وأمر الله بني إسرائيل أن يدخلوا المدينة سُجَّدًا ، أي راكعين مطأطئي رءوسهم شاكرين لله عز وجل ما منَّ به عليهم من الفتح ، أمروا أن يقولوا حال دخولهم: ﴿حطة﴾ ، بمعنى حط عنا خطايانا التي سلفت ، وجنبنا الخطايا التي تقدمت من آبائنا .

من جرائم بني إسرائيل

وخالف بنو إسرائيل ما أمروا به قولا وفعلا ، دخلوا الباب متعالين متكبرين ، وبدلوا قولا غير الذي قيل لهم ، فأصابهم عذاب من الله بما ظلموا، كانت جريمة الآباء هي الذل، وأصبحت جريمة الأبناء الكبرياء والافتراء ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾

ولم تكن هذه الجريمة هي أول جرائم بني إسرائيل ولا آخر جرائمهم ، فقد عذبوا رسلهم كثيرًا بعد موسى عليه السلام ، وتحولت التوراة بين أيديهم إلى قراطيس يبدون بعضها ويخفون أكثرها ، وامتد هذا اللعب إلى العقيدة، وأخبر الله سبحانه عنهم بهذا فقال عز وجل:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾

وإذا كان الخطاب ينطبق على أحفاد بني إسرائيل الذين عاشوا في الجزيرة العربية ، فقد كان واضحًا من تاريخ بني إسرائيل ذاته ، أن التوراة لم تسلم من هذا العبث ، بإخفاء بعضها وإظهار البعض ، حسبما تقتضي الأحوال وتدفع المصلحة المباشرة ، وكان هذا الجحود هو المسؤول عما أصاب بني إسرائيل من عقوبات.

عاد بنو إسرائيل إلىٰ ظلمهم لأنفسهم ، اعتقدوا أنهم شعب الله المختار ، وتصوروا انطلاقًا من هذا الاعتقاد أن من حقهم ارتكاب أي شيء وكل شيء ، وعظمت فيهم الأخطاء وتكاثرت الخطايا وامتدت الجرائم بعد كتابهم إلىٰ أنبيائهم ، فقتلوا من قتلوا من الأنبياء، وقست قلوبهم حتى عمت، وتطاول عليهم الزمن فقالوا: قلوبنا غلف، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

تسليط الملوك الجبارين عليهم

فسلط الله عز وجل عليهم بعد رحمة الأنبياء قسوة الملوك الجبارين ، يظلمونهم ويسفكون دماءهم ، وسلط الله عز وجل أعداءهم عليهم ومكن لهم من رقابهم وأموالهم.

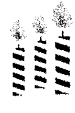
وكان معهم تابوت الميثاق ، وهو تابوت يضم بقية مما ترك موسى وهارون ، ويقال : إن هذا التابوت كان يضم ما بقي من ألواح التوراة التي أنزلت علىٰ موسى عليه السلام ونجت من يد الظالمين منهم والمفترين ، وكان لهذا التابوت بركة تمتد إلىٰ حياتهم وحروبهم ، فكان وجود التابوت بينهم في الحرب ، يمدهم بالسكينة والثبات ، ويدفعهم إلىٰ النصر ، فلما ظلموا أنفسهم ورفعت التوراة من قلوبهم لم يعد هناك معنى لبقاء نسختها معهم ، وهكذا ضاع منهم تابوت العهد ، وضاع في حرب من حروبهم التي هزموا فيها .

وهنا .. مات نبي الله يوشع بن نون ، ذلك القائد الفذ الرباني الذي استطاع بالإخلاص أن يقود بني إسرائيل إلى نصر كان عزيزًا أن يحققوه ..

مات حميدًا ، فصلاة الله وسلامه عليه وعلى آل يعقوب ..

وساءت أحوال بني إسرائيل بسبب ذنوبهم وتعنتهم وظلمهم لأنفسهم ، ومرت سنوات وسنوات ، واشتدت الحاجة إلىٰ ظهور نبي ينتشلهم من الوهدة السحيقة التي أوصلتهم إليها فواجع الآثام وكبائر الخطايا .

فكان النبي القادم داود عليه السلام ، ولكن كيف ؟!








من فوائد القصة

١- صدق النية سبيل النصرة على الأعداء ، وتثبيت الله للعبد .

٢- رحمة الله بأمة محمد ، حيث أحل لها الغنائم ولم يحلها لأحد قبلها قط ، وهذا من خصائص النبي ﷺ .

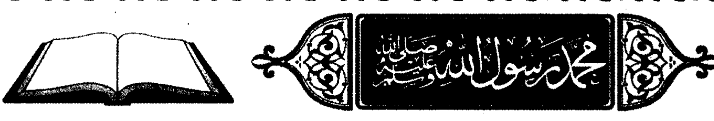
٣- مخالفة أمر الله تجلب التشديد والعنت على العبد .

٤- أخبرنا الله تعالى عن تحريف التوراة وكذلك الإنجيل ، ولم يسلم من التحريف إلا القرآن ؛ لأن الله سبحانه وتعالى حفظه من الزيادة أو التبديل : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة الحجر: ٩] .

٥- العجب والرضا عن النفس غرور وهلاك للعبد ، كما أن الانكسار والذل لله سبب لرحمة الله لعبده .

٦- التلون والمخادعة مع أوامر الله تجلب سخط الله وغضبه .







داود عليه السلام

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾

الملوك تسوس بني إسرائيل

بعد موت سيدنا يوشع عليه السلام كانت الملوك تسوس بني إسرائيل وكانت الأنبياء تهديهم. وزاد طغيان بني إسرائيل، فكانوا يقتلون الأنبياء، نبيًا تلو نبي، فسلط الله عليهم ملوكًا منهم، ظلمة جبارين، آذوهم وطغوا عليهم، وعاقبهم الله بذنوبهم وطغيانهم.



وتتالت الهزائم على بني إسرائيل، حتى إنهم أضاعوا التابوت، وكان في التابوت بقية مما ترك آل موسى وهارون، فقيل: إن فيها بقية من الألواح التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، وعصاه، وأمورًا أخرى، كان بنو إسرائيل يأخذون التابوت معهم في معاركهم لتحل عليهم السكينة ويحققوا النصر، فتشردوا بعد ضياع التابوت، وساءت حالهم.

ودار الزمان، وحكم بني إسرائيل ملك ظالم اسمه جالوت، ولما زاد ظلمه وكثر طغيانه، ويئس بنو إسرائيل من صلاحه، طلبوا من نبيهم أن يجعل لهم قائدًا ليقاتلوا الملك الظالم، ونحن لا نعرف اسم نبيهم هذا، أخفاه الله عنا، فلا نبحث عما أخفاه الله.



ذهب بنو إسرائيل يومًا إلى نبي لهم، سألوه: ألسنا مظلومين؟

قال: بلى..

قالوا: ألسنا مشردين؟

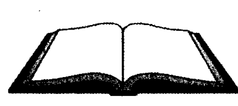
قال: بلى..

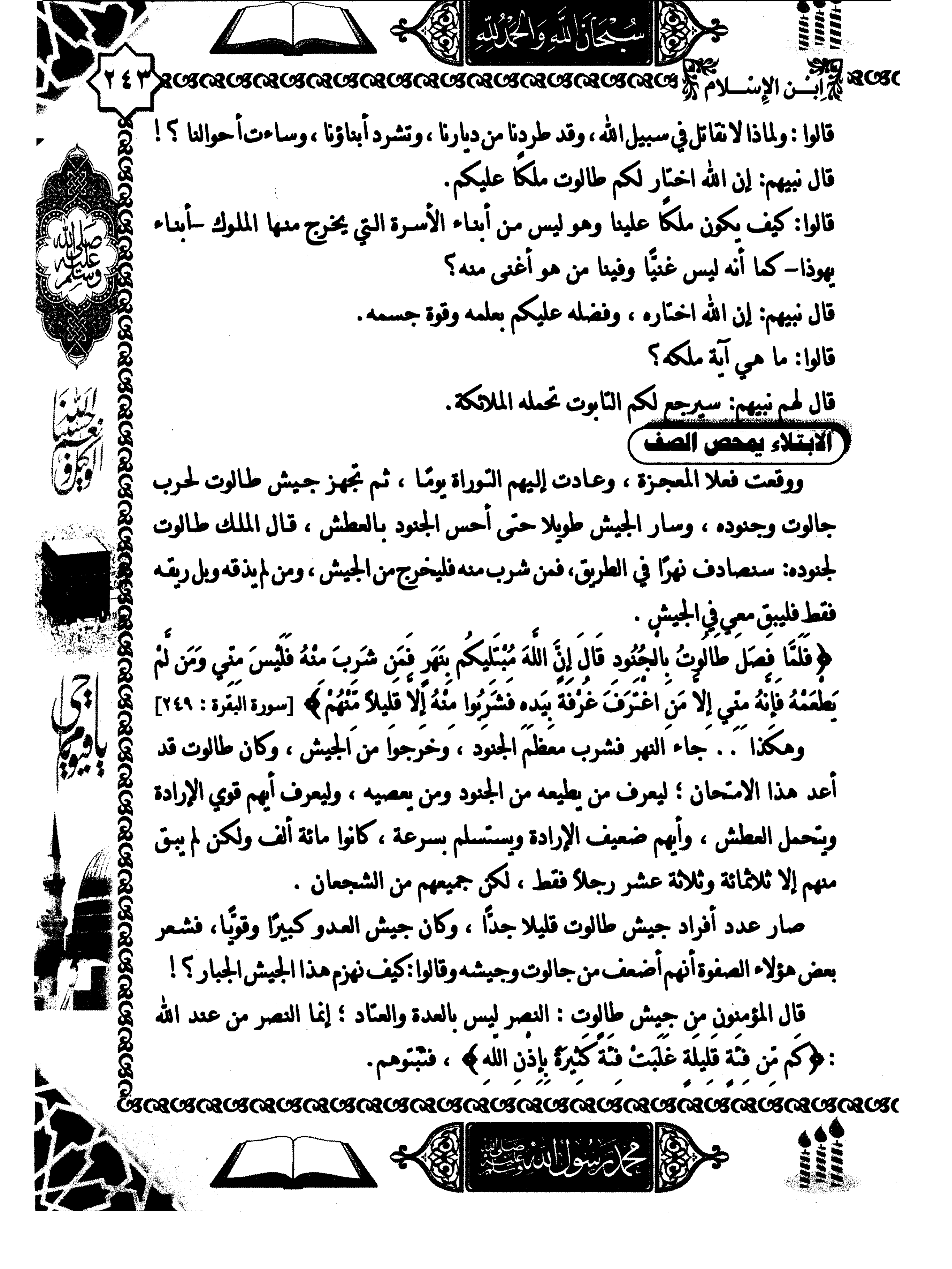


قالوا: ابعث لنا ملكًا يجمعنا تحت رايته كي نقاتل في سبيل الله ونستعيد أرضنا ومجدنا.

قال نبيهم وكان أعلم بهم: هل أنتم واثقون من القتال لو كتب عليكم القتال؟ أخشى إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا..







قالوا : ولماذا لا نقاتل في سبيل الله ، وقد طردنا من ديارنا ، وتشرد أبناؤنا ، وساءت أحوالنا ؟ !

قال نبيهم: إن الله اختار لكم طالوت ملكًا عليكم.

قالوا: كيف يكون ملكًا علينا وهو ليس من أبناء الأسرة التي يخرج منها الملوك -أبناء يهوذا- كما أنه ليس غنيًّا وفينا من هو أغنى منه؟

قال نبيهم: إن الله اختاره ، وفضله عليكم بعلمه وقوة جسمه.

قالوا: ما هي آية ملكه؟

قال لهم نبيهم: سيرجع لكم التابوت تحمله الملائكة.

الابتلاء يمحص الصف

ووقعت فعلا المعجزة ، وعادت إليهم التوراة يومًا ، ثم تجهز جيش طالوت لحرب جالوت وجنوده ، وسار الجيش طويلا حتى أحس الجنود بالعطش ، قال الملك طالوت لجنوده: سنصادف نهرًا في الطريق، فمن شرب منه فليخرج من الجيش ، ومن لم يذقه ويبل ريقه فقط فليبق معي في الجيش .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ [سورة البقرة : ٢٤٩]

وهكذا . . جاء النهر فشرب معظم الجنود ، وخرجوا من الجيش ، وكان طالوت قد أعد هذا الامتحان ؛ ليعرف من يطيعه من الجنود ومن يعصيه ، وليعرف أيهم قوي الإرادة ويتحمل العطش ، وأيهم ضعيف الإرادة ويستسلم بسرعة ، كانوا مائة ألف ولكن لم يبق منهم إلا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً فقط ، لكن جميعهم من الشجعان .

صار عدد أفراد جيش طالوت قليلا جدًّا ، وكان جيش العدو كبيرًا وقويًّا، فشعر بعض هؤلاء الصفوة أنهم أضعف من جالوت وجيشه وقالوا: كيف نهزم هذا الجيش الجبار ؟ !

قال المؤمنون من جيش طالوت : النصر ليس بالعدة والعتاد ؛ إنما النصر من عند الله : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ، فثبتوهم.

داود البطل الشجاع

وبرز جالوت الملك الظالم في دروعه الحديدية وسلاحه ، وهو يطلب أحدًا يبارزه ، وخاف منه جنود طالوت جميعًا ، وهنا برز من جيش طالوت راعي غنم صغير هو داود عليه السلام ، كان داود مؤمنًا بالله ، وكان يعلم أن الإيمان بالله هو القوة الحقيقية في هذا الكون ، وأن العبرة ليست بكثرة السلاح ، ولا ضخامة الجسم ومظهر الباطل .

وكان طالوت الملك الذي جعله الله قائدهم ، قد وعد : من يقتل جالوت يصير قائدًا على الجيش ويتزوج ابنته ، ولم يكن داود يهتم كثيرًا لهذا الإغراء ، كان يريد أن يقتل جالوت ؛ لأن جالوت رجل جبار وظالم ولا يؤمن بالله ، وسمح الملك لداود أن يبارز جالوت .



وتقدم داود بعصاه وخمسة أحجار ومقلاعه (وهو نبلة يستخدمها الرعاة) ، وتقدم جالوت المدجج بالسلاح والدروع ، وسخر من داود وأهانه وضحك منه ومن فقره وضعفه ، ووضع داود حجرًا قويًا في مقلاعه وطوح به في الهواء وأطلق الحجر ، فأصاب جالوت فقتله ، وكانت مفاجأة مذهلة للجيشين .



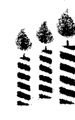
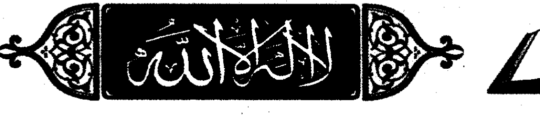
وبدأت المعركة وانتصر جيش طالوت على جيش جالوت ، بعد أن استغفر الجيش كله الله ، ودعوه سبحانه وتوسلوا إليه وذلوا له ؛ فنصرهم وقهر عدوهم ، قال الله سبحانه وتعالى:

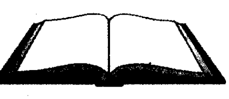
﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [سورة البقرة : ٢٥٠-٢٥١] .

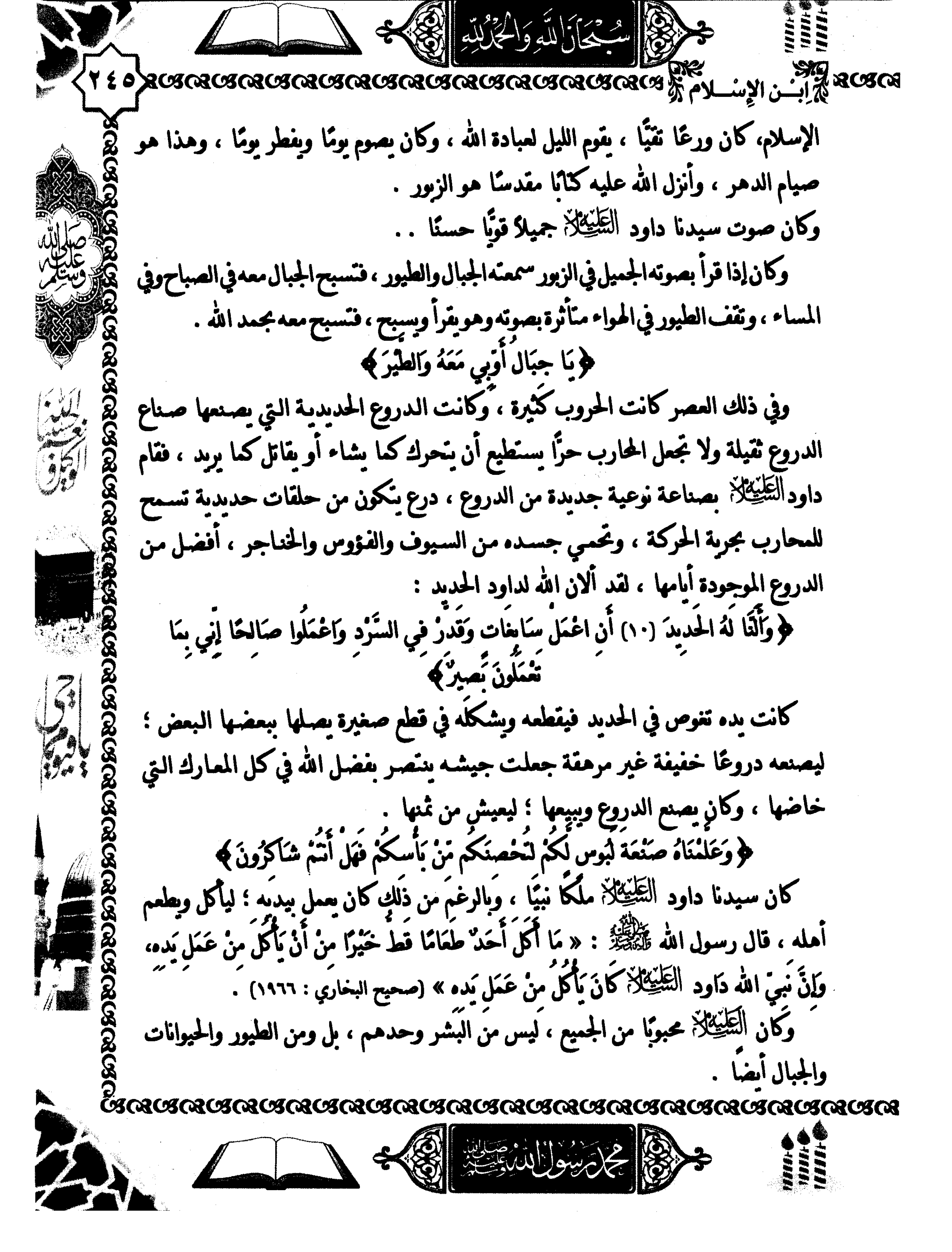
داود عليه السلام ملك لبني إسرائيل

بعد فترة أصبح داود عليه السلام ملكًا لبني إسرائيل ، فجمع الله على يديه النبوة والملك مرة أخرى .

كان داود عليه السلام قصير القامة ، أزرق العينين ، قليل الشعر ، له قلب طاهر نقي ، جمع الله له بين الملك والنبوة ، كان داود عليه السلام قويًا في عبادته لله ، فقيهًا في أمور





الإسلام، كان ورعًا تقيًا ، يقوم الليل لعبادة الله ، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا ، وهذا هو صيام الدهر ، وأنزل الله عليه كتابًا مقدسًا هو الزبور .

وكان صوت سيدنا داود عليه السلام جميلاً قويًا حسنًا . .

وكان إذا قرأ بصوته الجميل في الزبور سمعته الجبال والطيور ، فتسبح الجبال معه في الصباح وفي المساء ، وتقف الطيور في الهواء متأثرة بصوته وهو يقرأ ويسبح ، فتسبح معه بحمد الله .

﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾

وفي ذلك العصر كانت الحروب كثيرة ، وكانت الدروع الحديدية التي يصنعها صناع الدروع ثقيلة ولا تجعل المحارب حرًا يستطيع أن يتحرك كما يشاء أو يقاتل كما يريد ، فقام داود عليه السلام بصناعة نوعية جديدة من الدروع ، درع يتكون من حلقات حديدية تسمح للمحارب بحرية الحركة ، وتحمي جسده من السيوف والفؤوس والخناجر ، أفضل من الدروع الموجودة أيامها ، لقد ألان الله لداود الحديد :

﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

كانت يده تغوص في الحديد فيقطعه ويشكله في قطع صغيرة يصلها بعضها البعض ؛ ليصنعه دروعًا خفيفة غير مرهقة جعلت جيشه ينتصر بفضل الله في كل المعارك التي خاضها ، وكان يصنع الدروع ويبيعها ؛ ليعيش من ثمنها .

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾

كان سيدنا داود عليه السلام ملكًا نبيًا ، وبالرغم من ذلك كان يعمل بيديه ؛ ليأكل ويطعم أهله ، قال رسول الله ﷺ : « مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ » (صحيح البخاري : ١٩٦٦) .

وكان عليه السلام محبوبًا من الجميع ، ليس من البشر وحدهم ، بل ومن الطيور والحيوانات والجبال أيضًا .

وشد الله ملك داود ، جعله الله منصورًا علىٰ أعدائه دائمًا ، وجعل ملكه قويًا عظيمًا يخيف الأعداء حتى بغير حرب ، وزاد الله ﷻ من نعمه علىٰ داود عليه السلام فأعطاه الحكمة وفصل الخطاب ، أعطاه الله سبحانه وتعالى مع النبوة والملك حكمة وقدرة علىٰ تمييز الحق من الباطل ومعرفة الحق ومساندته ، فأصبح نبيًا ملكًا قاضيًا ، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾

في مجلس قضاء داود

كان سيدنا داود عليه السلام يجلس بين الناس ويحل لهم مشاكلهم ويفصل في قضاياهم . .

وذات يوم كان يجلس بجواره ابنه سليمان ، وكان صبيًا صغيرًا ، وجاءه رجل صاحب حقل ومعه رجل آخر .

وقال له صاحب الحقل : سيدي النبي ، إن غنم هذا الرجل نزلت حقلي أثناء الليل ، وأكلت كل عناقيد العنب التي كانت فيه ، وقد جئت إليك لتحكم لي بالتعويض .

قال داود عليه السلام لصاحب الغنم : هل صحيح أن غنمك أكلت حقل هذا الرجل ؟

قال صاحب الغنم : نعم يا سيدي .

قال داود: لقد حكمت بأن تعطيه غنمك بدلا من الحقل الذي أكلته .

قال سليمان ، وكان الله قد علمه حكمة تضاف إلىٰ ما ورث من والده : عندي حكم آخر يا أبي . .

قال داود عليه السلام : قله يا سليمان .

قال سليمان: أحكم بأن يأخذ صاحب الغنم حقل هذا الرجل الذي أكلته الغنم ، ويصلحه له ويزرعه حتى تنمو أشجار العنب وتعود كما كانت ، وأحكم لصاحب الحقل أن يأخذ الغنم ؛ ليستفيد من صوفها ولبنها ويأكل منه ، فإذا كبرت عناقيد العنب وعاد الحقل سليمًا كما كان أخذ صاحب الحقل حقله وأعطى صاحب الغنم غنمه .

قال داود: هذا حكم عظيم يا سليمان ، الحمد لله الذي وهبك الحكمة .

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

قضية أخرى فيها ابتلاء لداود عليه السلام

وذات مرة كان دواد عليه السلام جالسًا في محرابه يتعبد ويصلي ، وفوجئ برجلين يقفزان من سور المحراب ، وفزع داود عليه السلام منهما ، فطمأنه أحدهما وقال :

﴿ لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾

قال أحد الرجلين : لا تخف يا سيدي ، بيني وبين هذا الرجل خصومة وقد جئناك لتحكم بيننا بالحق .

سأل داود عليه السلام : ما القضية ؟!

قال الرجل الأول :

﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾

وقال داود عليه السلام بغير أن يسمع رأي الطرف الآخر وحجته : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾ ، وإن كثيرًا من الشركاء يظلم بعضهم بعضًا إلا الذين آمنوا ، فحكم بظلمَ الطرف الآخَرَ دون أن يسمع منه .

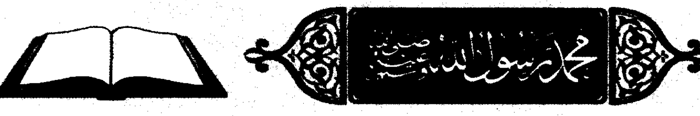
وفوجئ داود عليه السلام باختفاء الرجلين من أمامه ، اختفى الرجلان كما لو كانا سحابة تبخرت في الجو ، وأدرك داود عليه السلام أن الرجلين مَلَكان أرسلهما الله إليه ليعلماه درسًا ، فلا يحكم بين المتخاصمين من الناس إلا إذا سمع أقوالهم جميعًا ، فربما كان صاحب التسع والتسعين نعجة معه الحق ، وخر داود راكعًا ، وسجد لله ، واستغفر ربه .

﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾

داود الأواه الأواب

ومازال داود عليه السلام يستغفر الله عز وجل حتى غفر له وأثنى عليه في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾



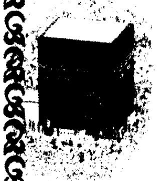


عاد داود عليه السلام يعبد الله عز وجل ويسبحه حتى مات ... كان داود يصوم يومًا ويفطر يومًا ، قال رسول الله ﷺ عن داود عليه السلام : « أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَىٰ اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ » (صحيح البخاري : ١٠٧٩) ، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا ، وكانَ يقرأُ الزبور بسبعين صوتًا ، وكانت له ركعة من الليل يُبْكي فيها نفسه ويبكي ببكائه كل شيء ويشفي بصوته المهموم والمحموم .



وفاة داود عليه السلام

كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة ، وكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل علىٰ أهله أحد حتى يرجع ، فخرج ذات يوم وغلقت الدار ، فأقبلت امرأته تطلع إِلَىٰ الدار فإذا رجل قائم وسط الدار ، فقالت لمن في البيت : من أين دخل هذا الرجل الدار والدار مغلقة ؟! والله لتفتضحن بداود ، فجاء داود عليه السلام فإذا الرجل قائم وسط الدار فقال له داود : من أنت ؟! قال : أنا الذي لا أهاب الملوك ولا يمنع مني شيء ، فقال داود : أنت والله ملك الموت ، فمرحبًا بأمر الله .



مات داود عليه السلام وعمره مائة سنة ، وشيَّع جنازته عشرات الآلاف ، فكان محبوبًا جدًا بين الناس ، حتى قيل : لم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كان بنو إسرائيل أشد جزعًا عليه ، منهم علىٰ داود عليه السلام .



وآذت الشمس الناس فدعا سليمان عليه السلام الطير وقال : أظلي علىٰ داود ، فأظلته حتى أظلمت عليه الأرض ، وسكنت الريح ، فقال سليمان للطير : أظلي الناس من ناحية الشمس وتنحي من ناحية الريح، وأطاعت الطير، فكان ذلك أول ما رآه الناس من ملك سليمان عليه السلام .



وهكذا عاش سيدنا داود ملكًا نبيًا رسولا موفقًا ، أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، ومات راضيًا مقبلا علىٰ ربه . .

ألا سلام الله وصلواته على داود وآله . .





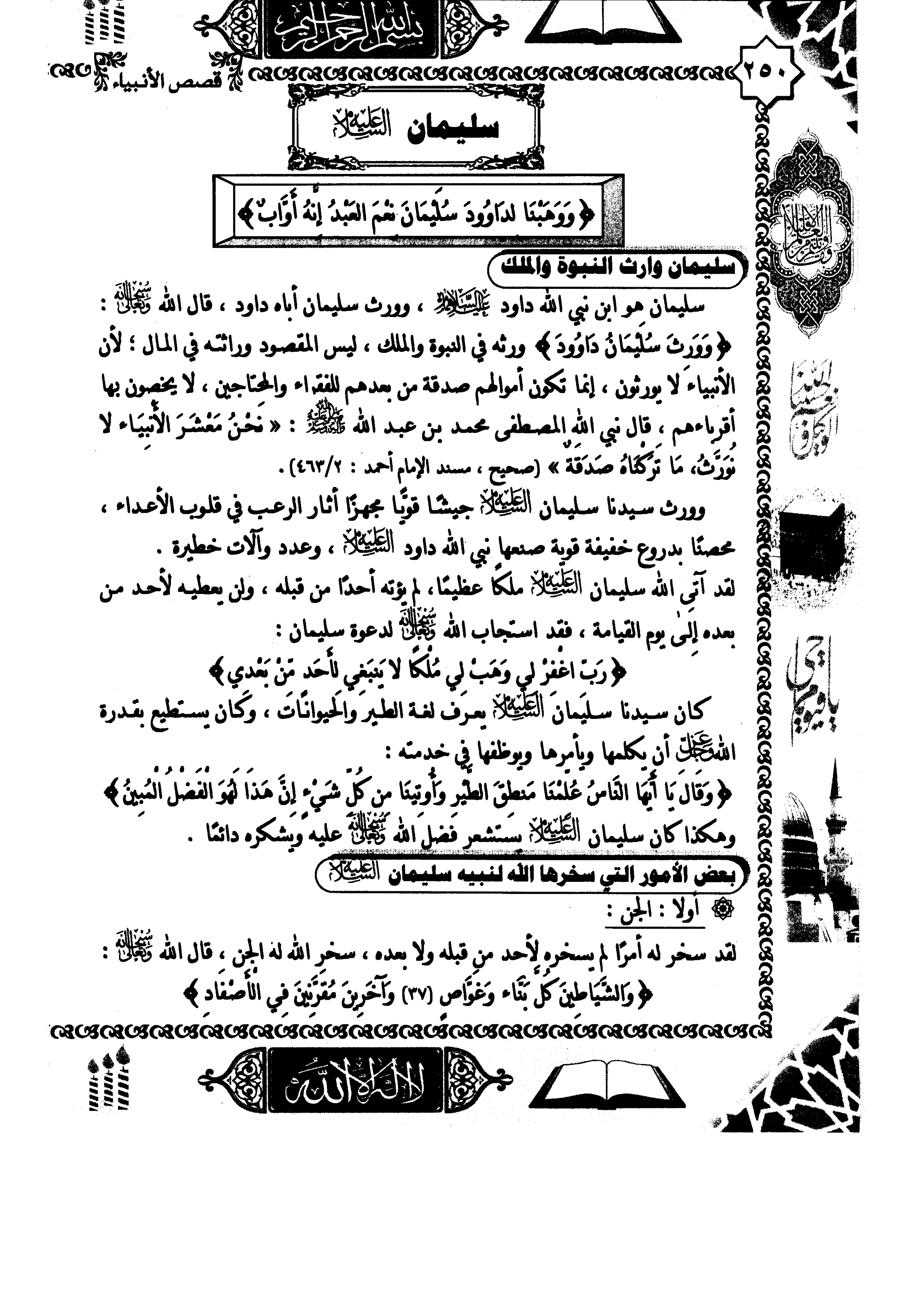




من فوائد القصة

١- الطغيان والبطر وعدم شكر النعمة عقوبته معجلة بتبديل النعمة إلى نقمة .
٢- الله يصطفي من خلقه من يشاء ، ومن عوامل الاصطفاء العلم والفقه .
٣- ليس النصر بالعدة والعتاد ، بل النصر من عند الله سبحانه وتعالى .
٤- أحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا .
٥- من أطاع الله أحبه الله وأحبه كل شيء .
٦- من أدب القضاء ألا تحكم في قضية حتى تسمع من الطرفين كليهما .
٧- إذا جاءك أحد الخصمين وقد فقئت عينه ، فاصبر حتى ترى الآخر ، فلعله يأتيك وقد فقئت عيناه .
٨- الحكمة ضالة المؤمن ، فأنى وجدها فهو أحق بها ، فاقبل الحق ممن جاءك به وإن كان بعيدًا بغيضًا ، ومن جاءك بالباطل فاردده عليه وإن كان حبيبًا قريبًا .
٩- اقبل الحق والنصح وإن كان ممن هو أصغر منك سنًا ، وإن كان من ولدك .



سليمان عليه السلام

﴿ ووَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾

سليمان وارث النبوة والملك

سليمان هو ابن نبي الله داود عليه السلام ، وورث سليمان أباه داود ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ ورثه في النبوة والملك ، ليس المقصود وراثته في المال ؛ لأن الأنبياء لا يورثون ، إنما تكون أموالهم صدقة من بعدهم للفقراء والمحتاجين ، لا يخصون بها أقرباءهم ، قال نبي الله المصطفى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم : « نَحْنُ مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ لا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ » (صحيح ، مسند الإمام أحمد : ٢/٤٦٣) .

وورث سيدنا سليمان عليه السلام جيشًا قويًا مجهزًا أثار الرعب في قلوب الأعداء ، محصنًا بدروع خفيفة قوية صنعها نبي الله داود عليه السلام ، وعدد وآلات خطيرة .

لقد آتى الله سليمان عليه السلام ملكًا عظيمًا، لم يؤته أحدًا من قبله ، ولن يعطيه لأحد من بعده إلى يوم القيامة ، فقد استجاب الله سبحانه وتعالى لدعوة سليمان :

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾

كان سيدنا سليمان عليه السلام يعرف لغة الطير والحيوانات ، وكان يستطيع بقدرة الله عز وجل أن يكلمها ويأمرها ويوظفها في خدمته :

﴿ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾

وهكذا كان سليمان عليه السلام يستشعر فضل الله سبحانه وتعالى عليه ويشكره دائمًا .

بعض الأمور التي سخرها الله لنبيه سليمان عليه السلام

أولا : الجن :

لقد سخر له أمرًا لم يسخره لأحد من قبله ولا بعده ، سخر الله له الجن ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴾

فكان لديه عليه السلام القدرة على حبس الجن الذين لا يطيعون أمره ، وتقييدهم بالسلاسل وتعذيبهم ، ويقول المولى عز وجل في موضع آخر :

﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾

فمن يعص سليمان عليه السلام يعذبه الله سبحانه وتعالى ، لذلك كانوا يستجيبون لأوامره ، فيبنون له القصور، والتماثيل – التي كانت مباحة في شرعهم – والأواني والقدور الضخمة جدًا ، فلا يمكن تحريكها من ضخامتها ، وكانت الشياطين تغوص له في أعماق البحار وتستخرج اللؤلؤ والمرجان والياقوت ، فكانوا يطيعون أمره ، ولا يستطيعون مخالفته .

۞ ثانيًا : الريح :

وسخر الله لسليمان عليه السلام أمرًا آخر ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾

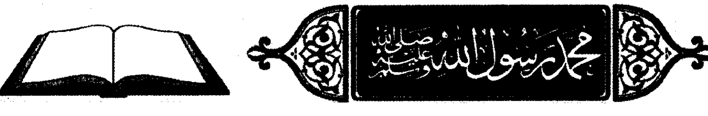
فكانت الريح تجري بأمر سليمان عليه السلام ، لذلك كان يستخدمها سليمان عليه السلام في الحرب ، فكان لديه بساطًا خشبيًا ضخمًا جدًا ، وكان يأمر الجيش بأن يركب على هذا الخشب ، ويأمر الريح بأن ترفع البساط وتنقلهم للمكان المطلوب ، فكان يصل في سرعة خارقة .

۞ ثالثًا : إسالة النحاس له :

ومن نعم الله عليه ، إسالة النحاس له ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾

والقطر هو النحاس المذاب ، مثلما أنعم على والده داود عليه السلام بأن ألان له الحديد ؛ ألان لسليمان عليه السلام النحاس ، وعلمه كيف يصهره ، وقد استفاد سليمان عليه السلام من النحاس المذاب فائدة عظيمة في الحرب والسلم .



❁ **رابعًا : الجيش :**

ومن هذه النعم جيش سليمان عليه السلام ، كان جيشه مكونًا من : البشر ، والجن ، والطيور ، فكان يعرف لغتها ، قال الله سبحانه وتعالى مخبرًا عنه عليه السلام :

﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾

كان سيدنا سليمان ملكًا قويًا ، أقوى ملوك الأرض بجيشه القوي ومعجزاته التي أكرمه الله سبحانه وتعالى بها ، وكان أكثر الناس ذكرًا لله ، وأكثرهم شكرًا على هذه النعم وهذه المعجزات ، وكان لا ينقطع عن الصلاة والصيام والتسبيح لله ، وقد أثنى الله سبحانه وتعالى عليه :

﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾

❁ **خامسًا : معرفة لغة الطير والحيوانات :**

قال الله سبحانه وتعالى :

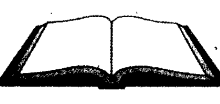
﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾

يقول العلماء : ما أعقلها من نملة وما أفصحها ، ﴿ يَا ﴾ : نادت ، ﴿ أَيُّهَا ﴾ : نبهت، ﴿ ادْخُلُوا ﴾ : أمرت ، ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ : نهت ، ﴿ سُلَيْمَانُ ﴾ : خصت ، ﴿ وَجُنُودُهُ ﴾ : عمت ، ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ : اعتذرت . .

سمع سليمان عليه السلام كلام النملة فتبسم ضاحكًا من قولها ، ما الذي تتصوره هذه النملة! رغم كل عظمته وجيشه فإنه رحيم بالنمل ، يسمع همسه وينظر دائمًا أمامه ولا يمكن أبدًا أن يدوسه ، وكان سليمان يشكر الله أن منحه هذه النعمة ، نعمة الرحمة ونعمة الحنو والشفقة والرفق.

وشكر سليمان ربه على هذه النعمة وقال :

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾





❁ سادسًا : آتاه الله العلم والحكمة :

قال رسول الله ﷺ : « كَانَتْ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا جَاءَ الذِّئْبُ ، فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا : إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ ، وَقَالَتْ الأُخْرَى : إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ ، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ عليه السلام ، فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى ، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عليهما السلام ، فَأَخْبَرَتَاهُ ، فَقَالَ ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا ، فَقَالَتْ الصُّغْرَى : لا تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللهُ هُوَ ابْنُهَا ، فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى » (صحيح البخاري : ٣١٧٣) .

الهدهد الغيور على العقيدة

في أحد الأيام تفقد سيدنا سليمان عليه السلام جيشه من الطير فلاحظ غياب الهدهد ، وكان يستخدمه في البحث عن الماء، فيدله على الأماكن التي يوجد بها ماء تحت الأرض، فيرسل سيدنا سليمان عليه السلام الشياطين ؛ ليحفروا هذه الأماكن لاستخراج الماء ، وفي هذا اليوم لم يكن الهدهد في موقعه الذي أمره سيدنا سليمان أن يبقى فيه .

سأل سيدنا سليمان عليه السلام : ﴿ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ ، وغضب غضبًا شديدًا وقال : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ .

وبسرعة لم يتأخر فعلا ، جاء الهدهد ووقف أمام سليمان عليه السلام قائلا :

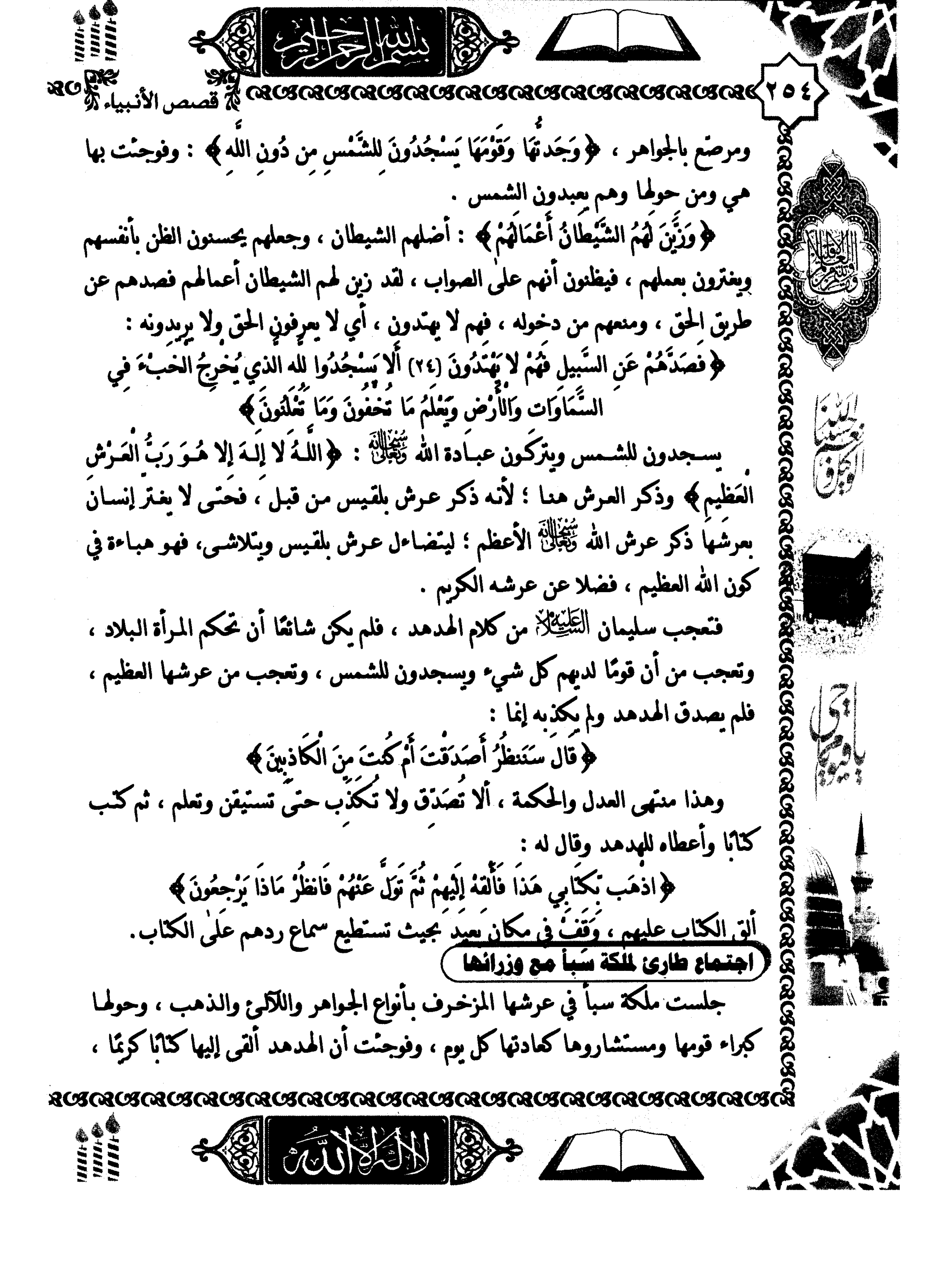
﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾

وانظروا كيف يخاطب هذا الهدهد أعظم ملك في الأرض ، بلا إحساس بالذل أو المهانة، ليس كما يفعل ملوك الظلم ، لا يتكلم معهم أحد إلا ويفرضون عليه أن تكون علامات الذل ظاهرة عليه . .

فقال الهدهد : جئت أحمل لك مفاجأة لم تعلمها ، فهي بعيدة عن عينيك لم ترها ، ولكنها خطيرة ، فقد جئت بأخبار أكيدة من مدينة سبأ باليمن، ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً ﴾ : بلقيس ، ﴿ تَمْلِكُهُمْ ﴾ : تحكمهم ، ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ : أعطاها الله قوة وملكا عظيمين وسخر لها أشياء كثيرة، ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ وكرسي الحكم ضخم جدًا





ومرصع بالجواهر ، ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ : وفوجئت بها هي ومن حولها وهم يعبدون الشمس .

﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ : أضلهم الشيطان ، وجعلهم يحسنون الظن بأنفسهم ويغترون بعملهم ، فيظنون أنهم على الصواب ، لقد زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن طريق الحق ، ومنعهم من دخوله ، فهم لا يهتدون ، أي لا يعرفون الحق ولا يريدونه :

﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾

يسجدون للشمس ويتركون عبادة الله سبحانه وتعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ وذكر العرش هنا ؛ لأنه ذكر عرش بلقيس من قبل ، فحتى لا يغتر إنسان بعرشها ذكر عرش الله سبحانه وتعالى الأعظم ؛ ليتضاءل عرش بلقيس ويتلاشى، فهو هباءة في كون الله العظيم ، فضلا عن عرشه الكريم .

فتعجب سليمان عليه السلام من كلام الهدهد ، فلم يكن شائعًا أن تحكم المرأة البلاد ، وتعجب من أن قومًا لديهم كل شيء ويسجدون للشمس ، وتعجب من عرشها العظيم ، فلم يصدق الهدهد ولم يكذبه إنما :

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

وهذا منتهى العدل والحكمة ، ألا تصدق ولا تكذب حتى تستيقن وتعلم ، ثم كتب كتابًا وأعطاه للهدهد وقال له :

﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾

ألق الكتاب عليهم ، وقف في مكان بعيد بحيث تستطيع سماع ردهم على الكتاب.

اجتماع طارئ لملكة سبأ مع وزرائها

جلست ملكة سبأ في عرشها المزخرف بأنواع الجواهر واللآلئ والذهب ، وحولها كبراء قومها ومستشاروها كعادتها كل يوم ، وفوجئت أن الهدهد ألقى إليها كتابًا كريمًا ،

فتحته واطلعت عليه ، ففوجئت بما فيه واضطربت ، فمدت يدها بالكتاب الذي ألقاه الهدهد أمامها :

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾

هذا هو نص خطاب الملك سليمان عليه السلام لملكة سبأ . .

إنه يأمرها في خطابه أن تأتيه ومن معها مسلمين ، هكذا مباشرة ، إنه يتجاوز أمر عبادتهم للشمس ، ولا يناقشهم في فساد عقيدتهم ، ولا يحاول إقناعهم بشيء الآن ، إنما يأمر فحسب ، أليس مؤيدًا بقوة تسند الحق الذي يؤمن به ؟ لا عليه إذن أن يأمرهم بالتسليم . . وفورًا .

كان هذا كله واضحًا من لهجة الخطاب القصيرة القوية المهذبة في نفس الوقت . .

طرحت الملكة على رؤساء قومها الرسالة ، وكانت عاقلة تشاورهم في جميع الأمور:

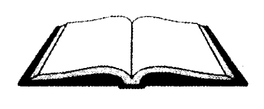
﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾

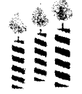
كان رد فعل الملأ وهم رؤساء قومها التحدي ، أثارت الرسالة بلهجتها القوية المهذبة غرور القوم ، وإحساسهم بالقوة ، أدركوا أن هناك من يتحداهم ويلوح لهم بالحرب والهزيمة ويطالبهم بقبول شروطه قبل وقوع الحرب والهزيمة .

﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾

اغتروا بقوتهم وظنوا أن الأمر تحدٍ للقوة والاستطاعة ، وظنوا أن هذا ما تسألهم عنه؛ فطمأنوها أن بأسهم شديد . .

أراد رؤساء قومها أن يقولوا : نحن على استعداد للحرب ، ومن العجب أن تجد المرأة تستشيرهم ، ولكنك تجد من تعود الخضوع والخنوع والذل والمهانة لا يستطيع أن يحكم رأيه، فإنهم في النهاية يقولون : ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ ، ﴿ مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ ، إنه والله العجب من هؤلاء الذين روضوا على الذل فلم يعودوا يأنفون منه بل يطلبونه .



ويبدو أن الملكة كانت أكثر حكمة من رؤساء قومها ، فإن رسالة سليمان أثارت تفكيرها أكثر مما استنفرتها للحرب.

فكرت الملكة طويلا في رسالة سليمان عليه السلام ، كان اسمه مجهولا لديها، لم تسمع به من قبل، وبالتالي كانت تجهل كل شيء عن قوته، ربما يكون قويًا إلىٰ الحد الذي يستطيع فيه غزو مملكتها وهزيمتها .

ونظرت الملكة حولها فرأت ضعف من حولها حتى آثروا الذل : ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ ﴾ ﴿ مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ ، ورأت كذلك تقدم شعبها وثراءه ، وخشيت علىٰ هذا الثراء والتقدم والترف الذي تعيش ويعيشون فيه من الغزو ، ورجحت الحكمة في نفسها علىٰ التهور، وقررت أن تلجأ إلىٰ اللين ، وترسل إليه بهدية ، فإن قبل الهدية فهو ملك يريد ثروات الدنيا ، وكأنها كانت تريد أن تمتحن سليمان وتسبر غوره وتعرف مراده .

وقدرت في نفسها أنه ربما يكون طامعًا قد سمع عن ثراء المملكة فطمع فيها ، فحدثت نفسها بأن تهادنه وتشتري السلام منه بهدية، قدرت في نفسها أيضًا أن إرسالها بهدية إليه، سيمكن رسلها الذين يحملون الهدية من دخول مملكته ، وسيكون رسلها عيونًا في مملكته ، يرجعون بأخبار قومه وجيشه ، وفي ضوء هذه المعلومات ، سيكون تقدير موقفها الحقيقي منه ممكنًا .

أخفت الملكة ما يدور في نفسها ، وحدثت رؤساء قومها بأنها ترى استكشاف نيات الملك سليمان ، عن طريق إرسال هدية إليه ، انتصرت الملكة للرأي الذي يقضي بالانتظار والترقب ، وأقنعت رؤساء قومها بنبذ فكرة الحرب مؤقتًا؛ لأن الملوك إذا دخلوا قرية انقلبت أوضاعها وصار رؤساؤها هم أكثر من فيها تعرضا للهوان والذل .

واقتنع رؤساء قومها حين لوحت الملكة بما يتهددهم من أخطار :

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾





ووصلت هدية الملكة بلقيس إلى الملك النبي سليمان عليه السلام ..

وصول الرسل بهدية لسليمان عليه السلام

جاءت الأخبار لسليمان عليه السلام بوصول رسل بلقيس وهم يحملون الهدية ، وأدرك سليمان عليه السلام على الفور أن الملكة أرسلت رجالها ؛ ليعرفوا معلومات عن قوته لتقرر موقفها بشأنه ، وهكذا لا يغلب الأذكياء الأنبياء .. كيف يحتال أصحاب العقول وإن كانت دواهي على أصحاب الوحي ومعهم العلم الإلهي ؟!!

ونادى سليمان عليه السلام في المملكة كلها أن يحتشد الجيش ، ودخل رسل بلقيس وسط غابة كثيفة مدججة بالسلاح ، فوجئ رسل بلقيس بأن كل غناهم وثرائهم يتبدد وسط بهاء مملكة سليمان ، وصغرت هديتهم في أعينهم ، حتى فكروا أن يرجعوا بها ويعتذروا عنها .

وفوجئوا بأن في الجيش أسودًا ونمورًا وطيورًا ، وأدركوا أنهم أمام جيش لا يقاوم .. ثم قدموا لسليمان هدية الملكة بلقيس على استحياء شديد ، وقالوا له : نحن نرفض الخضوع لك ، لكننا لا نريد القتال ، وهذه الهدية علامةٌ صلح بيننا وتتمنى أن تقبلها ، نظر سليمان إلى هدية الملكة وأشاح ببصره :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾

قال : أنتم تفرحون بالمال والهدايا ، فلا تظنوا أننا نفرح بذلك مثلكم ، إن ما أعطانا ربنا خير مما آتاكم ، وعندنا ما لم تره أعينكم قط .

كشف الملك سليمان عليه السلام بكلماته القصيرة عن رفضه لهديتهم ، وأفهمهم أنه لا يقبل شراء رضاه بالمال ، يستطيعون شراء رضاه بشيء آخر :

﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾

ثم هددهم :

﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

وصل رسل بلقيس إِلَىٰ سبأ ، وهناك هرعوا إِلَىٰ الملكة وحدثوها أن بلادهم في خطر، حدثوها عن قوة سليمان واستحالة صد جيشه ، أفهموها أنها ينبغي أن تزوره وترضاه ، وجهزت الملكة نفسها وبدأت رحلتها نحو مملكة سليمان عليه السلام . .

ولما علم سيدنا سليمان عليه السلام بقدومها عليه ، وأنها في الطريق إليه ، جلس سليمان في مجلس الملك وسط رؤساء قومه ووزرائه وقادة جنده وعلمائه ، كان يفكر في بلقيس ، يعرف أنها في الطريق إليه تسوقها الرهبة لا الرغبة ، ويدفعها الخوف لا الاقتناع ، ويقرر سليمان عليه السلام بينه وبين نفسه أن يبهرها بقوته ، لعل ذلك يدفعها للدخول في الإسلام .

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾

فعرش الملكة بلقيس هو أعجب ما في مملكتها ، وأحب ما لديها ، كان مصنوعًا من الذهب والجواهر الكريمة ، وكانت حجرة العرش وكرسي العرش آيتين في الصناعة والسبك، وكانت الحراسة لا تغفل عن العرش لحظة ، هنا :

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾

فقال أحد الجن : أنا أستطيع إحضار العرش قبل أن ينتهي مجلسك ، وكان عليه السلام يجلس من الفجر إِلَىٰ الظهر، وأنا قادر علىٰ حمله ، وأمين علىٰ جواهره .

إحضار العرش :

كانت المسافة بين مجلس سليمان عليه السلام في فلسطين وعرش ملكة سبأ في اليمن تقدر بآلاف الأميال، تعهد الجني أن يأتي بالعرش في ساعات معدودة قبل أن ينصرف سليمان عليه السلام عن مجلسه.

﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

لكن شخصًا آخر كان يستطيع أن يحضر عرش الملكة في وقت أقل ، قال رجل عنده علم من الكتاب لسليمان عليه السلام : أنا أستطيع إحضار العرش في الوقت الذي تستغرقه العين في الرمشة الواحدة ، وهذا بفضل علم الكتاب الذي يحمله .



ولم يكد سليمان عليه السلام ينتهي من كلماته حتى كان العرش ماثلا أمامه ، لقد أحضره بمعجزة خارقة من الله عز وجل . .

هذا هو العرش ماثل أمام سليمان عليه السلام ، تأمل تصرف سليمان بعد هذه المعجزة ، لم يستخفه الفرح بقدرته ، ولم يزهه الشعور بقوته ؛ وإنما أرجع الفضل لمالك الملك ، وشكر الله الذي يمتحنه بهذه القدرة ، ليرى أيشكر أم يكفر .

رأى سيدنا سليمان عرش الملكة مستقرًا أمامه فقال بمنتهى الذل لله والتواضع لعظمة الله وإخبات القلب للرب :

﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾

صلى الله وسلم على سليمان ، لم تغيره النعم ، ولم يطغه الملك ، ولم يستخفه الزهو والفرح بالانتصار ؛ وإنما زاده تواضعًا لله ؛ فزاده الله علوًّا .

تأمل سليمان عرش الملكة طويلا ثم أمر بتغييره ، أمر بإجراء بعض التعديلات عليه ؛ ليمتحن بلقيس حين تأتي ، ويرى هل تهتدي إلى عرشها أم تكون من الذين لا يهتدون ، وهذا أيضًا من أدب الأنبياء الجم ، فلم يقل : أم تكون غبية أو بليدة أو غير هذا من الكلمات ؛ ولكن قال :

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾

أمر سليمان عليه السلام ببناء قصر يستقبل فيه بلقيس ، واختار مكانًا رائعًا على البحر وأمر ببناء القصر بحيث يقع معظمه داخل مياه البحر ، وأمر أن تصنع أرضية القصر من زجاج شديد الصلابة ، وعظيم الشفافية في نفس الوقت ؛ لكي يسير السائر في أرض القصر ويتأمل تحته الأسماك الملونة وهي تسبح ، ويرى أعشاب البحر وهي تتحرك .

تم بناء القصر، ومن فرط نقاء الزجاج الذي صنعت منه أرض حجراته ، لم يكن يبدو أن هناك زجاجًا ، تلاشت أرضية القصر في البحر وصارت ستارًا زجاجيًا خفيًا فوقه.



وجاءت بلقيس مفتخرة متكبرة ، تظن أنها تستطيع أن تفتن سليمان أو تقنع سليمان ، أو تتلاعب أمام سليمان ، ولكنها وجدت أول ما وصلت مفاجأة لم تخطر قط ببالها ، ولم يحتملها عقلها ، بل أبلست وأصابها الذهول : دخلت أول ما دخلت فرأت عرشها !! وتفرك بلقيس عينيها ، وتحرك رأسها ويديها .. هل هو حقًا عرشها ؟! لا يمكن .. كيف جاء ؟!.. ومتى جاء ؟!.. ومن أتى به ؟!.. وقفت الملكة أمام عرشها ذاهلة تفكر كيف سبقها بالمجيء ، وقد تركته وراءها وعليه الحراس .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾

تصور الآية موقف الحوار بين سليمان وبلقيس ، نظرت بلقيس إلى عرشها فرأته عرشها تمامًا ، وليس عرشها تمامًا ، إذا كان عرشها فكيف سبقها في المجيء ؟! وإذا لم يكن عرشها فكيف أمكن تقليده بهذه الدقة ؟!

قال سليمان وهو يراها تتأمل العرش : ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ ؟!

قالت بلقيس بعد حيرة قصيرة : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ !!

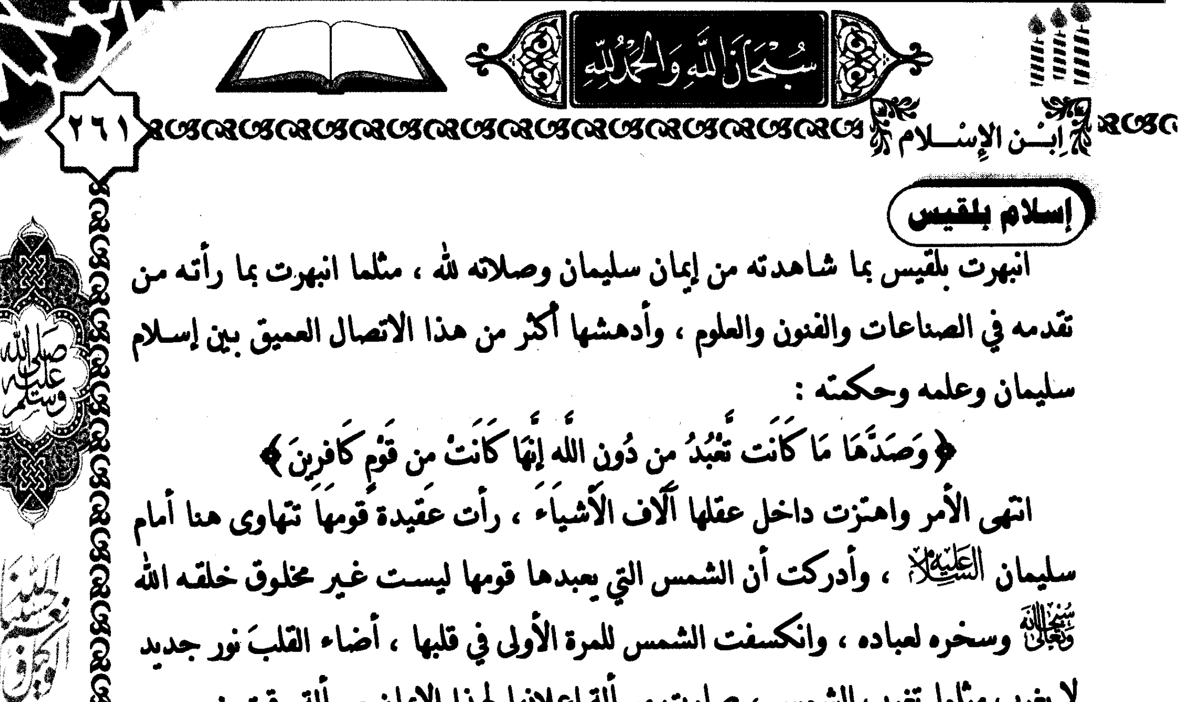
قال سليمان: ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ .

توحي عبارته الأخيرة إلى الملكة بلقيس أن تقارن بين عقيدتها وعلمها، وعقيدة سليمان عليه السلام المسلمة وحكمته ، إن عبادتها للشمس ، ومبلغ العلم الذي هم عليه ، يصابان بالخسوف الكلي أمام علم سليمان عليه السلام وإسلامه .

لقد سبقها سليمان عليه السلام إلى العلم بالإسلام ، بعدها صار من السهل عليه أن يسبقها في العلوم الأخرى ، هذا ما توحي به كلمة سليمان لبلقيس .

أدركت بلقيس أن هذا هو عرشها ، لقد سبقها إلى المجيء ، وأنكرت فيه أجزاء ، ولكن ما أذهل عقلها : كيف سبقها العرش بكل أجزائه وقطع الطريق بسرعة ، وهي لم تزل تقطع الطريق لسليمان ، أي قدرة يملكها هذا النبي الملك سليمان ؟!





إسلام بلقيس

انبهرت بلقيس بما شاهدته من إيمان سليمان وصلاته لله ، مثلما انبهرت بما رأته من تقدمه في الصناعات والفنون والعلوم ، وأدهشها أكثر من هذا الاتصال العميق بين إسلام سليمان وعلمه وحكمته :

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾

انتهى الأمر واهتزت داخل عقلها آلاف الأشياء ، رأت عقيدة قومها تتهاوى هنا أمام سليمان عليه السلام ، وأدركت أن الشمس التي يعبدها قومها ليست غير مخلوق خلقه الله سبحانه وتعالى وسخره لعباده ، وانكسفت الشمس للمرة الأولى في قلبها ، أضاء القلبَ نور جديد لا يغرب مثلما تغرب الشمس ، صارت مسألة إعلانها لهذا الإيمان مسألة وقت :

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

قيل لبلقيس : ادخلي القصر ، فلما نظرت لم تر الزجاج ، ورأت المياه ، وحسبت أنها ستخوض البحر :

﴿ وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾

حتى لا يبتل رداؤها ، فنبهها سليمان -دون أن ينظر- ألا تخاف على ثيابها من البلل ، ليست هناك مياه :

﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾

إنه زجاج ناعم لا يظهر من فرط نعومته ، ثم وقفت منبهرة أمام أرضية القصر البلورية الشفافة التي تسبح تحتها الأسماك ، اعترفت بلقيس بظلمها لنفسها وأسلمت ﴿ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وتابعها قومها على الإسلام .

أدركت أنها تواجه أعظم ملوك الأرض ، وأحد أنبياء الله الكرام ، وهكذا قادها الانبهار إلى تحطيم الغرور والاستسلام لله رب العالمين .



لا شيء أهم من الصلاة

كان سيدنا سليمان عليه السلام دائمًا يؤدي الصلاة في وقتها ، وكانت الصلاة دائمًا عنده أهم شيء ، ولا يشغله عنها شيء ، وكان سليمان عليه السلام يحب الخيل كثيرًا ، خصوصًا (الصافنات) ، وهي التي تقف علىٰ ثلاث قوائم وطرف حافر القائمة الرابعة ، وهي من علامات خفته ، وكريم أصله ، وحسن خلاله ، وهي من أجود أنواع الخيول وأسرعها ، وفي يوم من الأيام ، بدأ استعراض هذه الخيول أمام سليمان عصرًا ، فأخذ ينظر إليها ويتأمل فيها، فطال الاستعراض ، فشغله عن الصلاة حتى غابت الشمس ، فانتبه ، وأنب نفسه ؛ لأن حبه لهذه الخيول شغله عن ذكر ربه حتى غابت الشمس ، فأمر بإرجاع الخيول له ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ ، أخذ يمسح عليها ويستغفر الله عز وجل ، فكان يمسحها ليرى السقيم منها من الصحيح ؛ لأنه كان يعدها للجهاد في سبيل الله .

ورغم كل هذه النعم العظيمة والمنح الخاصة ، فقد فُتِنَ سليمان عليه السلام ، اختبره الله سبحانه وتعالى وامتحنه، والفتنة امتحان دائم ، وكلما كان العبد عظيمًا كان امتحانه عظيمًا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءُ » (صحيح ، سبق تخريجه)، فتن الله سبحانه وتعالى سليمان بالمرض ، وقال الله عز وجل في ذلك :


﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾

وحقيقة هذه الفتنة أن سليمان ابتلي بمرض شديد حار فيه الطب، مرض سليمان عليه السلام مرضًا شديدًا حار فيه أطباء الإنس والجن ، وأحضرت له الطيور أعشابًا طبية من أطراف الأرض فلم يشف ، وكل يوم كان المرض يزيد عليه حتى أصبح سليمان إذا جلس علىٰ كرسيه كأنه جسد بلا روح ، كأنه ميت من كثرة الإعياء والمرض ، واستمر هذا المرض فترة كان سليمان عليه السلام فيها لا يتوقف عن ذكر الله وطلب الشفاء منه واستغفاره وحبه، وانتهى امتحان الله سبحانه وتعالى لعبده سليمان عليه السلام ، وشفي سليمان،

عادت إليه صحته بعد أن عرف أن كل مجده وكل ملكه وكل عظمته لا تستطيع أن تحمل إليه الشفاء إلا إذا أراد الله سبحانه وتعالى ، هذا هو الرأي الذي نرتاح إليه ، ونراه لائقًا بعصمة نبي حكيم وكريم كسليمان عليه السلام . .

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾

حوله المرض إلىٰ شيء كالجسد ، ولفظ الجسد في اللغة يطلق علىٰ ما فارقته الحياة أو الصحة ، لقد تحول سليمان عليه السلام إلىٰ جسد من فرط المرض ، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ ثم رجع إلىٰ الصحة ، استجار برحمة الله سبحانه وتعالى فشفاه الله ورحمه .

عاش سليمان عليه السلام وسط مجد دانت له فيه الأرض ، ثم قدر الله سبحانه وتعالى عليه الموت فمات ، ومثلما كانت حياة سليمان عليه السلام قمة في المجد الذي يمتلئ بالعجائب والخوارق، كان موته آية من آيات الله عز وجل تمتلئ بالعجائب والخوارق ، وهكذا جاء موته منسجمًا مع حياته ، متسقًا مع مجده ، جاء نهاية فريدة لحياة فريدة وحافلة ، قال الله سبحانه وتعالى عن موت سليمان عليه السلام :

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾

لقد قدر الله سبحانه وتعالى أن يكون موت سليمان عليه السلام بشكل ينفي تمامًا فكرة معرفة الجن للغيب ، تلك الفكرة التي فتن الناس بها فاستقرت في أذهان بعض البشر والجن .

كان الجن يعملون لسليمان عليه السلام طالما هو حيٌّ ، فلما مات انتهى تسخيرهم له ، وأعفوا من تبعَة العمل معه ، وقد مات سليمان عليه السلام دون أن يعلم الجن ، فظلوا يعملون له ، وظلوا مسخرين لخدمته ، ولو أنهم كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين .

كان سليمان متكئًا علىٰ عصاه يراقب الجن وهم يعملون ، فمات وهو علىٰ وضعه متكئًا علىٰ العصا ، ورآه الجن فظنوا أنه يصلي واستمروا في عملهم ، ومرت أيام طويلة ،

ثم جاءت دابة الأرض ، وهي نملة تأكل الخشب ، وبدأت تأكل عصا سليمان عليه السلام ، كانت جائعة فأكلت جزءًا من العصا ، استمرت النملة تأكل العصا أيامًا ، كانت تأكل الجزء الملامس للأرض فلما ازداد ما أكلته منها اختلت العصا وسقطت من يد سليمان عليه السلام ، اختل بعدها توازن الجسد العظيم فهوى إِلَىٰ الأرض ، ارتطم الجسد العظيم بالأرض فهرع الناس إليه .

أدركوا أنه مات من زمن ، تبين الجن أنهم لا يعلمون الغيب ، وعرف الناس هذه الحقيقة أيضًا ، لو كان الجن يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ، ما لبثوا يعملون وهم يظنون أن سليمان عليه السلام حي ، بينما هو ميت منذ فترة .

بهذه النهاية العجيبة ختم الله سبحانه وتعالى حياة هذا النبي الملك سليمان عليه السلام .













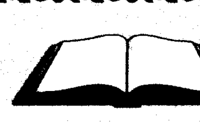




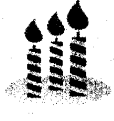
من فوائد القصة

١. خير ميراث يرثه الولد من والده العلم والفقه .
٢. لما غار سليمان عليه السلام لله ، من الخيل التي شغلته عن صلاة العصر ، وآثر الله على هواه ؛ أعطاه الله ما هو أسرع وأقوى من الخيل وهو الريح ، ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه .
٣. إذا أنعم الله على عبده بنعمة فلابد من شكرها ، فالشكر يزيد النعم .
٤. الشورى في الأمر تجعل القرار سديدًا صائبًا، والله سبحانه وتعالى قال لخير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [سورة آل عمران : ١٥٩] .
٥. الهدية تجلب المحبة وتذهب وحر الصدر وتسكن الغضب .
٦. الملوك إذا تمكنوا من بلد أفسدوا فيها وجعلوا ملوكها أذل الناس .
٧. أعطى الله الجن قدرات في سرعة الانتقال والتشكل وغير ذلك ، لكنهم لا يعلمون شيئًا من الغيب ، ولا يملكون نفعًا ولا ضرًا .
٨. فتنة التزيين من أخطر الفتن التي تضيع الدين ، فاحذر من العجب والغرور ، أن يزين الشيطان لك الباطل فتظنه حقًا ، وتنسى الحق وتبتعد عنه – اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .
٩. استنكر الهدهد بفطرته السليمة عبادة الشمس ، ولكنه استدل على توحيد الله بعلمه : ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [سورة النمل : ٢٥] ؛ لأنه يمد منقاره فيستخرج ما في باطن









الأرض من رزقه وطعامه ، ويعلم أن هذه مهارة لم يؤتها كثير من الطيور غيره ؛ فاستدل أن الله العظيم يعلم بواطن الامور ، ويخرج الخبايا في السماوات والأرض .

استفد من ذلك – يا ابن الإسلام – أن ترفع لله راية في مجالك ، فإن كنت طبيبًا فاخدم الدين بالطب ، واستدل بالطب على التوحيد ، وزيادة الإيمان ، وكثرة العبادة ، وكذلك المهندس ، والتاجر ، والمزارع ، والمدرس ، ﴿ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلا ﴾ [سورة الإسراء : ٨٤] ، ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [سورة طه : ١١٤] .

﴿١٠﴾ قبول الحق ممن جاء به ، وإقراره مهما كان قائله ، فقد أثبت الله قول بلقيس ملكة سبأ : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ ، وأقرها سبحانه وتعالى عليه فقال – جل من قائل : ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ .

﴿١١﴾ إذا عرفت مقدار نعمة الله عليك لم يستطع أحد أن يتطاول عليك : ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ .

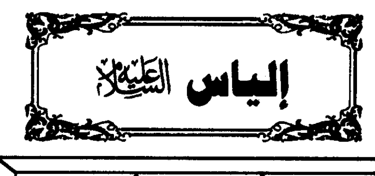
﴿١٢﴾ لابد من معاملة الناس كل على قدره ، ودعوته بطريقته التي يفهمها ، انظر كيف أدى انبهار بلقيس بالعرش والصرح إلى إسلامها ، هكذا فاعمل . .

ارفع للإسلام بمهنتك راية . .









إلياس عليه السلام

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

إلى من أرسل ؟

أرسل الله تعالى نبيه إلياس إِلَىٰ أهل مدينة بعلبك غربي دمشق ، وكان أهل مدينة بعلبك يعبدون من دون الله صنمًا اسمه بعل .

قال لهم النبي إلياس عليه السلام : ﴿ أَلا تَتَّقُونَ ﴾

واستنكر عبادتهم للصنم فقال :

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهَ ﴾ ؟ !

كيف تعبدون هذا الصنم الذي لا يتكلم ولا يسمع الدعاء ؟ ! وتتركون الخالق العظيم الذي أحسن كل شيء خلقه .. إنه استنكار شديد ، كيف تتركون الله ، وتقبلون علىٰ بعل ؟ ! الصنم الجاهل الذي لم يخلق ولا يملك ؟ !

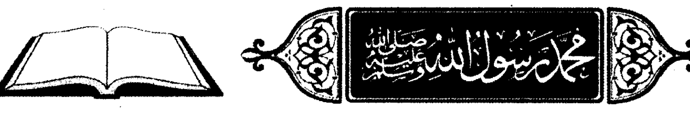
ثم دعاهم إِلَىٰ عبادة الله عز وجل :

﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾

قبل أن يتعللوا بمعبودات الآباء وآلهة الأجداد ، أفحمهم بأن الله رب العالمين هو سبحانه ربهم ورب آبائهم الأولين ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

ولكن قوم إلياس كذبوه ، ورفضوا أن يتركوا عبادة الأصنام .

وعندما رأوا إصرار سيدنا إلياس عليه السلام علىٰ الدعوة إِلَىٰ الله عز وجل حاولوا أن يقتلوه، فهرب منهم واختفى في كهف بالجبل ، ويقال : إن الغربان كانت تحمل إليه طعامه حتى لا يموت جوعًا .



توعد الله عز وجل قوم إلياس عليه السلام بالعذاب في الدنيا والآخرة ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ ، واستثنى منهم من آمن مع إلياس عليه السلام فقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِلا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

ومدح الله نبيه إلياس عليه السلام في قوله الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

لقد أعد الله سبحانه وتعالى له ثوابًا في الدنيا وهو أن الناس ستذكره دائمًا بالخير وهم يقرؤون القرآن، أما في الآخرة فهو في أعلى مكانة مع الرسل والأنبياء .



١- ينبغي أن يغار المؤمن حقًا عندما يرى الناس يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ، ويتركون عبادة الله الذي خلقهم ويرزقهم وحده .

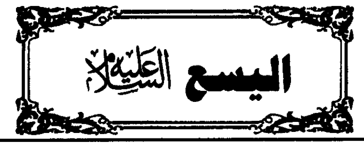
٢- كثيرًا ما يعارض الدعاة بالصد والتكذيب ، لكن الله يحفظهم من أعدائهم ، ويدبر لهم أمرهم .

٣- أعدَّ الله لعباده الصالحين في الآخرة ثوابًا يزيل عنهم نصب الدنيا وتعبها .









اليسع عليه السلام

﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾

هو نبي من أنبياء الله ﷻ ، آتاه النبوة بعد إلياس عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ، قام بتبليغ الدعوة بعد انتقال إلياس عليه السلام إلى جوار الله ، فقام يدعو إلى الله مستمسكاً بمنهاج نبي الله إلياس وشريعته وقد كثرت في زمانه الأحداث والخطايا وكثر الملوك الجبابرة ، فقتلوا الأنبياء وشرَّدوا المؤمنين ، فوعظهم اليسع عليه السلام وخوَّفهم من عذاب الله ﷻ ، ولكنهم لم يأبهوا بدعوته . .

ثم توفاه الله وسلط على بني إسرائيل من يسومهم سوء العذاب . .

وقد أثنى الله عليه في قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ .



من فوائد القصة

(١) لا يخلو زمن من نبي يهدي الناس ، ويدلهم على طريق رضا الله .

(٢) تابع الرسل ينقذ البشر ، وفي أمتنا ورث العلماء وظيفة الرسل ؛ لإنقاذ أمة محمد ﷺ ، ليتك تكون منهم .



زكريا عليه السلام

﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾

من هو زكريا ؟

في ذلك العصر القديم ، كان هناك في بني إسرائيل نبي صالح ، وكان هناك أيضًا عالم عظيم يصلي بالناس ، كان اسم النبي زكريا عليه السلام ، أما العالم العظيم الذي اختاره الله للصلاة بالناس، فكان اسمه عمران عليه السلام .

كان زكريا عليه السلام يعيش وحده مع زوجته في فلسطين وسط قومه ، فلم يرزقه الله بالأولاد رغم تقدمه في السن ، ولم ييأس سيدنا زكريا عليه السلام من رحمة الله ، بل كان يدعوه دائمًا أن يرزقه بالأولاد ، وكان زكريا نجارًا يأكل من كسب يده ، كما كان جده داود عليه السلام يأكل من عمل يده .

ميلاد مريم

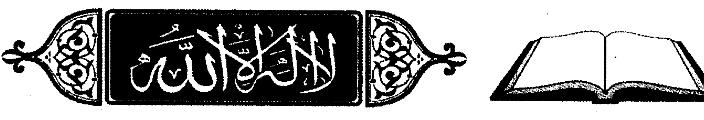
وكانت زوجة عمران ذلك الإمام العالم لا تلد ، وذات يوم رأت طائرًا يطعم ابنه الطفل في فمه ويسقيه ، ويأخذه تحت جناحه خوفًا عليه من البرد ، ، فأحيا هذا المشهد في قلبها حنينها إلىٰ ولد تؤويه وتعطف عليه ، وذكرها هذا الموقف الأمومي بنفسها فسألت الله سبحانه وتعالى أن يرزقها ذرية صالحة ، ورفعت يديها وراحت تدعو خالقها أن يرزقها بطفل . .

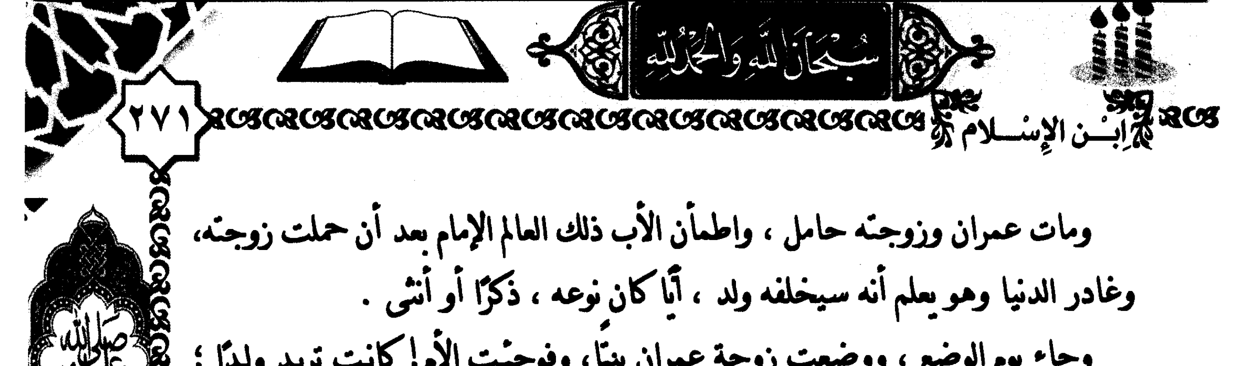
واستجاب الله لها فأحست ذات يوم أنها حامل ، وملأها الفرح والشكر لله فنذرت ما في بطنها محررًا لله :

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

كان معنى هذا أنها نذرت لله أن يكون ابنها خادمًا للمسجد طوال حياته ، يتفرغ لعبادة الله سبحانه وتعالى وخدمة بيته ، وأن يكون حرًا من العبودية لغير الله .







ومات عمران وزوجته حامل ، واطمأن الأب ذلك العالم الإمام بعد أن حملت زوجته، وغادر الدنيا وهو يعلم أنه سيخلفه ولد ، أيًا كان نوعه ، ذكرًا أو أنثى .

وجاء يوم الوضع ، ووضعت زوجة عمران بنتًا، وفوجئت الأم! كانت تريد ولدًا ؛ ليكون في خدمة المسجد والعبادة ، فلما جاء المولود أنثى حزنت وتألمت وفكرت :

هل تصلح الأنثى لخدمة المسجد ؟!

هل تصلح الأنثى أن توهب وتكون قد وفّت بنذرها ؟!

وفي النهاية قررت الأم أن تفي بنذرها لله ، برغم أن الذكر ليس كالأنثى ، وسألت الله القبول .

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾

سمع الله سبحانه وتعالى دعاء زوجة عمران ، والله يسمع ما نقوله ، وما نهمس به لأنفسنا ، وما نتمنى أن نقوله ولا نفعله ، يسمع الله عز وجل هذا كله ويعرفه ، سمع الله زوجة عمران وهي تخبره أنها قد وضعت بنتًا ، والله أعلم بما وضعت ، الله وحده هو الذي يختار نوع المولود فيخلقه ذكرا أو يخلقه أنثى ، سمع الله زوجة عمران تسأله أن يحفظ هذه الفتاة التي سمتها مريم ، وأن يحفظ ذريتها من الشيطان الرجيم :

﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ « مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا نَخَسَهُ الشَّيْطَانُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ نَخْسَةِ الشَّيْطَانِ إِلَّا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ » ، ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (صحيح البخاري: ٣٢٤٨) .



من يكفل مريم ؟

أثار ميلاد مريم بنت عمران مشكلة صغيرة في بداية الأمر ، كان عمران قد مات قبل ولادة مريم كما علمنا ، وأراد علماء ذلك الزمان وشيوخه أن يُرَبُّوا مريم ، كل واحد يتسابق لنيل هذا الشرف ، أن يربي ابنة شيخهم الجليل العالم وصاحب صلاتهم وإمامهم فيها .

قال زكريا: أكفلها أنا ، هي قريبتي ، فزوجتي خالتها ، وأنا نبي هذه الأمة وأولاكم بها .

وقال العلماء والشيوخ : ولماذا لا يكفلها أحدنا ؟ لا نستطيع أن نتركك تحصل على هذا الفضل بغير اشتراكنا فيه .

ثم اتفقوا على إجراء قرعة ، من يكسب القرعة هو الذي يكفل مريم ، ويربيها، ويكون له شرف خدمتها، حتى تكبر هي وتخدم المسجد وتتفرغ لعبادة الله ، وأجريت القرعة ، وُضعت مريم وهي مولودة على الأرض ، ووضع إلى جوارها أقلام الذين يرغبون في كفالتها، وأحضروا طفلا صغيرًا ، وأمروه أن يختار قلمًا من الأقلام الموضوعة بجوار مريم؛ فأخرج قلم زكريا عليه السلام . .

قال زكريا عليه السلام : حكم الله لي بأن أكفلها .

قال العلماء والشيوخ : لا ، القرعة ثلاث مرات .

وراحوا يفكرون في القرعة الثانية ، حفر كل واحد اسمه على قلم خشبي ، وقالوا : نلقي بأقلامنا في النهر ، من سار قلمه ضد التيار وحده فهو الغالب .

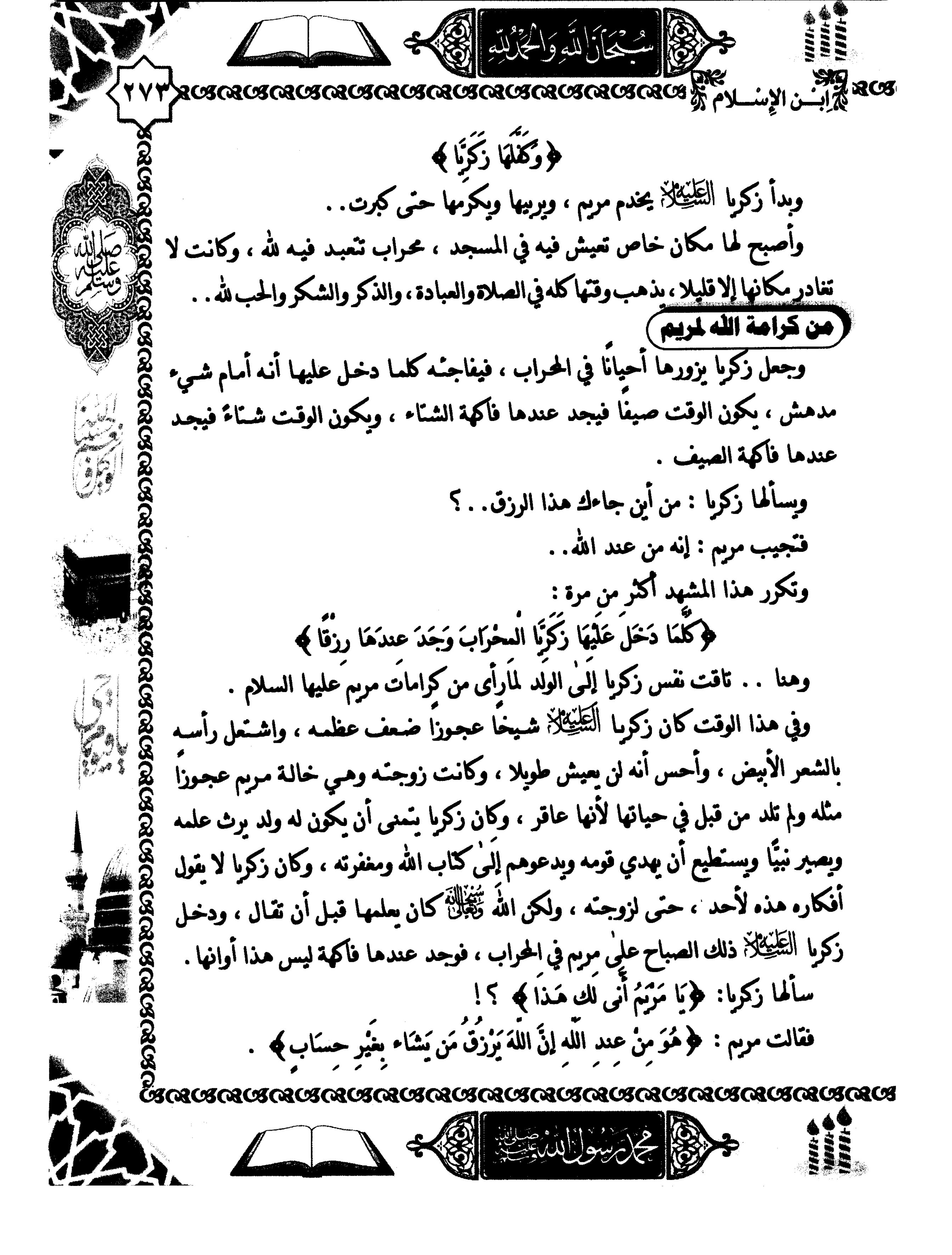
قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

وألقوا أقلامهم في النهر، فسارت أقلامهم جميعًا مع التيار ما عدا قلم زكريا عليه السلام ، سار وحده ضد التيار ، وظن زكريا أنهم سيقتنعون ، لكنهم أصروا على أن تكون القرعة ثلاث مرات ، قالوا: نلقي أقلامنا في النهر ، القلم الذي يسير مع التيار وحده يأخذ مريم ، وألقوا أقلامهم فسارت جميعًا ضد التيار ما عدا قلم زكريا ، وسلموا لزكريا ، وأعطوه مريم ليكفلها . .







﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾

وبدأ زكريا عليه السلام يخدم مريم ، ويربيها ويكرمها حتى كبرت . .

وأصبح لها مكان خاص تعيش فيه في المسجد ، محراب تتعبد فيه لله ، وكانت لا تغادر مكانها إلا قليلا ، يذهب وقتها كله في الصلاة والعبادة ، والذكر والشكر والحب لله . .

من كرامة الله لمريم

وجعل زكريا يزورها أحيانًا في المحراب ، فيفاجئه كلما دخل عليها أنه أمام شيء مدهش ، يكون الوقت صيفًا فيجد عندها فاكهة الشتاء ، ويكون الوقت شتاءً فيجد عندها فاكهة الصيف .

ويسألها زكريا : من أين جاءك هذا الرزق . . ؟

فتجيب مريم : إنه من عند الله . .

وتكرر هذا المشهد أكثر من مرة :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾

وهنا . . تاقت نفس زكريا إلى الولد لما رأى من كرامات مريم عليها السلام .

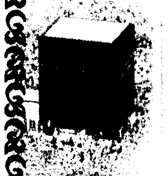
وفي هذا الوقت كان زكريا عليه السلام شيخًا عجوزًا ضعف عظمه ، واشتعل رأسه بالشعر الأبيض ، وأحس أنه لن يعيش طويلا ، وكانت زوجته وهي خالة مريم عجوزًا مثله ولم تلد من قبل في حياتها لأنها عاقر ، وكان زكريا يتمنى أن يكون له ولد يرث علمه ويصير نبيًا ويستطيع أن يهدي قومه ويدعوهم إلى كتاب الله ومغفرته ، وكان زكريا لا يقول أفكاره هذه لأحد ، حتى لزوجته ، ولكن الله سبحانه وتعالى كان يعلمها قبل أن تقال ، ودخل زكريا عليه السلام ذلك الصباح على مريم في المحراب ، فوجد عندها فاكهة ليس هذا أوانها .

سألها زكريا: ﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَٰذَا ﴾ ؟!

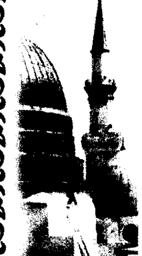
فقالت مريم : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .











زكريا يطلب من الله ولداً

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾

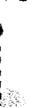
يعني في هذا الوقت ، وفي هذا المكان . . . هنالك . .

قال زكريا عليه السلام في نفسه : سبحان الله ، قادر على كل شيء ، وغرس الحنين بذوره في قلبه وتمنى الذرية ، فدعا ربه :

﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾

هذه مناجاة يخضع القلب لها ، وتخشع النفس لها ، وتأمل معي هذا الدعاء الخفي ، وانظر كيف تكون عبادة الدعاء ، وكيف يكون الدعاء للودود سبحانه وتعالى ، وكيف يكون الطمع في فضل الله ورحمته بعيدًا عن الأسباب .

هذه والله عبادة يخضع لها : ناجى زكريا ربه الرحمن الرحيم في خفاء وسر ، وهو يعلم أن ربه يعلم السر وأخفى ، ولكن بمنتهى الرقة والخشوع كما وصفه ربه :





﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾

وحكى لربه القصة كلها : ضعفه . . وهنه . . شيبه . . رجاؤه . . خوفه . . حكى كل شيء ، وهكذا فافعل ، واتخذ الله من دون خلقه وليًا ، سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

سأل زكريا خالقه بغير أن يرفع صوته أن يرزقه طفلا يرث النبوة والحكمة والفضل والعلم ، وكان زكريا خائفًا أن يضل القوم من بعده ولم يبعث فيهم نبي ، فرحم الله سبحانه وتعالى زكريا عليه السلام واستجاب له ، فلم يكد زكريا يهمس في قلبه بدعائه لله حتى نادته الملائكة



وهو قائم يصلي في المحراب ، يعني أنه كان مازال في محراب مريم حين حنت نفسه إلىٰ الولد ، ومازال يدعو ، وقبل أن ينصرف جاءته البشرى :

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾

فوجئ زكريا بهذه البشرى ، أن يكون له ولد لا شبيه له أو مثيل من قبل ، أحس زكريا من فرط الفرح باضطراب ، تساءل من موضع الدهشة :

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾

أدهشه أن ينجب وهو شيخ كبير وامرأته عجوز عقيم لا تلد . .

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾

أفهمته الملائكة أن هذه مشيئة الله وليس أمام مشيئة الله إلا النفاذ ، وليس هناك شيء يصعب علىٰ الله سبحانه وتعالى ، كل شيء يريده يأمره أن يكون فيكون ، وقد خلق الله زكريا نفسه من قبل ولم يكن له وجود ، وكل شيء يخلقه الله عز وجل بمجرد المشيئة :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

امتلأ قلب زكريا بالشكر لله وحمده وتمجيده ، وسأل ربه أن يجعل له آية أو علامة ، يطمئن بها قلبه عند حصول الحمل لزوجته :

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾

أخبره الله سبحانه وتعالى أنه ستجيء عليه ثلاثة أيام لا يستطيع فيها النطق ، سيجد نفسه غير قادر علىٰ الكلام ، سيكون صحيحًا غير معتل ، إذا حدث له هذا أيقن أن امرأته حامل ، وأن معجزة الله قد تحققت ، وعليه ساعتها أن يتحدث إلىٰ الناس عن طريق الإشارة ، وأن يسبح الله كثيرًا في الصباح والمساء ، شكرًا لله علىٰ نعمه . .

وخرج زكريا عليه السلام يومًا علىٰ الناس وقلبه مليء بالشكر ، وأراد أن يكلمهم فاكتشف أن لسانه لا ينطق ، وعرف أن معجزة الله قد تحققت ، فأومأ إلىٰ قومه أن

يسبحوا الله في الفجر والعشاء ، وراح هو يسبح الله في قلبه ، صلى لله سبحانه وتعالى شكرًا على استجابته لدعوته ومنحه يحيى . .

وبيّن الله سبحانه وتعالى سبب إجابته لدعوة سيدنا زكريا في قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ ، إنه كان يسارع في الخيرات ، ويدعو الله سبحانه وتعالى في السر والعلن ، في الرخاء والضيق ، رغبة في رضائه وخوفا من عقابه .

وامتن الله على زكريا بغلام اسمه يحيى ، له صفات خاصة لم تكن لأحد قبله ، وفرح زكريا بولده ، ورباه على الإيمان والتوحيد والدعوة إلى الله عز وجل ، وآتى الله يحيى الحكم صبيًا . ظل زكريا عليه السلام يدعو إلى ربه حتى جاءت وفاته .

ولم ترد روايات صحيحة عن وفاته عليه السلام ، لكن روايات كثيرة – ضعيفة – أوردت أن قتله كان على يد جنود الملك الظالم .

من فوائد القصة

١. للمؤمن في كل موقف عبرة ، وفي كل مشهد عظة ، فلا تكن غافلا .
٢. كلما كان العمل خفيًا كان أقرب للإخلاص ، ومن ثمّ يكون متقبلا .
٣. التنافس إلى الخيرات علامة على صلاح القلب وإيمان العبد .
٤. يجوز فض المنازعة بالقرعة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه .
٥. كرامات الأولياء ثابتة لأهل السنة ، ومن كرامة الله لمريم أن يكون عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف .
٦. ليس لك إلا الله ، فافزع إلى الله في كل حوائجك ، وكن على ثقة ويقين من قدرة الله على استجابة دعائك ، وإن لم يكن هناك أسباب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ» (حسن ، الترمذي : ٣٤٧٩) .



يحيى عليه السلام

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾

ابن نبي الله زكريا عليه السلام ، ولد استجابة لدعاء زكريا لله أن يرزقه الذرية الصالحة فجعل الله سبحانه وتعالى آية مولده أن لا يكلم الناس ثلاث ليال سويًا، وقد كان يحيى عليه السلام نبيًا وحصورًا ومن الصالحين ، كما كان بارًا تقيًا ورعًا منذ صباه .

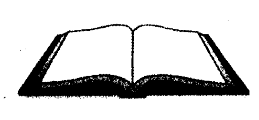
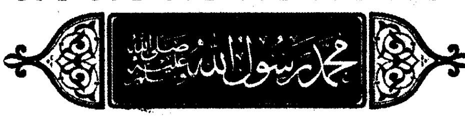
قال الله سبحانه وتعالى :

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾

هذا هو يحيى عليه السلام ، نبي الله الذي شهد الحق عز وجل له أنه لم يجعل له من قبل شبيهًا ولا مثيلا، وهو النبي الذي فضله الله سبحانه بفضائل عظيمة وفريدة :

- ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ .
- ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾
- ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ .
- ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ .
- ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ .
- ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ .
- ﴿وَسَيِّدًا﴾ .
- ﴿وَحَصُورًا﴾ .
- ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

وهذه نعم ومنن وإكرامات لعبدالله ونبيه ورسوله يحيى عليه السلام لعلها لم تجتمع لأحد غيره.



ومثلما أوتي الخضر علمًا من لدن الله ، أوتي يحيى حنانًا من لدن الله، والعلم مفهوم ، والحنان هو العلم الشمولي الذي يشيع في نسيجه حب عميق للكائنات ورحمة بها ، كأن الحنان درجة من درجات الحب الذي ينبع من العلم .

ولقد كان يحيى عليه السلام في الأنبياء نموذجًا لا مثيل له في النسك والزهد والحب الإلهي، هو النبي الناسك ، كان يضيء حبًا لكل الكائنات ، وأحبه الناس ، وأحبته الطيور والوحوش والصحاري والجبال ؛ لأنه أوتي حنانًا من ربه .

كان يحيى عليه السلام معاصرًا لعيسى عليه السلام وقريبه من جهة الأم (ابن خالة أمه) .

طفولة يحيى عليه السلام

ولد يحيى عليه السلام ، وكان ميلاده معجزة ، فقد جاء لأبيه زكريا بعد عمر طال حتى يئس الشيخ من الذرية ، وجاء بعد دعوة نقية تحرك بها قلب النبي زكريا عليه السلام .

ولد يحيى عليه السلام فجاءت طفولته غريبة عن دنيا الأطفال ، كان معظم الأطفال يمارسون اللهو، أما هو فكان جادًا طوال الوقت ، كان بعض الأطفال يتسلى بتعذيب الحيوانات ، وكان يحيى يطعم الحيوانات والطيور من طعامه رحمة بها ، وحنانًا عليها ، ويبقى هو بغير طعام ، أو يأكل من أوراق الشجر أو ثمارها .

وكلما كبر يحيى عليه السلام في السن زاد النور في وجهه وامتلأ قلبه بالحكمة وحب الله والمعرفة والسلام ، وكان يحيى عليه السلام يحب القراءة ، وكان يقرأ في العلم من طفولته ، فلما صار صبيًا ناداه ربه عز وجل :



﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾

أوحى الله سبحانه وتعالى ليحيى عليه السلام وهو صبي أن يأخذ الكتاب بقوة ، بمعنى أن يدرس الكتاب بإحكام ، كتاب الشريعة ، رزقه الله الإقبال على معرفة الشريعة والقضاء بين الناس وهو صبي ، كان أعلم الناس وأشدهم حكمة في زمانه ، درس الشريعة دراسة كاملة ، ولهذا السبب آتاه الله الحكم وهو صبي ، كان يحكم بين الناس ، ويبين لهم أسرار الدين ، ويعرفهم طريق الصواب ويحذرهم من طريق الخطأ .

وكبر يحيى فزاد علمه ، وزادت رحمته ، وزاد حنانه بوالديه ، والناس ، والمخلوقات ، والطيور ، والأشجار ، حتى عم حنانه الدنيا وملأها بالرحمة ، كان يدعو الناس إلىٰ التوبة من الذنوب ، وكان يدعو الله لهم ، ولم يكن هناك إنسان يكره يحيى أو يتمنى له الضرر، كان محبوبًا لحنانه وزكاته وتقواه وعلمه وفضله، ثم زاد يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ ذلك بالتنسك .

الواعظ الصادق

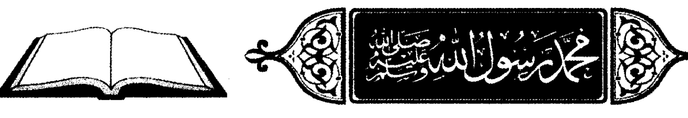
وكان سيدنا يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا وقف بين الناس ليدعوهم إلىٰ الله أبكاهم من الحب والخشوع ، وأثر في قلوبهم بصدق الكلمات وكونها قريبة العهد من الله وعلى عهد الله . .

وخرج يحيى ذات صباح علىٰ الناس ، امتلأ المسجد بالناس ، ووقف يحيى بن زكريا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وبدأ يتحدث ، قال : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي بِكَلِمَاتٍ أَعْمَلُ بِهَا، وَآمُرُكُمْ أَنْ تَعْمَلوا بِهَا ، أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ بِلاَ شَرِيك ، فَمَنْ أَشْرَكَ بِالله وَعَبَدَ غَيْرَهُ فَهُوَ مثْلُ عَبْد اشْتَرَاهُ سَيِّدُهُ فَرَاحَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي ثَمَنَ عَمَله لسَيِّد غَيْرِ سَيِّده ، أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذلكَ ؟ وَآمُرُكُمْ بِالصَّلاة ؛ لأَنَّ اللهَ يَنْظُرُ إِلَىٰ عَبْده وَهُوَ يُصَلِّي ، مَا لَمْ يَلْتَفِتْ عَنْ صَلاته، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَاخْشَعُوا ، وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ ، فَإِنَّ مَثَلَ ذلكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِنْ مِسْكٍ جَمِيلِ الرَّائحَة ، كُلَّمَا سَارَ هَذَا الرَّجُلُ فَاحَتْ مِنْهُ رَائحَةُ المِسْكُ المُعَطَّرَ ، وَآمُرُكُمْ بِذكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَثيرًا، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ أَعْدَاؤُهُ فَأَسْرَعَ لحصْنٍ حَصين فَأَغْلَقَهُ عَلَيْه ، وَأَعْظَمُ الحُصُون ذكْرُ الله ، وَلا نَجَاةَ بِغَيْرِ هَذَا الحصْنِ » (صحيح الترمذي : ٢٨٦٣) .

هكذا كان سيدنا يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ بليغًا فصيحًا يدعو قومه دعوة واضحة ببيان سهل ، وضرب للأمثلة تؤدي إلى الاقتناع التام ، ولذلك كان بنو إسرائيل يحبونه ويسمعون منه .

الحزم في الحق

ولكن كان أحد ملوك ذلك الزمان طاغية ضيق العقل قاسي القلب يستبد برأيه ، وكان الفساد منتشرًا في بلاطه ، وكان يسمع أنباء متفرقة عن يحيى فيدهش من حب الناس ليحيى ؛ ويعجب لأن الناس يحبون أحدًا بهذا القدر، وهو ملك ورغم ذلك لا يحبه أحد .



وكان الملك يريد الزواج من ابنة أخيه ، حيث أعجبه جمالها ، وهي أيضًا طمعت بالملك ، وشجعتها أمها على ذلك ، وكانوا يعلمون أن هذا حرام في دينهم ، فأراد الملك أن يأخذ الإذن من يحيى عليه السلام ، فذهبوا يستفتون يحيى ويغرونه بالأموال ليستثني الملك .

لم يكن لدى الفتاة أي حرج من الزواج بالحرام ، فلقد كانت سيئة الخلق ، لكن يحيى عليه السلام أعلن أمام الناس تحريم زواج البنت من عمّها ، حتى يعلم الناس - إن فعلها الملك- أن هذا انحراف ، فغضب الملك وأسقط في يده ، فامتنع عن الزواج.

لكن الفتاة كانت لا تزال طامعة في الملك ، فذهبت إليه بعدما تزينت وأغرته وفتنته حتى تعلق بها ، وأصرّ على الزواج منها ، وهنا امتنعت منه وأصرت على ذلك ، والملك يزداد حرصًا عليها ، فاشترطت عليه شرطًا ، فقالت للملك : ائتني برأس يحيى مهرًا لي وإلا فلا ، فأرسل جنوده ودخلوا على يحيى عليه السلام وهو يصلي في المحراب ، وقتلوه ، وقدموا رأسه على صحن للملك ، فقدّم الصحن إلى هذه الفتاة وتزوجها بالحرام .

إنها نهاية حزينة ومؤلمة لهذا النبي العظيم يحيى ، ولكن هكذا يكون الابتلاء ، كما قال رسول الله ﷺ : « أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءُ » (صحيح الجامع : ٩٩٢) .



١- من صفّى سريرته وأخلص نيّته جعل الله له في قلوب المؤمنين وُدًّا .

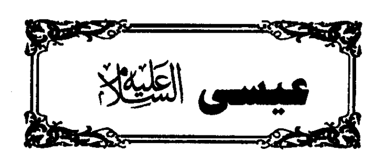
٢- بداية استقامة الإنسان ونباهته من الطفولة ، والتعليم في الصغر كالنقش على الحجر، يعني لا يزول ولا ينمحي .

٣- من امتلأ قلبه بحب الله والخوف منه ، أحيا كلامه القلوب ، واهتدت بصلاحه النفوس .

٤- إن الصادقين من عباد الله لا يعرفون التلون ، ولا يغريهم المال ؛ ليتنازلوا عن حق يعتقدونه ، بل قد يفقد الإنسان حياته في سبيل كلمة حق وهو راض .







عيسى عليه السلام

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

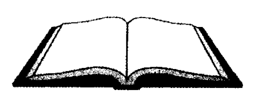
مريم البتول عليها السلام

الحديث عن نبي الله عيسى عليه السلام ، يستدعي الحديث عن أمه مريم ، بل وعن ذرية آل عمران ، هذه الذرية التي اصطفاها الله سبحانه وتعالى واختارها، كما اختار آدم ونوحًا وآل إبراهيم علىٰ العالمين .

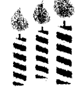
آل عمران : أسرة كريمة مكونة من (عمران) : والد مريم ، و(امرأة عمران) : أم مريم ، و(مريم)، و(عيسى) عليه السلام ؛ فعمران جد عيسى لأمه ، وامرأة عمران جدته لأمه ، وكان (عمران) صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه (يعني إمامهم الذي يؤمهم في الصلاة) ، وكانت زوجته (امرأة عمران) امرأة صالحة كذلك ، وكانت لا تلد ، فدعت الله سبحانه وتعالى أن يرزقها ولدًا، ونذرت أن تجعله مفرغًا للعبادة ولخدمة بيت المقدس ، فاستجاب الله دعاءها، ولكن شاء الله أن تلد أنثى هي : (مريم)، وجعل الله سبحانه وتعالى كفالتها ورعايتها إلىٰ زكريا عليه السلام وهو نبي ذلك الزمان ، وهو زوج خالة مريم ؛ وإنما قدر الله ذلك لتقتبس منه علمًا نافعًا، وعملا صالحًا .

كانت مريم مثالا للعبادة والتقوى ، وأسبغ الله سبحانه وتعالى عليها من فضله ونعمته ما لفت أنظار الآخرين ، فكان زكريا عليه السلام كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقًا، فيسألها: من أين لك هذا ، فتجيب :

﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾







كل ذلك إنما كان تمهيدًا للمعجزة العظمى ؛ حيث ولد عيسى عليه السلام من هذه المرأة الطاهرة النقية ، دون أن يكون له أب كسائر الخلق ، واستمع إلى بداية القصة :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾

بهذه الكلمات البسيطة فهمت مريم أن الله سبحانه وتعالى يختارها، ويطهرها ويختارها ويجعلها على رأس نساء الوجود ، هذا الوجود، والوجود الذي لم يخلق بعد ، هي أعظم فتاة في الدنيا وبعد قيامة الأموات وخلق الآخرة ، إن الله اصطفاك وطهرك في ذاتك ونفسك ، أما اصطفاك الثانية فهي التي تعني اصطفاك لمهمة حمل النبي الجديد ، ومعجزته العظيمة أن يولد من غير أب ، وما تبعها من معجزات هذا النبي الكريم ، وعادت الملائكة تتحدث :

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾

ميلاد عيسى عليه السلام

كان الأمر الصادر بعد البشارة أن تزيد من خشوعها، وسجودها وركوعها لله شكرًا على هذا الاصطفاء ، وملأ قلب مريم إحساس مفاجئ بأن شيئًا عظيمًا يوشك أن يقع ، ويقص الله سبحانه وتعالى علينا في القرآن الكريم قصة ولادة عيسى عليه السلام فيقول عز وجل :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾

جاء جبريل عليه السلام لمريم وهي في المحراب على صورة بشر في غاية الجمال ، فخافت مريم :

﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾

أرادت أن تحتمي في الله ، وسألته : هل أنت إنسان طيب تعرف الله وتتقيه ؟!

فجاء جوابه ؛ ليطمئنها بأنه يخاف الله ويتقيه :

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾

اطمأنت مريم للغريب ، لكن سرعان ما تذكرت ما قاله : ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ ، استغربت مريم العذراء من ذلك ، فلم يمسسها بشر من قبل ، ولم تتزوج بعد ، ولم يخطبها أحد ، كيف تنجب بغير زواج !! فقالت لرسول ربها:





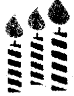
﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾
كيف يكون هذا ؟! ياللعجب !! قال الروح الأمين عليه السلام :
﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾
إنه أمر سهل على الله تعالى ، ولا يصعب على الله شيء ، وخلقه هكذا من غير أب؛ ليكون معجزة ورحمة من الله لبني إسرائيل ، ثم قد قضي الأمر ، وأمر الملك ، فليس ثمة إلا الاستسلام .

استقبل عقل مريم كلمات الروح الأمين برضا واستسلام ، ألم يقل لها إن هذا هو أمر الله ؟! وكل شيء ينفذ إذا أمر الله ، ثم أي غرابة في أن تلد بغير أن يمسسها بشر؟! لقد خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام من غير أب أو أم، لم يكن هناك ذكر وأنثى قبل خلق آدم، وخلق الله حواء من آدم فهي قد خلقت من ذكر بغير أنثى ، ويخلق ابنها من غير أب ، يخلق من أنثى بغير ذكر ، والعادة أن يخلق الإنسان من ذكر وأنثى ، العادة أن يكون له أب وأم ، لكن المعجزة تقع عندما يريد الله سبحانه وتعالى أن تقع . .

عاد جبريل عليه السلام يتحدث :
﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

زادت دهشة مريم ، سبحان الله! قبل أن تحمله في بطنها تعرف اسمه ؟ وتعرف أنه سيكون وجيهًا عند الله وعند الناس ؟ وتعرف أنه سيكلم الناس وهو طفل وهو كبير ؟ وقبل أن يتحرك فم مريم بسؤال آخر ، نفخ جبريل عليه السلام في جيب مريم (الجيب هو شق الثوب الذي يكون في الصدر) فحملت فورًا .

ومرت الأيام ، كان حملها يختلف عن حمل النساء ، لم تمرض ولم تشعر بثقل ولا أحست أن شيئًا زاد عليها ، ولا ارتفع بطنها كعادة النساء ، كان حملها به نعمة طيبة ، وجاء موعد الولادة . .




خرجت مريم ذات يوم إلىٰ مكان بعيد ، إنها تحسُّ أن شيئًا سيقع اليوم ، لكنها لا تعرف حقيقة هذا الشيء ، قادتها قدماها إلىٰ مكان يمتلئ بالشجر ، والنخل، مكان لا يقصده أحد لبعده ، مكان لا يعرفه غيرها ، لم يكن الناس يعرفون أن مريم حامل ، وإنها ستلد ، كان المحراب مغلقًا عليها، والناس يعرفون أنها تتعبد فلا يقترب منها أحد . .

جلست مريم تستريح تحت جذع نخلة ؛ لتظهر معجزات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمريم عند ولادة عيسى فيطمئن قلبها ، وراحت تفكر في نفسها ، كانت تشعر بألم ، وراح الألم يتزايد ويجيء في مراحل متقاربة ، وبدأت مريم تلد :

﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾

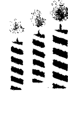
ووقعت المفاجأة ، جاءت آلام الولادة فجأة لمريم ، وإن ألم الميلاد يحمل لنفس العذراء الطاهرة آلامًا أخرى تتوقعها وإن كانت لم تقع بعد : كيف يستقبل الناس طفلها هذا . . ؟ وماذا يقولون عنها . . ؟ إنهم يعرفون أنها عذراء ، فكيف تلد العذراء . . ؟ هل يصدق الناس أنها ولدته بغير أن يمسسها بشر . . ؟ وتصورت نظرات الشك ، وكلمات الفضول ، وتعليقات الناس ، وامتلأ قلبها بالحزن . . حتى أنها تمنت الموت قبل أن تواجه هذه الظروف الصعبة . .

وولدت في نفس اللحظة ، لم تكد مريم تنتهي من تمنيها الموت والنسيان ، حتى ناداها الطفل الذي ولد :

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [سورة مريم : ٢٤-٢٦] .

نظرت مريم إلىٰ المسيح ، سمعته يطلب منها أن تكف عن حزنها ، ويطلب منها أن تهز جذع النخلة ؛ لتسقط عليها بعض ثمارها الشهية ، فلتأكل ، ولتشرب ، ولتمتلئ بالسلام والفرح ولا تفكر في شيء ، فإذا رأت من البشر أحدًا فلتقل لهم : إنها نذرت للرحمن صومًا فلن تكلم اليوم إنسانًا ، ولتدع له الباقي . .





لم تكد تلمس الجذع حتى تساقط عليها رطبٌ شهي ، فأكلت وشربت ولفَّت الطفل في ملابسها ، وألصقته بقلبها واستسلمت لعذوبة النوم .

كان تفكير مريم العذراء كله يدور حول محور واحد ، هو عيسى، وهي تتساءل بينها وبين نفسها: كيف يستقبله اليهود . . ؟ ماذا يقولون فيه . . ؟ هل يصدق أحد من كهنة اليهود الذين يعيشون علىٰ الغش والخديعة والسرقة . . ؟ هل يصدق أحدهم وهو بعيد عن الله أن الله هو الذي رزقها بطفل؟ إنَّ موعد خلوتها ينتهي، ولا بد أن تعود إلىٰ قومها، فماذا يقول الناس؟ وماذا تقول لهم ؟ ! . .

حوار بين الرضيع واليهود

كان الوقت عصرًا حين عادت مريم ، وكان السوق الكبير الذي يقع في طريقها إلىٰ المسجد يمتلئ بالناس الذين فرغوا من البيع والشراء وجلسوا يثرثرون ، لم تكد مريم تتوسط السوق حتى لاحظ الناس أنها تحمل طفلا، وتضمه لصدرها وتمشي به في جلال وبطء . .

تساءل أحد الفضوليين : أليست هذه مريم العذراء ؟ طفل من هذا الذي تحمله علىٰ صدرها ؟

قال أحدهم : بالتأكيد هو طفلها ، ترى أي قصة ستخرج بها علينا . . ؟

وجاء كهنة اليهود يسألونها : ابن من هذا يا مريم ؟ لماذا لا تردين ؟ هو ابنك قطعًا ، كيف جاءك ولد وأنت عذراء ؟

﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾

الكلمة ترمي مريم بالبغاء ، هكذا مباشرة دون استماع أو تحقيق أو تثبت ، ترميها بالبغاء وتعيّرها بأنها من بيت طيب وليست أمها بغيًا ، فكيف صارت هي كذلك؟ راحت الاتهامات تسقط عليها وهي مرفوعة الرأس ، تومض عيناها بالكبرياء والأمومة ، ويشع من وجهها نور يفيض بالثقة ، فلما زادت الأسئلة ، وضاق الحال ، وانحصر المجال ، وامتنع المقال ، اشتد توكلها علىٰ ذي الجلال وأشارت إليه . .



أشارت بيدها لعيسى ، واندهش الناس ، فهموا أنها صائمة عن الكلام وترجو منهم أن يسألوه هو كيف جاء ، تساءل الكهنة ورؤساء اليهود : كيف يوجهون السؤال لطفل ولد منذ أيام ، هل يتكلم طفل في لفافته . . ؟ !

قالوا لمريم :

﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ ؟ !

قال عيسى عليه السلام :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [سورة مريم : ٣٠-٣٣] .

لم يكد عيسى ينتهي من كلامه حتى كانت وجوه الكهنة والأحبار ممتقعة وشاحبة ، كانوا يشهدون معجزة تقع أمامهم مباشرة ، هذا طفل يتكلم في مهده ، طفل جاء بغير أب، طفل يقول : إن الله قد آتاه الكتاب وجعله نبيًا ، هذا يعني أن سلطتهم في طريقها إلى الانهيار ، سيصبح كل واحد فيهم بلا قيمة عندما يكبر هذا الطفل ، لن يستطيع أحد إذا أن يبيع الغفران للناس ، أو يحكمهم عن طريق ادعائه بأنه ظل السماء على الأرض ، أو باعتباره الوحيد العارف في الشريعة .

شعر كهنة اليهود بالمأساة الشخصية التي جاءتهم بميلاد هذا الطفل ، إن مجرد مجيء المسيح يعني إعادة الناس إلى عبادة الله وحده ، وهذا معناه إعدام كهنة اليهودية الحالية ، فالفرق بين تعاليم موسى عليه السلام وتصرفات هؤلاء الكهنة اليهود كان يشبه الفرق بين نجوم السماء ووحل الطرقات ، وتكتم رهبان اليهود قصة ميلاد عيسى عليه السلام وكلامه في المهد ، واتهموا مريم العذراء ببهتان عظيم ، اتهموها بالفاحشة ، رغم أنهم عاينوا بأنفسهم معجزة كلام ابنها في المهد .





معجزات عيسى عليه السلام

كبر عيسى عليه السلام ، ونزل عليه الوحي ، وأعطاه الله الإنجيل ، وكان عمره آنذاك ثلاثون سنة ، وأظهر الله علىٰ يديه المعجزات .

فكان عيسى عليه السلام رسولا لبني إسرائيل فقط ، ومعجزاته هي :

- ﴿ يُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴾ .
- ﴿ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .
- ﴿ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ ﴾ (وهو من ولد أعمى) ، فيمسح علىٰ عينيه أمامهم فيبصر .
- ﴿ وَالْأَبْرَصَ ﴾ (وهو المرض الذي يصيب الجلد فيجعل لونه أبيض)، فيمسح علىٰ جسمه فيعود سليمًا .
- ﴿ أُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ يخبرهم بما يخبئون في بيوتهم، وما أعدّت لهم زوجاتهم من طعام .
- ﴿ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وكان عليه السلام يحيى الموتى بإذن الله .
- ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ جاء عيسى عليه السلام ليخفف عن بني إسرائيل بإباحة بعض الأمور التي حرمتها التوراة عليهم عقابًا لهم .

إلا أن بني إسرائيل – مع كل هذه الآيات – كفروا ورفضوا الإيمان بأن عيسى رسول الله ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾

لما أحس عيسى أنهم غير مؤمنين سألهم سؤالا مباشرًا : هل أنتم مسلمون ؟ ! فما آمن له إلا الحواريون .

الحواريون أتباع عيسى عليه السلام

قيل : إن عدد الحواريين كان سبعة عشر رجلا ، لكن الأرجح أنهم كانوا اثني عشر رجلا ، آمن الحواريون ، لكن التردد لا يزال موجودًا في نفوسهم ، ولقطع هذا التردد ، أمر سيدنا عيسى عليه السلام الحواريين أن يصوموا ثلاثين ليلة ؛ ليستبين صدقهم ، وتطهر وتزكو نفوسهم ، ويطمئن إلى إيمانهم بالسمع والطاعة ، فاستجابوا وصاموا ، ولما أتموا صيامهم قالوا لسيدنا عيسى عليه السلام :

﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ ؟!

حذرهم سيدنا عيسى أن يشكوا في قدرة الله تعالى ، قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ اتَّقُوا اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ . .

قالوا :

﴿ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

أي كانوا يريدون أن يأكلوا من هذه المائدة التي تهبط عليهم من السماء ؛ ليعلموا أن الله قد تقبل صيامهم ، وأجاب دعاءهم .

ودعا سيدنا عيسى عليه السلام ربه وتضرع إليه قائلا : ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ، واستجاب الله عز وجل لدعوته عليه السلام ، ظهرت غمامتان في السماء ، بينهما المائدة ، وراحت تقترب رويدًا رويدًا ، وسيدنا عيسى عليه السلام يدعو الله أن تكون المائدة رحمة لهم ، وأن يجعلها الله بركة وسلامًا عليهم .

وهبطت المائدة أمام عيسى عليه السلام ، وكانت مغطاة ، فرفع عيسى عليه السلام الغطاء وهو يقول : بسم الله خير الرازقين ، وبدأ الجميع يأكلون ، كان بينهم مرضى ، فشفاهم الله عز وجل بعدما أكلوا من المائدة .



لكن الله سبحانه وتعالى حذرهم من الكفر بعد هذه الآية التي جاءت تلبية لطلبهم ، وتوعّد من يكفر منهم بعد هذه المعجزة بعذاب شديد لا يعذبه لأحد آخر من العالمين، قال تعالى:

﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾

وصار يوم نزول المائدة عيدًا للحواريين .

وظلوا على إيمانهم وتصديقهم لعيسى عليه السلام ، إلا رجلا واحدًا كفر بعد رفع عيسى عليه السلام .

كذب اليهود سيدنا عيسى عليه السلام تكذيبًا شديدًا ، وافتروا عليه وعلى أمه الصديقة، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يسيح في الأرض ، يتنقل فيها ليفر بدينه من فتن اليهود ، لذلك أطلقوا عليه اسم المسيح .

لما بدأ الناس يتحدثون عن معجزات عيسى عليه السلام ، خاف رهبان اليهود أن يتبع الناس الدين الجديد فيضيع سلطانهم ، فذهبوا لملك تلك المناطق وكان تابعًا للروم ، وقالوا له : إن عيسى يزعم أنه مَلك اليهود ، وسيأخذ المُلك منك ، فخاف الملك وأمر بالبحث عن عيسى عليه السلام ليقتله.

عندما بلغ عيسى عليه السلام أنهم يريدون قتله ، سار نحو أحد البيوت ، وكان للبيوت في ذلك العصر ثلاث فتحات : باب كبير لإدخال الأشياء الكبيرة وباب صغير لدخول الأفراد ، وفتحة في سقف المنزل .

دخل سيدنا عيسى عليه السلام المنزل ، ودخل خلفه رجل ، وألهم الله سبحانه وتعالى سيدنا عيسى عليه السلام أن ينظر إلى أعلى ، ونظر سيدنا عيسى عليه السلام فرفعه الله سبحانه وتعالى إليه بقدرته من فتحة السقف .

رفع الله سيدنا عيسى عليه السلام للسماء ، واستبطأ اليهود الرجل ، فخرج إليهم واختلط عليهم الشبه : أهذا رجلهم أم عيسى ؟ وشبه لهم أن هذا الرجل هو سيدنا عيسى فأخذوه وصلبوه وقالوا : ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ ،

ولكن الله تعالى نفى قتله ، قال الله سبحانه وتعالى ردًا عليهم : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُم وَإِنَّ الذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ ، لم يعرف اليهود هل قتلوا سيدنا عيسى أم الرجل الآخر ، وصاروا في شك ، واتبعوا ظنهم ، واستقروا علىٰ أنهم قتلوه ، ولكن الله أظهر حقيقة ما حدث في قوله :

﴿ بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

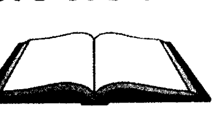
ظل الحواريون يدعون بالسر إلى الله ، ويعلمون الناس الدين في السر ، وظل النصارى علىٰ التوحيد أكثر من مائتي سنة ، ثم آمن أحد ملوك الروم واسمه قسطنطين ، وأدخل الشركيات في دين النصارى .

يقول ابن عباس : افترق النصارى ثلاث فرق ، فقالت طائفة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلىٰ السماء ، وقالت طائفة : كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه ، وقالت طائفة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه ، فتظاهرت الكافرتان علىٰ المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام مطموسًا حتى بعث الله محمدا ﷺ فذلك قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَيَّدْنَا الذِينَ آمَنُوا علىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾

عيسى عليه السلام حيٌّ في السماء

لا يزال عيسى عليه السلام حيًا في السماء، ويدل علىٰ ذلك أحاديث صحيحة كثيرة، والحديث الجامع لهاعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ؛ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ وَإِنَّهُ نَازِلٌ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ رَجُلا مَرْبُوعًا إِلَى الحُمْرَةِ وَالبَيَاضِ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَصَّرَانِ كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الجِزْيَةَ وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى الإِسْلامِ فَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ المِلَلَ كُلَّهَا إِلا الإِسْلامَ وَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ المَسِيحَ الدَّجَّالَ وَتَقَعُ الأَمَنَةُ عَلَى الأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ الأُسُودُ مَعَ الإِبِلِ وَالنِّمَارُ مَعَ البَقَرِ وَالذِّئَابُ مَعَ الغَنَمِ وَيَلْعَبَ الصِّبْيَانُ

بالحيَّات لا تضرُّهُمْ فيمكثُ أربعينَ سنَةً ثُمَّ يُتوفَّى ويُصلِّي عليْه المُسْلمُون» (صحيح ، مسند الإمام أحمد : ٤٠٦/٢) .

(مربوع) ليس بالطويل وليس بالقصير، (إلى الحمرة والبياض) وجهه أبيض فيه احمرار، (سبط) شعره ناعم، (ممصرتين) عصاتين أو منارتين وفي الحديث الآخر ينزل عند المنارة البيضاء من مسجد دمشق.

لا بد أن يذوق الإنسان الموت ، عيسى لم يمت وإنما رفع إلَىٰ السماء، لذلك سيذوق الموت في نهاية الزمان.

ويخبرنا المولى ﷻ بحوار لم يقع بعد، هو حواره مع عيسى عليه السلام يوم القيامة فيقول :

﴿يا عيسَى ابنَ مَريَمَ أَءنتَ قُلتَ للناسِ اتخِذونِي وأُمِّيَ إِلَهَيْنِ من دُونِ الله﴾ ؟!

يقول عيسى عليه السلام :

﴿سُبحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أن أقُولَ مَا لَيسَ لِي بِحَقٍ إِن كُنتُ قُلتُهُ فَقَد عَلِمتَهُ تَعلَمُ مَا فِي نَفسِي وَلا أَعلَمُ مَا فِي نَفسِكَ إِنكَ أَنتَ عَلامُ الغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلتُ لَهُم إِلا مَا أَمَرتَنِي بِه أَنِ اعبُدُوا الله رَبِي وَرَبكُم وَكُنتُ عَلَيهِم شَهِيدًا ما دُمتُ فِيهِم فَلَما تَوَفيتَنِي كُنتَ أَنتَ الرقِيبَ عَلَيهِم وَأَنتَ علىٰ كُلِ شَيءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِبهُم فَإِنهُم عِبَادُكَ وَإِن تَغفِر لَهُم فَإِنكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ .

هذا هو عيسى بن مريم عليه السلام، آخر الرسل قبل سيدنا محمد ﷺ ، كان ميلاده بدون أب معجزة من الله ، وكان رفعه إلَىٰ السماء معجزة أخرى ، فسلامٌ عليه يوم وُلد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيًّا .

عقيدتنا في عيسى عليه السلام

١ إنه عبدُ الله ورسوله ، خلقه الله تعالى بقوله كُنْ في رحم أمه مريم عليها السلام ، وولد طفلاً ، وتكلم في المهد ، ونشأ وكبر وأوحى الله إليه بالنبوة والرسالة ، فهو عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلَىٰ مريم وروح منه .

٢ إنه لم يصلب يقينًا ، والكذابون من اليهود وأتباعهم هم الذين يزعمون هذا .

٣- ينزل آخر الزمان عبدًا لا رسولا ولا ملكًا ، ويصلي خلف إمام المسلمين ، ويقاتل جنديًا في جيش المسلمين ، ويكون عمله في الأرض محدودًا :

- يكسر الصليب .
- يقتل الخنزير .
- يضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام .
- يدعو إلى الإسلام ، ويتم التمكين لدين محمد ﷺ على يديه .
- يقتل الدجال .

ثم يموت ويصلي عليه المسلمون ، ويدفن في الأرض المقدسة .

من فوائد القصة

١- جواز تمني الموت عند خوف الفتنة في الدين .

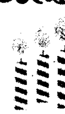
٢- قرب الله من أوليائه ونصرته لهم وتأييده لهم بالمعجزات والكرامات .

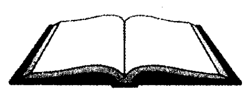
٣- الله على كل شيء قدير ، يُنطق الرضيع كما ينطق الحجر والشجر ، كما ينطق جوارح العبد فتشهد عليه يوم القيامة .

٤- الأخذ بالأسباب لا يقدح في التوكل ، بل هو سنة كونية لابد منها ، فالله سبحانه وتعالى قادر على أن يرزق مريم الطعام دون هز الجذع ، ولكنه الأخذ بالأسباب .

٥- من كرامة الله لمريم مطاوعة جذع النخلة لها ، فلو اجتمع رجال أشداء لهز جذع النخلة ما طاوعتهم ، فكيف بامرأة ضعيفة في مخاض الولادة .

٦- اليهود أهل بهت وكذب وزور ، هم أحرص الناس على الدنيا وشهواتها ، وفي سبيلها يقتلون الأنبياء ، ويكذبون الرسل .





٧ في اتباع شرائع الأنبياء والرسل تخفيف على الناس ، وتسهيل لهم ووضع الإصر والأغلال عنهم .

٨ أتباع الأنبياء دائمًا هم الأقلون ، ولكنهم هم الفائزون المفلحون .

٩ أسلم طريقة للنجاة من الفتن البعد عنها والهروب منها ، قال الله ﷻ : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ [سورة هود : ١١٣] ، وقال رسول الله ﷺ : «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ » (صحيح أبي داود : ٤٣١٩) .

١٠ كن طالبًا للاستقامة لا طالبًا للكرامة ؛ فإن أفضل الكرامة لزوم الاستقامة .

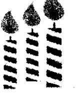
١١ إذا جدد الله عليك نعمة فلابد أن تقابلها بالشكر وحمد الله عليها .

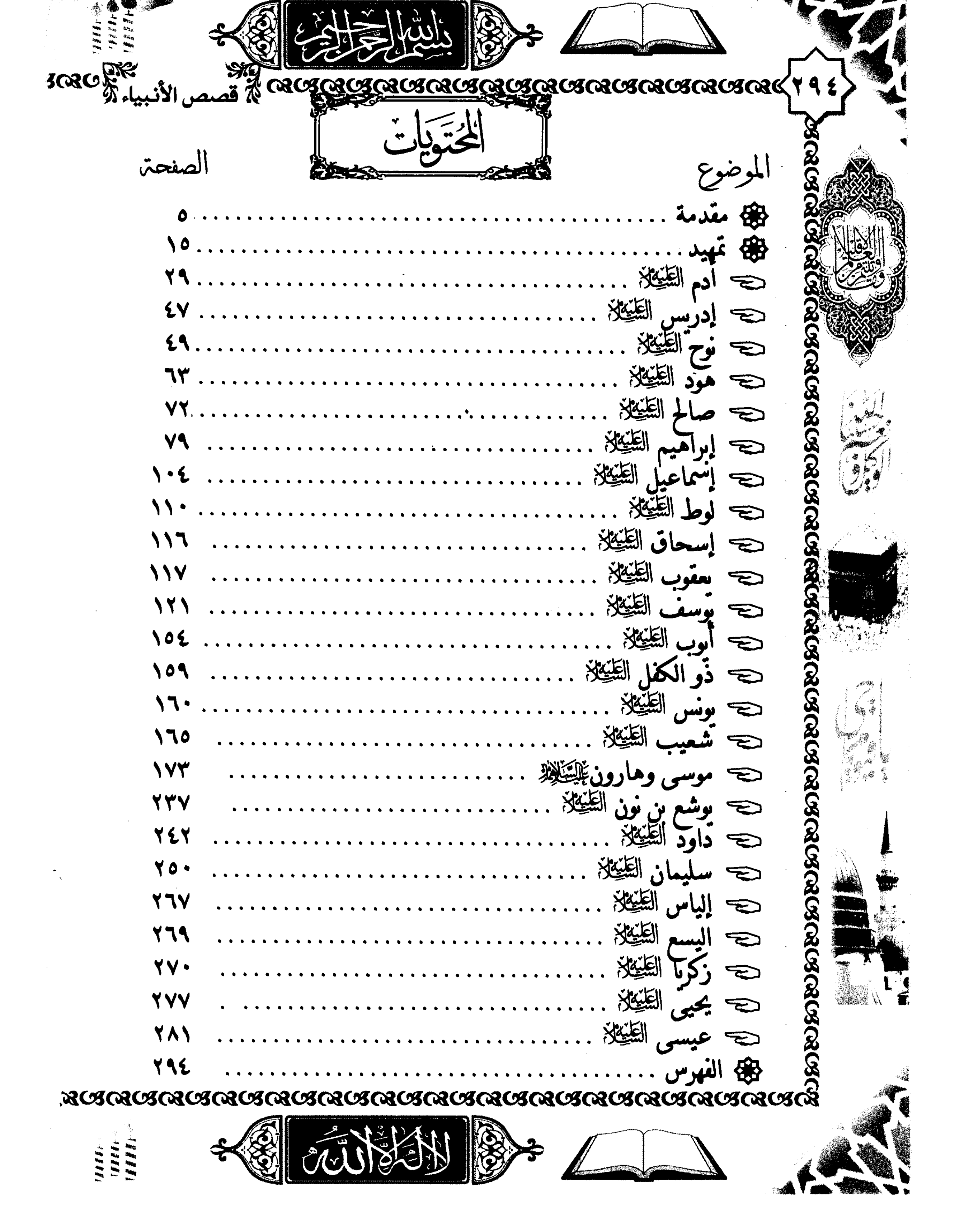
١٢ أنبياء الله بشر يموتون كما يموت البشر ويتعرضون للأذى كما يتعرض البشر ، وهم عباد الله المرسلون ، ليسوا آلهة يعبدون : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [سورة مريم : ٩٣] .

١٣ كل نفس ذرأها الله وبرأها لابد أن تذوق الموت ، وتعالج كروبه وغصصه : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [سورة الأنبياء : ٣٥] .









المحتويات